د. واضح الصمد

السجون

وأثرها في الآداب العربية

من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي

السجون وأثرها في الآداب العربية

الطبعة الأولى

1415 هـ ـ 1995 م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام
هاتف : 802428 -802407 -802296
ص. ب : 113/ 6311 ـ بيروت ـ لبنان
تلكس : 20680- 21665 LE M.A.J.D

د. واضح الصمد

السجون
وأثرها في الآداب العربية

من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي



المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الإهداء

إلى زوجتي، رفيقة الدرب الطويل.

واضح الصمد



المقدمة

السجون وأثرها في الآداب العربية، موضوع أثار اهتمامي لعشر سنوات خلت وكان لذلك دواعيه وحوافزه، منها الخاصة ومنها العامة.

أما الخاصة، فإن الأحداث الأليمة التي عصفت بوطننا، وما أفرزته من انقسامات وتحزبات وميليشيات وحواجز، لم نعهدها من قبل، فرضت على كل منا أن يكون أسيراً في تصرفاته، مسايراً للقوة القائمة على الأرض، وإلا... أصبح أحدنا يحس وكأن الوطن سجن، إذ أن الحرية الشخصية مفقودة، والكلمة الحرة ممنوعة، والانتقال من مكان إلى آخر مقيد، والانسان ابن البيئة، وأنا ابن هذا السجن، فمن البديهي التفكير بالسجن وبالاسر.

كانت أطروحتي للماجستير عن الأدب الجاهلي الذي ما انفك يشدني نحوه، وهذا الأدب لم يزل منبعاً لا ينضب للباحثين والادباء، يتخذون من مادته أصولاً لدراستهم، وما زال ثمة جوانب مهمة فيه لم يكشف النقاب عنها بعد، وتحتاج إلى ما تجلو عنها صدأ الاهمال.

لذلك، رأيت أن أدرس أدب السجن والأسر في العصر الجاهلي والاسلامي، وكان يحدوني الأمل في إضافة شيء جديد، إلى ما كتب عن تلك الفترة، وبخاصة أن المكتبة العربية تفتقر إلى مثل هذه الدراسة، وبذلك أساهم مساهمة متواضعة في خدمة العربية وتراثها.

كنت أدرك منذ البداية صعوبة هذه الدراسة، وأدرك أن الطريق ليست ممهدة، على الرغم من تعدد الدراسات وتنوعها، لم يكن هناك دراسات فرعية

مسبقة تساعد على هذا البحث. فكان عليّ التنقيب عن الأخبار والاشعار في الدواوين وكتب الأدب والتاريخ واللغة.

لذلك كلّه، ولما أسلفت من دواع، تأتي أهمية هذا البحث في مجال الدراسة الأدبية، فهو بالإضافة إلى ما المحت اليه يتناول بالدراسة، جماعة الشعراء الاسرى والمساجين الذين يشكلون شريحة من شرائح المجتمع العربي، كما يتناول مجموعة ضخمة من شعر الأسر والسجن بالبحث والتمحيص، متتبعاً من خلاله ما أصاب هذا الشعر من تطور موضوعي وفني.

وتجدر الاشارة إلى أن شعراء معروفين لم آت على ذكرهم في هذا العمل، على الرغم من تعرضهم لتجربة السجن، وذلك لأن نتاجهم الشعري جاء خالياً من الاشارة إلى السجون موضوع بحثنا، ومن هؤلاء الأخطل التغلبي.

شعر الأسر والسجن وافر جداً يصعب حصره، يدل على ذلك وفرة المصادر والمراجع المذكورة في حواشي البحث وهي ليست سوى قليل من كثير. والبحث يشمل عصوراً أدبية متطاولة (العصر الجاهلي والعصر الاسلامي) في منطقة جغرافية متسعة الارجاء، تعرض سكانها لحروب وغزوات نتج عنها الكثير من الأسرى، وامتلأت سجونها بالعديد من النزلاء من مختلف طبقات الشعب، ومنهم الشعراء، المكثرون والمقلون، الأبرياء والمذنبون. وأخبار هؤلاء الشعراء متفرقة على غير نظام في تصانيف القدماء التي حَوَتْ أشتات العلوم والمعارف والآداب وهي تذكر من مادة السجن ما يتفق والغرض الذي تتوخاه، وهذا الغرض يفرضه موضوع الكتاب واتجاهه.

وبما أن عدد الشعراء الذين تعرضوا لتجربة الأسر والسجن كان وافراً ومدة سجنهم كانت غالباً طويلة، لذلك كان شعرهم غزيراً، فهم في حاجة ذاتية إلى القول، إذ ثمة دوافع نفسية في المحنة والوحشة تهز الشاعر ليهتف بالشعر، وكأن نفسه لا ترضى الصمت بل تسعى في إسماع صوتها، ذلك الصوت الذي يمكن أن يكون من أقوى الذرائع للخروج من السجن، أو للفكاك من الأسر.

والأرجح أن معظم أدب السجن والأسر فقد لأسباب عديدة أهمها العامل السياسي إذ المعتقد أن الشعراء باحوا بذات نفوسهم وخففوا عنها بكثير من الشعر الناقم، ولكن الخوف من السلطان منع من تناقل ذاك الشعر وسيرورته بين الناس.

ويسلك الشاعر الأسير مسلكاً يذهب ببعض شعره على عمد، كأن يرغب في أن ينسى الناس معرة أسرة.

إن دراسة أدب الأسر والسجون تساعد على رصد مشاعر السجين بسبب فقدانه حريته الطبيعية، فالسجين يتعذب كونه سجيناً حتى ولو توفرت له شروط أفضل داخل السجن. وإن مصدر المعاناة الأساسي للسجين هي فقدانه لأبسط الأشياء التي تعوّد على أن لا يحيا من دونها: الإضاءة، حرية الحركة، الباب المفتوح، الخروج من البيت، التجوال، الدفء الخ... وهناك المعاناة اليومية المتصلة بالاهانات والضرب، ورداءة الطعام وغيرها.

حاولت أن أقدم لأدب السجون بدراسة تاريخية موجزة تلقي الضوء على أهم الجوانب التي تعين على فهم أدب السجن والأسر، وحياة الشعراء، ونزعاتهم، وبيئتهم الاجتماعية وغيرها.

وقد بنيت هذه الدراسة على ثلاثة أبواب متكاملة ومترابطة وهي:

الباب الأول:

ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية: تاريخية وفقهية وواقعية.

في القسم الأول التاريخي ثلاثة فصول: تحدثت في الفصل الأول عن السجون عند العرب الجاهليين في الحواضر والبوادي وعلى تخوم شبه الجزيرة العربية. وفي الفصل الثاني تحدثت عن السجون في صدر الاسلام، في القرآن الكريم وفي السنة وعند الخلفاء الراشدين. وفي الفصل الثالث تحدثت عن السجون في عصر بني أمية، عند السفيانيين والمروانيين، وعند الامراء والولاة، حيث اخترت نماذج معينة من كل من هؤلاء.

وفي القسم الثاني قدمت دراسة عن أحكام السجون عند الفقهاء المسلمين، يتمكن القارئ من خلالها من المقارنة بين التشريع الاسلامي؛ وبين ما كان يطبق في المجتمع وأثر ذلك في الأدب[1].

---

(1) André Miquel: Que sais-je. La littérature Arabe Presses universitaires de France Page 7/ 1976.

أما في القسم الثالث، فقد قدمت دراسة عامة عن أوضاع السجون، - حيث بينت الاسباب الموجبة للسجن مع أمثلة وشواهد. وكيفية الخروج من السجن، والحياة العامة في السجون، وانني أعتقد أن كل قسم من هذه الأقسام يمكن أن يشكل بحثاً مستقلاً.

الباب الثاني:

تحدثت في هذا الباب عن الشعراء المساجين والأسرى وأدبهم، وقد قسمته إلى أربعة فصول خدمة لترتيب البحث وتنسيقه. ففي الفصل الأول تحدثت عن أدب السجن في العصر الجاهلي وأدب الأسر في دراسة منفصلة حيث اخترت لكل منهما ستة شعراء مع شيء من شعرهم.

وفي الفصل الثاني تحدثت عن شعراء السجن والأسر في العصر الاسلامي، ثمانية منهم تعرضوا لتجربة الحبس وثلاثة للأسر. وفي الفصل الثالث تحدثت عن الشعراء الصعاليك الذين تعرضوا للسجن أو الأسر وقد قسمتهم إلى قسمين: العصر الجاهلي والعصر الاسلامي.

إن جميع الشعراء الذين تحدثت عنهم، في العصر الجاهلي أو الاسلامي أو الصعاليك ممن تعرضوا للسجن أو للأسر، قدمت لكل منهم ترجمة، عن حياته، وذكرت لهم نماذج من أشعارهم في السجن أو في الأسر، مع شيء من التعليقات الشخصية.

وهنا تجدر الاشارة إلى الدراسات القيمة التي قام بها بعض الباحثين والمتعلقة بالصعاليك أخص منهم بالذكر: الدكتور عبد الحليم حفني في كتابه شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، والدكتور حسين عطوان في كتابه الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، والدكتور يوسف خليف في كتابه الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، وهذه الكتب أفدت منها إفادة لا بأس بها في بحثي.

أما في الفصل الرابع، فقد تحدثت عن النثر في أدب السجون، وذكرت أربعة ممن تعرضوا لعملية السجن، وكان لهم نتاج أدبي نثري، وهم جميعاً من العصر الاسلامي.

الباب الثالث:

قسمت هذا الباب إلى فصلين:

الفصل الأول: تحدثت فيه عن موضوعات أدب السجون، وقد صنفتها تصنيفاً يوافق حياة الشعراء في أسرهم وسجنهم، فكان منها ما يصف الحياة الذاتية، ومنها ما يصف المعتقلات والتعذيب، ومنها ما يعرض للعلاقة بالسلطة، ومنها ما يصف العلاقة بالاهل، وأوردت من شواهد الشعر ما يفي بالغرض.

الفصل الثاني: تحدثت في هذا الفصل عن الخصائص العامة في أدب السجون، وقد قسمته إلى ثلاثة أقسام.

في القسم الأول تحدثت عن الخصائص المعنوية، وفي الثاني عن الخصائص اللفظية، وأشرت إلى الألفاظ الأكثر تداولاً في أدب السجن، وفي القسم الثالث تحدثت عن شعر الأسر والسجن، من حيث الشكل، أي القصائد التقليدية من ذوات المقدمات والأغراض المتعددة والمقطوعات، وأعطيت المطالع حقها في هذا القسم من الدراسة، وبينت ما طرأ عليها من تجديد، وكل ذلك مشفوعاً بشواهد شعرية تفي بالغرض.

ولا بد لي هنا من توجيه كلمة شكر وامتنان إلى القيّمين على شؤون الجامعة اللبنانية، لما لاقيته من تجاوب كلي، وتعاون تام، وحرص على تشجيع الباحثين، وذلك إسهاماً منهم في رفع المستوى الجامعي، وأخص بالذكر، مدير كلية الآداب في الجامعة اللبنانية ـ الفرع الثاني، الدكتور يوسف فرحات، الذي تكرم بالاشراف على تحقيق هذا البحث، دون كلل أو ملل، إنها شهادة حق، لم ألمس منه أيّ تضجر أو تذمر إن كان في أوقات عمله أو في أثناء راحته، بل كان يتلقاني ببشاشته المعهودة في مكتبه وفي بيته، فاتحاً لي كل المجالات التي يمكن أن تساعدني، فكان بالنسبة لي الحافز والمعين، فإليه وإلى جميع زملائه خالص الود التقدير.

وبعد، لقد اجتهدت في التنقيب عن انتاج الانسان المعذب الذي تجاهلته أقلام الباحثين، وعرضت ذلك الانتاج الذي ألقى عليه السجن بظلاله، وجلوت عن هذا الجانب المستور من تاريخ أدبنا. ولست أدعي بلوغ الكمال

في هذا البحث، ولكني أقول: حاولت ولم أبخل بجهد أستطيعه ليخرج هذا البحث في صورة مرضية، فإن أصبت فذلك حسبي، وإن أخطأت، فكل بني آدم خطّاء، والله ولي التوفيق.

الباب الأول

لمحة عن السجون منذ العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي

(دراسة تاريخية واجتماعية وفقهية)

الفصل الأول

اللمحة التاريخية

القسم الأول: عند العرب الجاهليين

عرف الجاهليون السجون في الامارات القائمة على أطراف الجزيرة العربية (المناذرة والغساسنة)، وفي بعض الحواضر (مكة واليمن)، أما القبائل العربية، فكانت، بحكم طبيعة حياتها الاجتماعية، وحلها وترحالها، تعتمد على الأسر لفترة زمنية محدودة، إذ لم تكن لديها سجون كما في الامارات والحواضر[1].

وسجن الشعراء وأسرهم، كان معروفاً في العصر الجاهلي، والشاعر في سجنه يطلب السماح والرحمة والعفو من سيده، يمدحه ويكذب الوشاة ويهجوهم، ويصف ليالي الأرق التي يعاني، والأغلال والقيود، ويطلب أحياناً الخلاص عند الأصدقاء، أو يدركه الموت فيريحه.

لقد برم الشعراء بالسجون، وجاء على ألسن المساجين منهم كثير من الشعر في وصف السجون، وتصوير أوضاعها، وربما كان لتلك السجون الأثر الكبير في إيقاظ ملكاتهم، وشحذ قرائحهم، ممّا زاد في ثراء نتاجهم وارتفاع قيمته.

وسنحاول تعرّف السجون وأثرها في الأدب العربي، إنطلاقاً من العصر الجاهلي وابتداء بالامارات.

---

(1) Jawad Boules, Les Peuples et les Civilisations du Proche-Orient Dar Aoud, Beyrouth, 1983, Teme PP 64 à 86.

وقارن مع Les peuples et les civilisations du proche orient-Jawad Boules tome 4- Dar Aoud, 1983- Page 61.

Ques sais-je: La littérature arabe-André Miquel-Presses Universaires de france Page 18- 1976.

1 ـ السجون عند المناذرة

يقول جواد علي: «كان لملوك الحيرة (سجون) ومنها سجن (الصنّين)، وقد أشير إليه في الشعر الجاهلي، ولا بد أن يكون لهم موظفون أودعوا اليهم مهمة المحافظة على السجون ومراقبة المساجين حتى لا يهربوا، ووكلوا اليهم أمر تعذيبهم وقتلهم أو سمهم عند صدور أمر الملك بذلك. كما فعلوا بعديّ بن زيد العبادي»[1].

وعدى هذا، حبسه عمه الملك النعمان، ومما قاله في سجنه:

لَيتَ أنّي أخذتُ حَتْفي بِكَفّيّ ... ولم ألقَ مِيتَةَ الأقتالِ[*]

وقال:

في حديد مُضاعَفٍ وغُلولٍ ... وثيابٍ مُنَضَّحاتٍ خِلاقِ

وقال أيضاً:

أَحَظّي كان سلسلةً وقيداً ... وغلاً والبيانُ لدى الطبيبِ[2]

وعنترة العبسي، الشاعر البطل الجاهلي، كان ابن أمة اسود اللون، لم يرغب عمه تزويجه ابنته، «عبلة»، لذلك اشترط عليه، كضرب من التعجيز، أن يقدم له مهراً من النوق العصافيرية التي لا تتوفر إلا عند المناذرة في الحيرة، لذلك اضطر أن يقطع الفيافي والقفار، وأن يخوض حرباً خاسرة، فقبض عليه وأودع السجن، فقال:

تُرَى عَلِمَتْ عُبَيْلَةُ ما أُلاقِي ... مِنَ الأهوالِ في أرضِ العراقِ

طَغَانِي بالرِّيَا والمَكْرِ عَمِّي ... وجارَ عليَّ في طَلَبِ الصَّدَاقِ

ثم ان الملك المنذر، أمر عنترة أن يبارز أسداً، وهو مقيد الرجلين،

---

(1) جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام** 5/ 293 ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ومكتبة النهضة بغداد ـ الطبعة الثانية 1978 ـ وقارن مع تاج العروس 9/ 261 ص 1.

(2) أبو الفرج الاصبهاني، **الأغاني** 2/ 237 وما بعدها، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ـ بيروت ـ مصور عن طبعة دار الكتب ـ صفدي وحاوي ـ **موسوعة الشعر العربي** 2/ 437 شركة خياط للكتب والنشر ـ بيروت 1974.

وأعطاه سيفاً، فقضى على الأسد، وأطلق سراحه، وفي ذلك يقول:

قطعتُ وريدَهُ بالسيفِ جَزْراً   وعدتُ إليه أحجلُ في وثاقي[1]

يبدو أن السجين، كان يوثق بقيود وأغلال تتصل بسلسلة يتعذر عليه معها أن يتحرك بسهولة، ويبدو أن تلك القيود كانت ثقيلة إلى حد أن عنترة لم يقو على حملها، فراح يحجل في مشيته.

ويمكننا القول أن معاملة السجناء كانت قاسية، والخدمات سيئة، فثوب عديّ أمسى بالياً كثير الرقع، وإذا كانت هذه حال صهر الملك وربيب القصور، فكيف كانت حالة السجين من أبناء العامة.

وعلى مقربة من الحيرة، في البحرين، قبض على الشاعر الفتي طرفة بن العبد، بأمر من الملك عمرو بن هند، وأودع السجن، وأبى العامل أن يقتله لصلة قرابة تربطه به، ومما قاله طرفة في السجن:

ألا اعتزليني اليوم يا خولة أو غضي   فقد نزلت حدباء محكمة العضّ[*]

أبا منذر كانتْ غروراً صحيفتي   ولم أعطكم بالطوع مالي, ولا عِرْضِي

ثم أرسل عمرو بن هند رجلاً من بني تغلب وقتل طرفة[2].

لم تكن مأساة هذا الشاعر وحيدة بين شعراء الجاهلية، فالمنخّل اليشكري قضى أيضاً على يد ملوك الحيرة، قيل إنه أصاب نعمة عند الملك النعمان بن المنذر، إلى أن وقع في قلبه أمر إرتاب فيه، وقيل بل اتهمه بامرأته «المتجردة» فأخذه ودفعه إلى صاحب سجنه ويدعى «عكب» من بني تغلب، فأخذه عكب وعذبه، فقال المنخل في ذلك:

يُطَوِّفُ بي عِكَبٌ في مَعَدٍ   وَيَطْعَنُ بالصَّميلةِ في قَفِيَّا[3]

---

(1) ديوان عنترة، بيروت ـ ص/ 175/ دار صعب ودار صادر ـ بيروت.

(*) هكذا ورد.

(2) ديوان طرفة بن العبد ص/ 66/ المؤسسة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت ـ وقارن مع الحماسة البصرية ـ عالم الكتب ـ بيروت ص/ 43 / .

(3) ابن منظور ـ لسان العرب 3/ 406 و11/ 385 ـ دار صادر ـ بيروت.

وقيل انه دفنه حياً، وقيل انه أغرقه، وكان ذلك سنة / 597/ م[1].

2 ـ السجون عند الغساسنة

ورد أن «سعيداً بن العاص»[2] قدم الشام في تجارة، فحبسه «عمرو بن جفنة لأجل «عثمان بن الحارث» فقال سعيد في ذلك:

يـــا راكـــبـــي امـــا عـــرضـــ ـتَ فـبـلـغـن قـومـي يـزيـدا
عـــثـــمـــان أو عـــفـــان أو أبـلـغ مـغـلـغـلـة أسـيـدا
فَـلأَمْـدَحَـنَّ الـمـادحـيـ ـنَ بـمـدحـة تـأتـي شـرودا[*]

وكان سعيد حبس مع «هشام بن سعيد العامري» فقال سعيد بن العاص في ذلك:

قومي وقومك يا هشام قَدَ أَجْمَعوا تـركـي وتـركـك آخـر الاعـصـار

فاجتمع رأي بني عبد شمس على أن يفتدوا «سعيداً بن العاص» فجمعوا مالاً كثيراً افتدوه به، ومات هشام في الحبس[3].

وذكر أيضاً أن «يزيداً بن عبد المدان» كان في زيارة «ابن جفنة» الملك الغساني وضيافته فسمع رجلاً يقول:

أمـا مـن شـفـيـع مـن الـزّائِـريـنَ يـحـبُّ الـثَّـنَـا زنـدُه ثـاقِـبُ

فعرف يزيد أن هذا الشعر لرجل من «جذام» جفاه ابن جفنة وحبسه وهو مخرجه غدا فقاتله. فشفع فيه يزيد، فأعطاه اياه الملك وعفا عنه[4].

نستنتج مما تقدم أن الغساسنة كانوا على معرفة بالسجون، واللافت في

---

(1) لويس شيخو ـ **شعراء النصرانية قبل الاسلام** ـ ص/ 421 / دار المشرق ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة 1967.

(2) جاهلي، توفي قبل الاسلام.

(*) للتنبه إلى القافية هناك أقواء.

(3) ابن حجر العسقلاني ـ **الاصابة في تمييز الصحابة** ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت 2/ 126.

(4) لويس شيخو، **شعراء النصرانية قبل الاسلام** ص/ 84/ .

حادثة «سعيد بن العاص»، انه لم يكن هو المذنب، بل المذنب أحد أقربائه، وقد أخذ بجريرة غيره. ويبدو أن للمال تأثيره في كل عصر، إذ كان عاملاً في إخراج سعيد من السجن. ومن ليس عنده مال، ولا شفيع له ولا منقذ يبقى في السجن حتى يموت وهذا ما حصل «لهشام العامري».

ولم تكن هناك مدة محددة لعقوبة السجن، بل كانت المدة مزاجية، فقد يتذكر الملك المسجون ويعفو عنه بعد فترة وجيزة، كما قد يبقيه طول حياته في السجن ويموت فيه.

ويبدو أن الملك وحده هو الذي يعاقب بالسجن، ويملك حق إطلاق سراح المسجون.

وكانت السجون متطورة نوعاً ما، فلم تكن زنزانة أو بئراً، وقد يكون بناؤه أعد أصلاً لكي يكون سجناً، لأن «سعيداً بن العاص» لم يكن وحده منعزلاً في مكان خاص، بل ذكر اسم رفيق له «هشام العامري».

هذه لمحة عن أوضاع السجون في الامارات التي كانت قائمة على أطراف الجزيرة العربية. فكيف كانت أوضاع السجون في الحواضر (مكة واليمن).

3 ـ السجون في مكة

في مكة كان سادة الأسر يعاقبون المخالفين والخارجين على الطاعة يحبسهم في بيوتهم وذلك بربط المحبوس بالسلاسل، فلا يخرج، ولا يغادر مكانه. حتى أنه في أول الاسلام، حبس زعماء مكة من أسلم من الشبان عقوبة لهم، [1] منهم «الوليد القرشي المخزومي المدني» الذي كان محبوساً بمكة، فلما أراد أن يهاجر إلى المدينة، لاحقاً بالرسول، باع مالاً بالطائف يقال له «المنياقة» وقال:

وليد هاجر وبع المنياقة واشتر منها جملاً وناقة
ثم ارمهم بنفسك المشتاقة

(1) جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام**، 5/ 587 وما بعدها. وقارن مع: L'islam et la reforme, Victor Segesvary-Lausianne, 1988- Edition l'âge d'homme - 1977 - p.103.

فوجد غفلة من القوم عنه فخرج، ولما كان بـ «حرة الأضراس» نكب ودميت أصبعه، وتابع طريقه إلى أن وصل إلى المدينة حيث توفي[1].

ويقال ان «الحارث بن عبيد بن مخزوم» كان يحبس سفهاء قومه في «النقيع» وهوَ جبل بمكة[2].

نلاحظ مما تقدم أن سيد الأسرة في مكة، كان يعد في بيته مكاناً خاصاً لسجن المخالفين ولم تكن كل تلك السجون مجهزة بالسلاسل لربط المحبوسين، ولم تكن محصنة كما يلزم، والحراسة كانت مهملة، لذلك تمكن «الوليد القرشي» من الهرب.

4 ـ السجون في اليمن

عرف أبناء اليمن السجون منذ أمد موغل في القدم، فقد قال «المسعودي» أن «كيكاووس» (أحد ملوك الفرس الأولى)، سار بجيشه إلى اليمن، وكان ملك اليمن حينها يدعى «شمر بن فريقس»، فخرج اليه شمّر، فأسره وحبسه في أضيق محبس، فعشقته ابنة لشمر يقال لها «سعدى» كانت تحسن اليه وإلى من كان معه من أصحابه، خفية من أبيها. ومكث في محبسه أربع سنين، حتى أنقذه «رستم» الذي تغلب على «شمر» وقتله، وأعاد «كيكاووس» إلى ملكه ومعه سعدى[3].

وقد كانت سجون العربية الجنوبية في قلاع الملوك، والاقيال والاذواء، وفي المباني العامة المحصنة، حيث يودع السجين في أماكن منيعة حتى لا يتمكن من الهروب منها، يحرسها سجانون، وبين المساجين عدد من المعارضين للحكام والثوار والمشاغبين على السلطة القائمة، أي مجرمين سياسيين، يبقون في سجونهم ما دام الحكام غير راضين عنهم، وقد يموت بعض منهم وهم في سجونهم[4].

---

(1) ابن عساكر ـ **تهذيب تاريخ دمشق الكبير** ـ دار المسيرة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية 1979 ـ 3/ 17.

(2) ياقوت الحموي ـ **معجم البلدان** ـ دار صادر ـ بيروت 1977 ـ 5/ 297.

(3) المسعودي ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ـ دار الاندلس ـ بيروت 1/ 250.

(4) جواد علي ـ **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام** 5/ 589.

وقد يتوفى السجين من سوء حالة السجن ومن الجوع والعطش، ويقال لحارس السجن «حصق» في اللغة العربية الجنوبية[1].

إذا كان ما ذكره المسعودي صحيحاً، فمعنى ذلك أن عرب الجنوب بلغوا شأواً بعيداً في الحضارة وفي وقت مبكر جداً، إذ كان عندهم ابنية معدّة أصلاً لتكون سجوناً، منها الفسيح ومنها الضيق، ويبدو أن السجن كان قسماً من القصر الملكي، ما أتاح لسعدى فرصة الاتصال بكيكاووس ورفاقه والاحسان اليهم، وهذا يتفق وما ذكره جواد علي من أن السجون كانت في قلاع الملوك.

5 ـ سجون القبائل العربية

لم يكن عند القبائل العربية سجون بالمعنى المعروف نظراً لظروف الحياة الاجتماعية التي كانت تحياها من حل وترحال، بحثاً عن الماء والكلأ. وإذا أذنب أحد أفراد القبيلة كان يغرّم بدفع شيء من المال أو الانعام، أو الابعاد مدّة زمنية محددة. أما الاسر فكان معروفاً في العصر الجاهلي، ونتيجته تكون مادية أو معنوية أو مقايضة.

ومن حوادث الأسر عند القبائل العربية قبل الاسلام ما ذكره الأصبهاني أن بني عقيل أسروا «قيسبة بن كلثوم السكوني» أحد ملوك اليمن، وهو في طريقه لأداء فريضة الحج، وأخذوا ماله وما كان معه، فمكث عندهم ثلاث سنين في أغلاله وقيوده إلى أن استنقذه أهلوه بعد معارك طاحنة[2].

وجاء في الأغاني: أسر الشاعر «أبو الطحان القيني» في «حرب الفساد» أسره رجلان من طيّء فاشتراه منهما «بجير بن أوس بن حارثة» لما بلغه شعره الذي مطلعه:

أرِقْتُ وأبَتْنِي الهمومُ الطّوارِقُ ولم يلقَ ما لاقيتُ قَبْلِيَ عَاشِقُ

فجز ناصيته واعتقه»[3].

---

(1) المصدر نفسه 5/ 292.

(2) الأصفهاني ـ **الأغاني** ـ 13/ 3 وما بعدها.

(3) الأصفهاني ـ **الأغاني** ـ 13/ 11.

أما «كارل بروكلمان» فيخبرنا أن «بني شبابة» أسروا الشاعر «الشنفرى». ولم يزل عندهم حتى أسر «الأزد» رجلاً من بني شبابة، ففدوه بالشنفرى[1].

ومن حوادث الأسر، ما حصل مع «عبد يغوث الحارثي» وهو شاعر جاهلي، فارس سيد لقومه، وكان قائدهم في يوم «الكلاب الثاني» حين أسر، وقيل انهم سقوه الخمر وقطعوا له عرقاً يقال له الأكحل، وتركوه ينزف حتى مات[2].

والشاعر «جويرة بن بدر الدارمي» أسرته قبيلة «ربيعة» وبقي عندهم في وثاقه، حتى رآهم مرة يشربون فأنشأ يتغنى ويقصد إسماعهم قائلاً:

...

لعلّهم أن يمطروني بنعمة ... كما صاب ماء المزن في البلد المحل

فقد ينعش الله الفتى بعد ذلة ... وقد تبتني الحسنى سراة بني عجل

فلما سمعوا هذه الأبيات أطلقوه[3].

وقد ذكر انه أغار قيس بن عاصم المنقري على بني مرّة فأصاب عدة أسارى، منهم رجل من هوازن، فجاء أخوه إلى يزيد بن عبد المدان واستغاث به لانقاذ أخيه من الأسر. فأرسل يزيد إلى قيس وطلب منه الهوازني. وقال له: لو أرسلت إليّ في جميع أسارى مضر بنجران لقضيت حقك[4].

وقبض عتيبة بن الحارث على بسطام بن قيس وأخذه أسيراً، فلم يزل بسطام عند عتيبة حتى فادى نفسه بأربعمائة بعير وثلاثين فرساً[5].

وهكذا نرى أن عملية الأسر كانت شائعة عند القبائل العربية في العصر

---

(1) كارل بروكلمان ـ **تاريخ الأدب العربي** ـ ترجمة د. عبد الحليم نجار ـ دار المعارف ـ مصر ـ الطبعة الرابعة 1977 ـ 1/ 105.

(2) الجاحظ ـ **الحيوان** 7/ 157 ـ **المفضليات** 1/ 155 ـ **موسوعة الشعر العربي** 3/ 229.

(3) محمد أحمد جاد المولى ورفاقه ـ **أيام العرب في الجاهلية** ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. ص 173.

(4) لويس شيخو ـ **شعراء النصرانية** ـ ص/ 86 /.

(5) لويس شيخو ـ **شعراء النصرانية** ـ ص/ 257/.

الجاهلي. وربما كانوا يجهدون أنفسهم بالعمل على أسر السادة أو الوجهاء، فيساومون عليهم إما بالثمن المادي، وإما بالمقايضة، وهؤلاء يكون ثمنهم غالياً.

وكانوا يحافظون على الأسير ولمدة طويلة حتى يأتي الوقت المناسب لقبض الثمن.

هذه لمحة سريعة عن أوضاع السجون في العصر الجاهلي وعن عملية الأسر.

ننتقل إلى العصر الاسلامي، لنتعرف أحوال السجون ومدى تطورها.

القسم الثاني: في صدر الاسلام

تمهيد

تستند العقوبات في المجتمعات الاسلامية إلى القرآن الكريم، وإلى السنّة النبوية، واجتهادات الفقهاء، فتقوم على مبدأ القصاص تبعاً لنوع الجرم. والسلطة هي التي تنفذ القصاص، أو يكون بأمر منها.

وبما أن الشريعة الاسلامية حددت أنواع العقوبات لمخالفات وجرائم كثيرة، كالسرقة والزنى وغيرهما، فإن تلك العقوبات تنفذ عند ثبوت الادانة وغالباً ما تكون فورية.

لذلك كانت الحاجة إلى السجن قليلة نوعاً ما، واللجوء اليه كضرورة حتى يستبان أمر المتهم، وربما كان الحبس عقوبة تعزير[1] لانسان ارتكب مخالفة لم تضع الشريعة الاسلامية لها حداً.

لقد كانت السجون بكثرة في الجزيرة العربية قبل الاسلام[2] وأخذت

---

(1) التعزير: ضرب دون الحد، لمنعه الجاني من المعاودة وردعه عن المعصية. والعزر: المنع. والتعزير: التوقيف على الفرائض والأحكام. وأصل التعزير: التأديب. **لسان العرب** 4/ 561 وما بعدها.

(2) فرانز روزنتال - **مفهوم الحرية في الاسلام** - ترجمة وتقديم د. معن زيادة ورضوان السيد - معهد الانماء العربي - ليبيا - 1978 - ص/ 44/.

تتطور تدريجياً في صدر الاسلام نظراً لمقتضيات الحياة الاجتماعية وتطورها واتساع الدولة الاسلامية، ودخول جماعات متنوعة من البشر في الاسلام[1]، وقد تحدث القرآن الكريم عن السجن في آيات عديدة منها في سورة يوسف.

1 ـ السجن في القرآن. (الآيات ومدلولاتها)

﴿قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾[2].

وورد في السورة نفسها: **﴿ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين﴾ ﴿قال رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه. . .﴾**[3] وورد أيضاً: **﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين﴾ ﴿ودخل معه السجن فتيان. . . .﴾**[4].

وذكر أيضاً: **﴿يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾**[5]. وفي السورة نفسها: **﴿يا صاحبي السجن أمّا أحدكما فيسقي ربه خمرا. . . .﴾**[6].

وفي مكان آخر ورد: **﴿فلبث في السجن بضع سنين﴾**[7].

وورد أيضاً: **﴿. . . وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن. . .﴾**[8].

وعن قصة حبس يوسف، ذكر البيهقي: «. . . . في الحديث المرفوع، قال: شكا يوسف، عليه السلام، إلى ربه جلّ وعزّ، طول الحبس، وأوحى

---

(1) André Miquel, Que sais-je? La litterature Arabe-Presses universitaires de France- 1976- Page 9.

(2) سورة يوسف 12/ 25.

(3) سورة يوسف 12/ 32 و33.

(4) السورة نفسها 12/ 35 و36 ـ قال قتادة: كان أحدهما ساقي الملك والآخر خبازه. . . توهم الملك أنهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه. ابن كثير 2/ 477 ـ الجلالين ص 314.

(5) نفس السورة 12/ 39. التفسير: ثم ان يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما. . . ابن كثير 2/ 479.

(6) نفس السورة 12/ 41.

(7) (8) نفس السورة 12/ 42 و100.

الله تبارك وتعالى إليه: أنت حبست نفسك حيث قلت: رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه، ولو قلت العافية أحب إليّ عوفيت.

قال: وكتب يوسف على باب السجن: هذه منازل البلوى وقبور الاحياء وشماتة الاعداء وتجربة الاصدقاء. ودعا لأهل الحبس بدعوتين هما معروفتان فيهم إلى اليوم، وهما: «اللهم اعطف عليهم قلوب الاخيار ولا تعم عليهم الاخبار. فكل الناس يرحمونهم، والاخبار من كل جهة عندهم»[1].

وورد عن السجن في سور أخرى من القرآن الكريم، منها ما جاء في سورة الشعراء: **﴿قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾**[2].

وجاء في سورة المائدة: **﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾**[3].

المقصود من هذه الآية عبارة: أو ينفوا من الأرض. المراد بالنفي ههنا أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه[4].

وورد في سورة المائدة أيضاً: **﴿تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم﴾** . هذا بالنسبة إلى الشاهدين اللذين حضرا وصية الميت قبل وفاته، يحبسان بعد الصلاة، أو صلاة العصر، فيؤديان شهادتهما امام جمهور المصلين، وان ظهرت لكم منهما ريبة انهما خانا، فيحلفان حينئذٍ بالله[5].

وجاء أيضاً في سورة هود: **﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمّة معدودة ليقولن ما يحبسه﴾**[6].

وورد في القرآن الكريم ألفاظ أخرى بمعنى الحبس أو السجن منها:

---

(1) ابراهيم بن محمد البيهقي ـ المحاسن والمساوئ ـ دار صادر ـ بيروت 1970 ـ ص 521.
(2) سورة الشعراء 26/ 29.
(3) سورة المائدة 5/ 35.
(4) ابن كثير 2/ 51 ـ الجلالين ص 148.
(5) سورة المائدة 5/ 106 ـ تفسير ابن كثير 2/ 112 والجلالين ص 164.
(6) سورة هود 11/ 8.

﴿ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا﴾[1] و﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا﴾[2] أي مستقراً وسجناً لا محيد لهم عنه[3].

تلك هي أهم الآيات التي وردت في القرآن الكريم والتي تتحدث عن السجن. ومدلولات تلك الآيات حسبما وجدناه في كتب التفاسير المتوفرة.

ويجدر بنا الانتقال إلى المرحلة التالية لنتعرف علاقة السجن بالسنّة النبوية.

2 ـ السجن في السنّة: (الأحاديث والممارسات العملية)

المقصود بالسنّة: كل قول صدر عن النبي محمد ﷺ، أو عمل، أو تقرير، وهذا يعني: كل عمل صدر عن صحابته فأقره أو نهى عنه[4].

اختلف أهل الامصار، هل سجن رسول الله ﷺ أحداً أو لا؟ فذكر بعضهم أنه لم يكن له سجن، ولا سجن أحداً، وذكر بعضهم الآخر أنه سجن في المدينة، في تهمة وفي غيرها.

هذا الأمر غدا موضوع اهتمام الفقهاء الذين كانوا يحاولون العثور على سوابق عند الرسول، أو عن القرآن، تبيح لهم تطبيق عقوبة الحبس على المدينين والمتهمين وغيرهم.

ومما وجدناه في هذا الصدد، ما ذكره المقريزي: «روى أبو داود وابن ماجه عن الهرماس بن حبيب عن أبيه، قال: أتيت النبي ﷺ بغريم لي، فقال لي ألزمه... ثم مرّ الرسول ﷺ بي، آخر النهار، فقال: ما فعل أسيرك يا أخا

(1) سورة البقرة 2/ 231. التفسير: أي لا ترجعوا إلى المطلقات اللواتي قاربن إنقضاء عدتهن، ضراراً لتطويل حبسهن ومنعهن من الزواج من آخرين. **الجلالين** ص / 49/ **ابن كثير** 1/ 281.

(2) الاسراء 17/ 8.

(3) **ابن كثير** 3/ 26، **الجلالين** ص 372.

(4) محمد عجاج الخطيب ـ السنة قبل التدوين ـ دار الفكر ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة 1980 ص 16 وقارن مع:

Jawad Boulos, Les peuples et les civilisations du proche Orient- Tome 4- Dar Aoub- 1983 - Page 116 René Kaliskay, L'Islam origine et essor du monde arabe - Marout université Belgique- 1980- Page 134.

بني تميم؟. وهذا كان هو الحبس على عهد النبي ﷺ وأبي بكر، ولم يكن له محبس معدّ لحبس الخصوم[1].

وعن الحسن بن سفيان... عن الحسن قال: كان بين أناس من أهل الحجاز قتال في بعض ما يكون بين الناس فتقاضوا إلى النبي ﷺ فأمر بحبسهم[2].

وذكر بعضهم أن الرسول ﷺ سجن بالمدينة في تهمة دم. وانه سجن رجلاً أعتق شركاً له في عبد، فوجب عليه استتمام عتقه حتى باع غنيمة له (وأتم عتقه)، وان رجلاً قتل عبده متعمداً فجلده النبي عليه السلام مائة جلدة ونفاه سنة[3]. وفي رواية أخرى انه حكم عليه بالضرب والسجن[4].

وروى ان الرسول ﷺ بعث خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة، يقال له تمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد الحديث. وذكر ابن اسحاق خبر بني قريظة حين نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فحبسهم بالمدينة في دار بنت الحرث، وهي امرأة من الأنصار[5].

وفي كتب السيرة من خبر اسلام: عدى بن حاتم الطائي، وفراره إلى الشام حين سمع بجيش رسول الله ﷺ، وطىء بلادهم، فخرج هارباً، فتبعه الخيل فأصابت أخته ممن أصابه فقدم بها في سبايا طيء، وقد بلغ الرسول انه هرب إلى الشام فجعلت بنت حاتم في حصيرة بباب المسجد، وكانت النساء تحتبس فيها[6].

---

(1) تقي الدين المقريزي ـ **المواعظ والاعتبار المعروف بالخطط المقريزية** ـ دار صادر بيروت ـ الطبعة الجديدة بالاوفست ـ 2/ 187.

(2) أبو بكر أحمد الحلال ـ **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** ـ تحقيق عبد القادر عطا ـ دار الاعتصام ـ 1975 ـ ص 132.

(3) ابن الطلاع ـ **أقضية الرسول**. تحقيق محمد الأعظمي ـ دار الكتاب اللبناني 1982 ـ ص 92 وما بعدها.

(4) **أقضية الرسول** للقرطبي ص 4.

(5) عبد الحي الكتاني ـ **الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية** ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت 1/ 294.

(6) عبد الحي الكتاني ـ نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية ـ 1/ 300.

وقال النبي ﷺ في الذي أمسك رجلاً للآخر حتى قتله: «اقتلوا القاتل واصبروا الصابر». وقال أبو عبيد قوله اصبروا الصابر، يعني احبسوا الذي حبسه للموت، حتى يموت، وكذلك ذكره عبد الرزاق في مصنّفه عن علي بن أبي طالب، يحبس الممسك في السجن حتى يموت[1].

وهذا كله يؤكد لنا أنه لم يكن هناك سجن عند الرسول يسجن فيه المخالفين. وإنما كانت عقوبة تعويق للشخص المذنب، ربما تكون في بيت أو في المسجد. حتى أن الشخص المدعي كان يلازم المحبوس لئلا يحاول الفرار.

وفي أيام الرسول، وأول انتشار الدعوة، تعرّض بعض من أسلم حديثاً للحبس منهم فروة بن عمرو الجذامي الذي كان عاملاً للروم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان في أرض الشام، ولما سمع بالنبي وبدينه الجديد أعلن إسلامه وأهدى للرسول بغلة بيضاء، فلما بلغ الروم إسلامه طلبوه حتى أسروه فحبسوه، فقال في محبسه ذلك:

طَرَقَتْ سُلَيْمَى مَوْهَناً فَشَجَانِي ... والرومُ بينَ البابِ والقَرْبانِ

صدَّ الخيالُ وساءَهُ ما قد رَأى ... وهممتُ أنْ أُغْفِي وقد أبْكانِي

لا تَكْحِلَنَّ العينَ بعدي إثْمداً ... سلمى ولا تَدْنِنَّ للانسانِ

ثم صلبوه على ماء يقال له عفري بفلسطين[2].

وأخبر اسماعيل المخزومي المدني أن الوليد بن المغيرة كان محبوساً بمكة لأنه أعلن إسلامه، فلما أراد أن يهاجر باع مالاً له بالطائف، ووجد غفلة من القوم عنه فخرج ولحق بالرسول في المدينة[3].

3 ـ السجن عند الخلفاء الراشدين

أ ـ في عهد أبي بكر الصدّيق

توفي النبي ﷺ سنة 11 هـ / 632 م. وفي اليوم نفسه بويع أبو بكر

(1) القرطبي ـ **أقضية الرسول** ـ ص 101.

(2) ابن الأثير ـ **الكامل في التاريخ** ـ دار صادر ـ بيروت ـ 2/ 297.

(3) ابن عساكر ـ **تهذيب تاريخ دمشق الكبير** ـ دار المسيرة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية 1979 ـ 3/ 17.

بالخلافة، قيل إنّ اسمه في الجاهلية عبد اللات وقيل عبد العزّى، فسماه النبي ﷺ عبد الله. فهو عبد الله بن أبي قحافة، وقيل له الصديق لأنه صدّق بكل ما جاء به محمد. ولّى عمر بن الخطاب أمر القضاء في عهده، فمكث سنة لا يأتيه رجلان يختصمان[1].

لدى التنقيب في الكثير من كتب التراث لم نعثر على أية حادثة أدت بصاحبها إلى السجن في عهد أبي بكر، ويبدو أن وضع السجون كان امتداداً للحالة التي كانت عليها أيام الرسول. وهذا ما نستنتجه أيضاً من قول الماوردي: «الحبس الشرعي ليس هو في مكان ضيق وإنما هو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه سواء كان في بيت أو مسجد وكان يتولى نفس الخصم أو وكيله عليه، ملازمته له، ولهذا سماه النبي ﷺ أسيراً... وهذا كان هو الحبس على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر ولم يكن له محبس معد يحبس الخصوم»[2].

ب ـ في عهد عمر بن الخطاب

تسلم عمر الخلافة صبيحة الليلة التي توفي فيها أبو بكر سنة 13 هـ / 634 م. كان من أعظم الشخصيات الاسلامية، يتخذه المسلمون المثل الأعلى للحاكم العادل. توفي سنة 23 هـ / 644 م[3].

وفي أثر منسوب إلى عمر، إن الاعتراف المنتزع بالقوة، أو أساليب مماثلة ـ كالسجن ـ غير موثوق به[4].

ويروى أن عمر بن الخطاب قال: «لا يزاد السارق في القطع على قطع يده ورجله، وان سرق بعد ذلك استودع السجن، وقال: إني لاستحي من الله ألا أدع له يداً يستنجي بها ويتوضأ بها للصلاة»[5].

---

(1) **دائرة المعارف**، 2/ 37 وما بعدها. الموسوعة العربية الميسرة ص 31.

(2) **التراتيب الادارية** ـ 1/ 295. ـ المؤلف عبد الحي الكتاني.

(3) **الطبقات الكبرى لابن سعد** 3/ 265 وما بعدها. **الموسوعة العربية الميسرة** ص 1236.

(4) أبو يوسف ـ **الخراج** ـ نسخة عن مخطوطة في الخزانة التيمورية ـ عنيت بطبعه ونشره المطبعة السلفية ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية 1352 هـ. ص 175 .روزنتال الهامش رقم 123.

(5) وكيع (محمد بن خلف) بن حيان ـ **أخبار القضاة** ـ عالم الكتب ـ بيروت 3/ 210.

وقيل ان عمر نفسه قضى بين الناس، فقد ورد أن الخليفة عثمان بن عفان طلب من ابن عمر أن يقضي بين الناس، فطلب ابن عمر إعفاءه. قال له عثمان: «وما يمنعك وقد كان أبوك يقضي»[1].

يقول البلاذري المولود في أواخر القرن الثاني للهجرة: «حدثنا هناد عن... قال أنقش رجل يقال له معن بن زائدة على خاتم الخلافة (أي زوّر خاتم الخلافة) فأصاب مالاً من خراج الكوفة على عهد عمر، فبلغ ذلك عمر، فكتب إلى المغيرة بن شعبة: إذا أتاك كتابي هذا فنفذ فيه أمري وأطع رسولي، فلما صلّى المغيرة العصر، وأخذ الناس مجالسهم، خرج ومعه رسول عمر، فاشرأب الناس ينظرون اليه حتى وقف على معن، ثم قال للرسول: إن أمير المؤمنين أمرني أن أطيع أمرك فيه، فمرني بما شئت، فقال الرسول: ادع لي بجامعة، فجعلها في عنق معن وجبذها جبذاً شديداً، ثم قال للمغيرة: احبسه حتى يأتيك فيه أمر أمير المؤمنين، ففعل، وكان السجن يومئذٍ من قصب، فهرب ليلاً... حتى قدم على عمر تائباً. فضربه عمر وحبسه فكان في الحبس ما شاء الله... ثم أرغمه على دفع شيء من المال وخلى سبيله»[2].

وروي أيضاً أنه كان تميم بن مقبل يهاجي النجاشي الشاعر، فهجاه النجاشي فاستعدى عليه عمر، رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين هجاني. فقال عمر: يا نجاشي ما قلت؟ قال: يا أمير المؤمنين، قلت ما لا أرى فيه عليه بأساً... فسله يا أمير المؤمنين عن قوله:

أولئك أخوان اللعين وأسوة الـ هجين ورهط الواهن المتذلل

فقال عمر: «اما هذا، فلا أعذرك عليه فحبسه وقيل جلده»[3].

وقيل أن عمر أول من وقى الكذب على رسول الله ﷺ فقد حدّث الهيثم

---

(1) ابن حبان الهيثمي ـ **موارد الظمآن** ـ تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة ـ دار الكتب العلمية ـ مكة المكرمة 1/ 290 ـ **التراتيب الادارية 1/ 256**.

(2) البلاذري ـ **فتوح البلدان** ـ مراجعة وتحقيق رضوان محمد رضوان ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت 1978 ـ ص 448 وما بعدها.

(3) عبد القادر البغدادي ـ **خزانة الادب ولب لباب لسان العرب** ـ دار صادر ـ بيروت ـ عن الطبعة الأولى ـ 1/ 233.

بن خلف عن. . . عن سعد بن ابراهيم عن ابيه قال: بعث عمر بن الخطاب إلى عبد الله بن مسعود، وأبي الدرداء، وأبي مسعود الانصاري فقال: ما هذا الحديث الذي تكثرون عن رسول الله ﷺ فحبسهم في المدينة حتى استشهد. وفي روايات أخرى ورد مع الذين حبسهم: أبو ذر وعقبة ابن عامر[1].

وورد انه ثبت أن عمر بن الخطاب سجن صبيغاً التميمي على سؤاله عن الذاريات والمرسلات والنازعات وشبههن، وامر الناس بالتفقه في ذلك. وضربه مرة بعد مرة ونفاه إلى العراق وقيل إلى البصرة وكتب ان لا يجالسه أحد. قال المحدث: فلو جاءنا ونحن مئة لتفرقنا عنه. ثم حلف صبيغ لأبي موسى بالايمان المغلظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئاً. فكتب إلى عمر فعفا عنه[2].

وأبو محجن الثقفي من الشعراء المخضرمين كان من المعاقرين للخمر، عاقبه عليها عمر بن الخطاب مراراً فلم ينته فنفاه إلى جزيرة وفي الطريق هرب من الحرسي والتحق بسعد ابن أبي وقاص وهو يقاتل العجم يوم القادسية، وبلغ عمر خبره، فكتب إلى سعد بحبسه فحبسه. سأل أبو محجن امرأة سعد ان تعطيه فرس سعد، وتحل قيده، ليقاتل المشركين، وعاهدها لئن سلم يعود إلى سجنه، فقبلت، فقاتل فأبلى بلاء حسناً إلى الليل، ثم عاد إلى حبسه. فعلم به سعد وأخبر عمر بقصته فعفا عنه. وممّا قاله وهو في الحبس وكان يسمع بأخبار القتال:

كفى حَزَناً أنْ تَرْدِيَ الخيلُ بالقَنَا وأُتــرَكَ مَـشْـدوداً عـلـيَّ وثـاقِـيَـا

إذا قُمْتُ عَنَّانِي الحديدُ وغُلِّقَتْ مصاريعُ من دوني تُصِمُّ المُنَادِيَا

. . .

ولـلـهِ عـهـدٌ لا أَخِيسُ بعهدِهِ لَئِنْ فُرِجَتْ ألاّ أزورَ الحَوَانِيَا

والحطيئة (جرول بن أوس) من فحول الشعراء، كان ذا شر وسفه. قال

(1) محمد عجاج الخطيب ـ **السنة قبل التدوين** ص 106 ـ كتاب **المجروحين** ص 34 والحاشية ص 35.

(2) ابن طلاع، **أقضية الرسول**، ص 97 ـ القرطبي ـ **أقضية الرسول** ص 5.

قصيدة هجا فيها (الزبرقان)، فاستعدى عليه عمر بن الخطاب، فحبسه عمر. وقيل أمر به عمر، فجعل في نقير في بئر ثم ألقي عليه شيء. والنقير هو ما نقر من حجر أو خشب ونحوهما. فقال الحطيئة:

مـاذا تـقـولُ لأفـراخٍ بِـذِي مَـرَخٍ زُغْبِ الْحَوَاصِلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ
أَلْقَيْتَ كاسِبَهُم في قعرِ مُظْلِمَةٍ فـاغـفـرْ عـلـيكَ سلامُ اللهِ يـا عـمـرُ

قيل إن عمراً أتى به من السجن وعفا عنه على أن لا يعود إلى الهجاء ثانية[1].

وتذكر المصادر أن الخليفة عمر بن الخطاب ابتاع من صفوان بن أمية داراً بمكة بأربعة آلاف درهم وجعلها سجناً يحبس فيها. ولهذا تنازع العلماء، هل يتخذ الامام حبساً. على قولين:

1 ـ فمن قال: لا يتخذ حبساً، احتج بأنه لم يكن لرسول الله ﷺ ولا لخليفته أبي بكر من بعده حبس ولكن يعوقه بمكان من الأمكنة أو يقيم عليه حافظاً وهو الذي يسمى الترسيم، أو يأمر غريمه بملازمته.

2 ـ ومن قال: له أن يتخذ حبساً، احتج بفعل عمر بن الخطاب (شراؤه دار صفوان ابن أمية وجعلها سجناً)[2].

يتبين مما تقدم أن سجن «المغيرة بن شعبة» كان عبارة عن قطعة أرض في العراء مصونة بحاجز من القصب مما سهل على «معن» الهرب منه.

أما سجن «سعد بن أبي وقاص» فكان في حصن وكان «أبو محجن» مقيداً فيه يتعذر عليه التنقل بسهولة لثقل السلاسل والاغلال التي كان يحملها.

ومن قصة «صبيع التميمي» نستنتج أنه كان هناك سجن في المدينة، وسجن الحطيئة بئر، والملاحظة التي تسترعي الانتباه، شراء دار «صفوان بن

---

(1) الأصفهاني ـ **الأغاني** ـ 2/ 186 ـ **مختارات ابن الشجري** ـ القسم الثالث ص 8.
أبو العباس أحمد القلقشندي ـ **نهاية الارب في معرفة أنساب العرب** ـ تحقيق ابراهيم الابياري ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ الطبعة الثانية 1980 ـ 3/ 298.

(2) تقي الدين المقريزي ـ **الخطط المقريزية** 2/ 187.

أمية» لتكون سجناً، مما يدل على تطور في عملية السجون، إذ لم يعد السجن من القصب، وألغيت عملية التعويق في المسجد، وربط المذنب في إحدى سواريه، وألغيت البئر، وأضحى السجن مؤسسة رسمية، بناء خاصاً ملكاً للدولة، دفع ثمنه من الأموال العامة ولمصلحة الأمة.

ج ـ السجن في عهد عثمان بن عفان

عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية «أموي قرشي ولّي الخلافة سنة 23 هـ / 644 م بعد دفن «عمر بن الخطاب» بثلاثة أيام. أتهم بمحاباته أقرباءه بتعيينهم في مختلف الوظائف، واتهم بمخالفته الدين باحراقه المصاحف كلها ما عدا المصحف الذي عممه على الأمصار، فقامت عليه معارضة قوية انتهت بالثورة به وقتله وذلك سنة 35 هـ / 655 م وقامت بسبب قتله أعظم فتنة في الاسلام، تلتها حروب ونزاعات لا يزال يتطاير شررها حتى الآن[1].

كان «عثمان» يقضي بين الناس، وكان يشاور في القضاء، فقد ذكر «الحسن بن محمد الزعفراني» بالرواية، قال: «رأيت عثمان بن عفان في المسجد، إذا جاءه الخصمان، قال لهذا: اذهب فادع علياً (بن أبي طالب)، وللآخر: فادع طلحة (بن عبد الله)، والزبير، وعبد الرحمن. فجاؤوا، فجلسوا، فقال لهما: تكلما، ثم يقبل عليهم فيقول: أشيروا عليّ... ولا يعلم أن عثمان استعمل قاضياً بالمدينة طيلة مدة خلافته»[2].

ذكر ان «ضابىء بن الحارث البرجمي» كان رجلاً بذياً كثير الشر، وكان بالمدينة يركب فرساً يقال له «قيّار» وكان ضعيف البصر، فوطئ الفرس صبياً فقتله، فرفع إلى «عثمان بن عفان» فاعتذر بضعف بصره، وقال: لم أره ولم أعمده، فحبسه عثمان ما حبسه، ثم أطلقه[3].

---

(1) بطرس البستاني ـ دائرة المعارف ـ دار المعرفة ـ بيروت 11/ 705، الموسوعة العربية الميسرة ـ دار الشعب ـ مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر 1965 ـ ص 1187.

(2) محمد بن خلف بن حيان ـ أخبار القضاة لوكيع ـ عالم الكتب ـ بيروت ص 1/ 110.

(3) محمد بن سلام الجمحي ـ طبقات فحول الشعراء ـ قرأه محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدني ـ القاهرة 1/ 172 ـ الأصمعيات ـ تحقيق شاكر وهارون ـ الطبعة الخامسة ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ص 184.

وكان ضابئ هذا في شبابه يقتنص الوحش، استعار من بني «نهشل» كلباً يقال له «قرحان»، فكان يصيد به الظّباء والبقر والضباع، فلما بلغهم ذلك حسدوه فطلبوا الكلب، فأعطاهم إياه مكرهاً. فقال ضابئ في ذلك شعراً، وعرّض بأمهم، منه:

فَـأُمُّـكُـم لا تَـتْـرُكُـوهـا وكـلـبَـكـم فـان عـقـوقَ الأمّـهـاتِ كـبـيـرُ
إذَا عَـثَّـنَـتْ مـن آخـرِ الـلـيـلِ دُخْـنَـةً يـظـلُّ لـهـا فـوقَ الـفـراشِ هَـريـرُ

فاستعدوا عليه عند «عثمان» فقال: ويلك، ما سمعت أحداً رمى امرأة من المسلمين بكلب غيرك. فحبسه في السجن[1].

وقيل قضى عثمان لبني نهشل على ضابئ بجز شعره وخمس أبله وانحدروا به من المدينة إلى مساكنهم فحبسوه عند أمّهم فقال ضابئ:

مـن مُـبْـلـغُ الـفـتـيـانِ عـنّـي رسـالـةً بـأنّـي أسـيـرٌ فـي يَـدَيْ أمّ غـالـبِ[2]

فأقسمت أمهم ليطلقْن فأطلق، لأن في شعره إيحاء بالتعريض لها.

ثم ان ضابئاً هذا ضرب «تمامة بن عبد الله» وشجه، فاستعدى عليه «عثمان» فحبسه عثمان في السجن، وعرض ذات يوم أهل السجن، فخرج ضابئ وقد شد سكيناً على ساقه يريد أن يفتك بعثمان، ففطن له، فضرب بالسياط وأعيد إلى الحبس، فقال ضابئ في حبسه قصيدة منها:

هَمَمْتُ ولـم أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي تـركـتُ عـلـى عـثـمـانَ تـبـكـي حَـلائِـلُـهْ

فلم يزل ضابئ محبوساً حتى مات في سجن عثمان[3].

نستنتج مما تقدم أن عثمان أمر بحبس ضابئ لأن فرسه قتلت ولداً، أي أن هناك مكاناً لحبس المذنبين، ثم ان عثمان كان يحبس على الهجاء لأنه أمر

---

(1) أبو عبيدة البصري، **كتاب النقائض** ـ مكتبة المثنى ـ بغداد ـ مطبعة بريل ـ ليدن 1905 ـ 1/ 219 وقارن مع **الشعر والشعراء** 1/ 267 **ورغبة الآمل من كتاب الكامل** 3/ 201.

(2) **النقائض** 1/ 220.

(3) عون الشريف قاسم ـ **شعر البصرة في العصر الاموي** ـ جامعة الخرطوم ـ دار الثقافة بيروت 1973 ص 170 ـ كتاب النقائض 1/ 221 ـ **طبقات فحول الشعراء 1/ 174**.

بحبس ضابئ لتعرضه لامرأة من بني نهشل، وقضى بحبسه أيضاً لاعتدائه على ثمامة، وفي كل هذه الحالات لم تحدد مدّة العقوبة، ولم يشر إلى موضع السجن ولا إلى اسمه. والملاحظة الجديرة بالاهتمام، زيارة الخليفة «عثمان» للسجن، وعرضه للمساجين، فهل كان ذلك لتفقد أحوالهم المعيشية والاجتماعية، أو لاطلاق سراح بعضهم ممن أصبحت عقوبته كافية، وهل كان هذا العرض يحصل بانتظام وفي أوقات معينة (مرة في الشهر مثلاً)؟

وعمال الخليفة «عثمان» في الامصار كانوا يحبسون أيضاً، فقد ورد ان «جندب بن كعب» قتل رجلاً ساحراً، فحبسه الوليد بن عقبة في سجن خارج الكوفة، وعلى السجن رجل نصراني، كان يفتح له الباب بالليل فيذهب إلى أهله، فإذا أصبح دخل السجن، لأنه وجده متعبداً يصوم النهار ويقوم الليل[1].

هنا تبدو لنا صورة السجن بشكل أوضح، فهو في خارج الكوفة، ربما كان اختيار هذا الموضع عن قصد، ليكون بعيداً عن الناس، وهكذا يكون أكثر وحشة، ويكون الهرب منه أعسر، فهو بناء له أبواب تقفل وتفتح بوساطة السجان.

وفي مصر، ثار «محمد بن أبي حذيفة»، ضد أمير المؤمنين «عثمان»، وسجن رجالاً من أهل مصر في دورهم منهم بشر بن أرطأة وغيره[2].

يبدو أن عملية السجن هذه، شبيهة بما نسميه اليوم بالاقامة الجبرية.

وهجا الشاعر «عبد الرحمن بن حنبل» الخليفة «عثمان» لأنه أعطى «مروان بن الحكم» أكثر مما يستحق من فيء «افريقية». فأمر «عثمان» بحبسه، فحبس في حصن «القموص» ـ جبل بخيبر ـ فقال يناشد علياً، ويصف له حاله في السجن:

إلى الله أشكو، لا إلى الناس ما عدا   أبا حسن غلاً شديداً أُكابدُه
بخيبر في قعر القموص كأنها   جوانب قبر أعمق اللّحد لا حدُه
أان قلتُ حقاً أو نشدْتُ أمَانَةً   قتلتُ، فمن للحقّ إن مات ناشدُه

(1) أبو الفرج الأصبهاني ـ **الأغاني** ـ بيروت 5/ 143.

(2) تقي الدين المقريزي ـ **المواعظ والاعتبار المعروف بالخطط المقريزية** ـ 2/ 335.

فكلم فيه «علي» عليه السلا، «عثمان» فأطلقه من السجن[1].

من شعر «عبد الرحمن بن حنبل» يتبين لنا، أنه كان موثقاً بالاغلال داخل السجن، وتلك الأغلال كانت ثقيلة وشديدة، بالاضافة إلى الوحشة في قعر «القموص» وكأنها إشارة إلى وجود أقبية أو سراديب تحت الأرض في داخل ذلك الحصن.

د ـ السجن في عهد علي بن أبي طالب

بويع «علي» بالخلافة بالمدينة بعد مقتل «عثمان» سنة 35 هـ / 655 م في جو مكفهر إذ اعتبر قسم من المسلمين أن علياً متواطئ مع القتلة، لذلك رفض قسم من العمال في الامصار الانصياع لأوامره وعلى رأسهم «معاوية بن أبي سفيان» والي الشام. وبدلاً من أن يعد «علي» العدة للسير إلى معاوية، وجد نفسه مرغماً لدخول حرب مع الثائرين في البصرة، ولم ينجح الوسطاء في منعها، فوقعت معركة «الجمل» وانتصر «علي» واتخذ الكوفة عاصمة له[2].

على أثر معركة «صفين» سنة 37 هـ وقبول التحكيم، خرج قسم من جيش «علي» رافضاً التحكيم، ومعلناً الحرب على «علي» و«معاوية» معاً. وهؤلاء هم الخوارج الذين مثلوا دوراً مهماً فيما بعد بالتاريخ الاسلامي، وقد تمكن أحدهم «عبد الرحمن بن ملجم» من قتل الخليفة «علي» سنة 40 هـ / 661 م وإليه ينتسب الشيعة «العلويون»[3].

وتقول المصادر أن علياً بن أبي طالب تولى أعمال القضاء أيام الرسول، فقد ورد عن علي أنه قال: «لما بعثني رسول الله ﷺ، إلى اليمن قاضياً وأنا حديث السن، فقلت: يا رسول الله، تبعثني إلى قوم يكون بينهم احداث (أي

---

(1) خير الدين الزركلي ـ **الأعلام** ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة الخامسة / 1980 / 3/ 305 ـ **الإصابة في تمييز الصحابة** 2/ 395.

(2) ابن سعد ـ **الطبقات الكبرى** ـ دار صادر ـ بيروت 1968 ـ 3/ 19 وما بعدها. **الموسوعة العربية الميسرة** ص 1230.

(3) الموسوعة العربية الميسرة ص 1230 ـ الطبقات الكبرى 3/ 19 وما بعدها. وقارن مع:
Jawad Boulos, Les peuples et les civilisations du proche Orient Tome 4- Dar Aoub 1983 - Page 208.

أمور حادثة) ولا علم لي بالقضاء». ووجهه الرسول بقوله: إذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقض بينهم حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول. قال فما زلت قاضياً، وما شككت في قضاء بعد[1].

وذكر عبد الله بن سلمة قال: كان علي يقول في السارق: تقطع يده، فإن عاد قطعت رجله، فإن عاد استودع السجن[2].

وورد أنه كان للخليفة علي بن أبي طالب سجن بالكوفة من القصب فسماه نافعاً ففتقه اللصوص وقيل كان المحبوسون يهربون منه ثم بنى سجناً من مدر وسماه مخيساً والمخيس لغة المذلل، ثم قال:

ألا تـرانـي كـيِّـسـاً مُـكَـيِّـسـاً   بـنـيـتُ بـعـد نـافـعٍ مـخـيِّـسـا
حـصـنـاً حـصـيـنـاً وأمـيـراً كـيِّـسـا[3]

وقيل: جيء برجل إلى أمير المؤمنين علي قد كفّل بنفس رجل فحبسه، وقال له: اطلب صاحبك. أي تكفّل شخص باحضار آخر، ولم يحضره في الوقت المعين فحبس الكفيل حتى يحضر المكفول[4].

وورد أن مالكاً الاشتر قبض على الأصبغ بن ضرار الازدي وهو من شعراء أهل الشام، فأخذه أسيراً وشد وثاقه، وألقاه عند أصحابه ينتظر به الصباح ليقتله، فأيقن الاصبغ بالقتل فأخذ ينشد:

ألا ليتَ هذا الليلَ أصبحَ سَرْمَداً   علـى النـاسِ لا يـأتـيـهـمُ بِنَـهَـارِ
يـكـونُ كـذا حـتـى الـقـيـامـة إنَّـنِـي   أحـاذرُ فـي الإصـبـاحِ يـومَ بَـوارِي
فيا ليلُ أطْبِقْ إنَّ في الليلِ راحةً   وفي الصُّبْحِ قتلي أوْ فَكَاكُ أسَارِي
ولو كنتُ تحتَ الأرضِ ستينَ وَادِياً   لـمـا رَدَّ عَـنِّـي مـا أخـافُ حـذاري

. . .

أأَخْشَى ولي في القومِ رحمُ قريبةٍ؟   أبـى الله أنْ أخـشـى ومـالـكُ جـارِي

(1) عبد الحي الكتاني ـ التراتيب الادارية 1/ 257.

(2) أبو يوسف الخراج ص 174.

(3) ابن سيدة المخصص ـ المجلد الثالث ـ السفر 12 ص 93 ـ أقضية الرسول ـ القرطبي ص 5.

(4) فقه الامام جعفر الصادق 6/ 348.

فسمعه الأشتر، وأخذه إلى علي بن أبي طالب الذي عفا عنه وأطلق سراحه[1].

يبدو أن كثرة مشاغل الامام علي بن أبي طالب منعته من الاستمرار في أعمال القضاء، لذلك كلّف «شريحاً القاضي» بتلك المهام. وشريح هذا أدان رجلاً تربطه به صلة القربى، بسبب دين عليه، فحبسه. ومرّ به شريح فقال: أتحبسني؟ قال: أنا لم أحبسك، ولكن الحق حبسك[2].

وحكم شريح على ابنه بالحبس لأنه كفل رجلاً ولم يدفع عنه، ولما قام من مجلس القضاء قال: يا غلام اذهب إلى عبد الله (ابنه) بقطيفة ومرفقة وفراش[3].

وهذا يدل على أنه كان يسمح للمسجونين بالحصول على ما يتدثرون به وما ينامون عليه ووسادة. ولا يعقل أن تكون تلك امتيازات لابن القاضي، وهو لم يميزه بالحكم والسجن.

وقد ورد أن أمير المؤمنين علياً بن أبي طالب، هو أول من أجرى على أهل السجون ما يقوتهم في طعامهم وادمهم وكسوتهم في الشتاء والصيف وذلك بالعراق. ثم فعله معاوية بالشام والخلفاء من بعده[4].

وهكذا نرى أن أوضاع السجون تطورت تدريجياً، فبينما كانت عملية السجن تتم في المسجد على أيام الرسول، تطورت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب إلى شراء دار لتكون سجناً، وفي أيام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أقام سجناً من القصب، ثم هدمه وأقام آخر من المدر.

كما أن الخدمات اللازمة كانت مؤمنة للمساجين، فإن كان للمسجون مال أنفق عليه من ماله، وإن لم يكن له مال أنفق عليه من بيت مال المسلمين

---

(1) ابن أبي حديد، **شرح نهج البلاغة** - تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم - دار إحياء التراث العربي - بيروت - 8/ 101.

(2) وكيع، **أخبار القضاة** 2/ 296.

(3) وكيع، **أخبار القضاة** 2/ 308.

(4) أبو يوسف، **الخراج** - ص 149 وما بعدها.

وقال عليّ: يحبس عنهم شره وينفق عليه من بيت مالهم[1].

القسم الثالث: السجون في عصر بني أمية

تمهيد

بموت أمير المؤمنين «علي بن أبي طالب» انتهى عهد الخلفاء الراشدين، وابتدأ عهد الأمويين، وانتقلت عاصمة الخلافة إلى دمشق، وانقسم المسلمون إلى فرق، وبويع معاوية بالخلافة.

لقد سنّ معاوية شريعة ولاية العهد، وأصبحت الخلافة وراثية من أموي إلى أموي آخر، وكل خليفة منهم ينكل بالعلويين، الهاشميين بخاصة، وأتباعهم بعامة، ولم يقتصر التنكيل على هؤلاء، بل وصل إلى كل معارض لحكم بني أمية، وبين الأمويين أنفسهم وذلك من أجل الخلافة.

كانت الخصومة السياسية تزداد عنفاً بمرور الأيام، حتى أصبح القتل والسجن والعذاب أمراً مألوفاً، تمارسه الفئة الحاكمة على خصومها السياسيين، وعلى أمراء ووزراء وعمال مصروفين، وقد ابتلى الناس بأمراء قساة كانوا يتلذذون بتعذيب الأسرى والمعتقلين، وهذا ما سنحاول توضيحه باختيار نماذج معينة من أولئك الخلفاء والأمراء والولاة[2].

1 ـ السجون عند السفيانيين

أ ـ عند معاوية بن أبي سفيان

معاوية بن أبي سفيان، مؤسس الدولة الأموية، عيّن والياً على سورية سنة 15 هـ / 637 م، ثم نادى بنفسه خليفة في الشام وبالتالي على العالم الاسلامي سنة 41 هـ / 661 م، توفي سنة 60 هـ / 680م.

وحين استقر الأمر لمعاوية في الشام، سار إلى مصر، وهناك قبض على

---

(1) أبو يوسف ـ كتاب الخراج ص 150.

(2) Collection Marabout Université - L'Islam, origine et essor du monde arabe- Belgique 1980 - Page 132.

ابن أبي حذيفة وابن عيسى، وكنانة بن بشر، وأبي شمر وغيرهم من قتلة الخليفة عثمان بن عفان، وحينما بلغوا اللد سجنهم بها معاوية، وسار إلى دمشق، فهربوا من السجن، غير أبي شمر، وتبعهم صاحب فلسطين فقتلهم[1].

وان استقرار الوضع الذي أشرنا إليه، في الشام، ليس معناه أن معاوية أصبح مرتاحاً من الخصومات السياسية، بل ظل هناك خصوم أقوياء، ما ان يتمكن من القضاء على مجموعة منهم حتى تظهر مجموعة أخرى، وأهم تلك المجموعات: الهاشميون وأتباعهم العلويون، والخوارج والزبيريون، والجماعات التي تعبث في الأمن من لصوص وقتلة وغيرهم، ومن تلك المجموعات من كان يقتل في المعارك، ومنهم من يقبض عليه ويودع السجن حيث يلقى أنواعاً من العذاب.

ولدى التنقيب في المراجع والمصادر تبين أن قسماً من أولئك المساجين سجن بأمر من الخليفة معاوية بالذات، وقسماً آخر سجن بوساطة عماله في الأقطار المتباعدة. ومن ذلك الحوادث التالية:

دسّ ابن اثال شربة مسمومة إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فمات، فجاء ابنه خالد وضرب ابن اثال بالسيف فقتله، فأخذه معاوية فحبسه سنة ثم خلاّه[2].

وقيل: إن أعرابياً من بني عذرة، دخل على معاوية، فقال له: تزوجت ابنة عم لي، وكانت لي صرمة[3] من ابل وشويهات، فأنفقت ذلك عليها، فلما أصابتني نائبة الزمان، رغب عني أبوها، فأتيت عاملك ابن ام الحكم، وبلغه

---

(1) Emile Dermenghem - Mahomet - Maîtres spirituels- Bourges 1982 pp. 66- 69.

تقي الدين المقريزي ـ الخطط المقريزية 2/ 336 وقارن مع:

L'Islam-origine et essor du monde arabe - René Kalisky - Collection Marabout Université page 106- 1980 Belgique.

(2) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص 27 ـ الطبري 5/ 227.

(3) الصرمة: القطعة من الابل. قيل ما بين العشرين إلى الثلاثين و.. قيل ما بين العشرة إلى الاربعين ـ لسان العرب 12/ 337.

جمالها، فأعطى أباها عشرة آلاف درهم وتزوجها، وأخذني فحبسني وضيّق عليّ، فلما أصابني مسّ الحديد وألم العذاب طلقتها. فأمر معاوية ابن ام الحكم فطلقها وأعادها إلى الاعرابي[1].

وذكر ان هدبة بن خشرم، قتل رجلاً، فأمر معاوية بحبسه حتى أصبح ابن المقتول راشداً، ولما أخذ من السجن للقتل، التفت فرأى امرأته، فقال شعراً منه:

أَقِلِّي عليَّ اللومَ يا أمَّ بَوْزَعَا   ولا تَجْزَعِي مِمَّا أصابَ فَأَوْجعا

وخرج يرسف في قيوده، فمر بأبويه، فقال:

لا أُرانِي اليومَ إلا مَيِّتاً   إنَّ بعدَ المَوْتِ دارَ المستَقَرْ

وقيل ان هدبة أول من أقيد منه في الاسلام[2].

وفي خلافة معاوية، كان المغيرة بن شعبة، والياً على الكوفة، وذلك سنة 42 هـ / 662 م، حينها اجتمع الخوارج وبايعوا أحدهم بالامارة ويدعى «المستورد التيمي» وفي السنة التالية، ازداد عددهم، فاجتمع قادتهم يخططون لاعلان الثورة على الوالي والخليفة، وإذ بالشرطة تحيط بهم وتقودهم إلى السجن، فلم يزالوا فيه نحواً من سنة، أي حتى موت المغيرة[3].

ومما ورد عن التنكيل بالعلويين، ما ذكر عن عبد الله بن هاشم بن عتبة، الذي قبض عليه زياد في العراق، بأمر من معاوية، وشد يده إلى عنقه، وبعث به مقيداً مغلولاً إلى الخليفة في دمشق، وبعد حوار بينه وبين معاوية وعمرو بن العاص، قال عبد الله قصيدة منها:

فان تعْفُ عنّي تَعْفُ عن ذِي قرابَةٍ   وإنْ تَرَ قَتْلِي تَسْتَحِلَّ مَحَارِمِي

فعفا عنه معاوية وأطلق سراحه[4].

---

(1) جعفر القارئ ـ مصارع العشاق 2/ 15.

(2) الاصبهاني ـ الأغاني 21/ 262 وما بعدها ـ ديوان الحماسة 2/ 16 ـ ابن قتيبة الشعر والشعراء 2/ 581.

(3) تاريخ الطبري 5/ 182 وما بعدها ـ ابن الأثير الكامل في التاريخ 3/ 426 وما بعدها.

(4) المسعودي ـ مروج الذهب 3/ 8 وما بعدها.

وكان «حجر بن عدي» من العلويين، وكان «المغيرة بن شعبة» عاملاً لمعاوية على الكوفة مدة سبع سنين واشهر، وكان دائماً يذم علياً بن أبي طالب ويترحم على عثمان ابن عفان، فكان «حجر» يعترض «المغيرة» الذي كان ينصحه باتقاء غضب السلطان. وبعد موت المغيرة، تسلم الامارة زياد بن أبي سفيان فبلغه أن شيعة «علي» تجتمع برئاسة «حجر» فكتب إلى معاوية في أمره. فكتب اليه معاوية ان شدّه في الحديد، ثم أحمله إليّ. وبعد محاولات كثيرة لا تخلو من العنف قبض زياد على حجر وكان عليه برنس في غداة باردة فحبس عشر ليال، ثم حمل إلى معاوية الذي أمر فضرب عنقه[1].

ويفهم مما ذكره صاحب الأغاني أن «حجراً» هذا لم يرسل وحده إلى معاوية بل كان معه ثلاثة عشر رجلاً آخرون، من رفاقه، ولم يقتله فوراً، بل ظل محبوساً ورفاقه مدة من الزمن، وكان ذلك في مرج عذراء، بغوطة دمشق، ثم أخلي سبيل ستة منهم شفع لهم، وقتل ستة من الباقين ومنهم حجر[2]. وحبس معاوية أحد الباقين شهراً ثم أطلقه على ألا يدخل الكوفة ما دام معاوية خليفة. أما الآخر، وهو عبد الرحمن بن حسان، فقد أعاده معاوية إلى زياد في الكوفة، وكتب اليه: ان هذا شر من بعثت به، فعاقبه بالعقوبة التي هو أهلها واقتله شر قتلة. فبعثه زياد إلى موضع قرب الكوفة حيث دفن حياً[3].

وظل زياد يفتش عن أصحاب حجر، وهم العلويون، فأخذوا يهربون منه، فقبض صاحب شرطته، على «قبيصة العبسي» فأودعه السجن. ثم قبض على «صيفي من بني همام» من رؤوس أصحاب حجر، فقال له زياد: لتلعنن علياً بن أبي طالب أو لاضربن عنقك. فقال إذاً اضرب عنقي. فأمر به فضرب بالعصا حتى لصق بالأرض، ثم أوقروه حديداً والقوه في السجن[4].

---

(1) تاريخ الطبري 5/ 256 وما بعدها ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ 3/ 477 وما بعدها.

(2) الأصبهاني ـ الأغاني ـ 17/ 147 وما بعدها.

(3) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ 3/ 486 ـ الاصبهاني ـ الأغاني 17/ 153.

(4) تاريخ الطبري 5/ 266 وما بعدها. ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ 3/ 477.

وقبضت شرطة زياد على «عبد الله بن خليفة الطائي» فثار أهله وخلصوه من رجال الشرطة. فرجعوا إلى زياد فأخبروه، فأخذ «عدياً بن حاتم» وهو أحد أقرباء عبد الله ومن زعماء قبيلته، وكان في المسجد، وطلب منه أن يأتيه بعبد الله، فرفض، قائلاً له: لا آتيك به أبداً، آتيك بابن عمي تقتله. فأمر به إلى السجن. فغضب أهل الكوفة وقالوا لزياد: تفعل هذا بعديّ بن حاتم صاحب رسول الله.

فقال زياد: فاني أخرجه على شرط أن يخرج ابن عمه عني، فلا يدخل الكوفة ما دام لي سلطان، فوافقوه على ذلك، والتحق عبد الله بـ «جبلي طيء» حيث مات هناك[1].

على الرغم من أن معاوية كان واحداً من دهاة العرب وممن اشتهر بحلمه، فقد غلبت الشدة على علاقته بالخوارج والعلويين، وكان نصيب معظم الخوارج القتل، والقليل منهم كان نصيبه السجن.

أما نصيب العلويين في سجون معاوية فقد كان أكبر، وكثيراً ما كانت تنتهي عقوبة السجن بالقتل. أضف إلى ذلك ما كان يتعرض له السجين من ضرب، وتعذيب بالحديد والاغلال، وربما تعرض أحدهم لابشع أنواع العذاب منها دفنه وهو حي.

ب ـ السجون عند يزيد بن معاوية

تولى يزيد الخلافة بعد موت أبيه سنة 60 هـ / 680 م وبقي فيها حتى سنة 64 هـ/ 683 م.

لم يستطع معاوية القضاء على خصومه، لذلك وجد «يزيد» نفسه بين أخصام أشداء كان يعالجهم تارة بالسيف وطوراً بالسجن، اما بنفسه واما بوساطة عماله على الأقاليم، ومن حوادث السجن نذكر ما يلي:

على أثر مقتل الحسين بن علي، (ابن بنت الرسول) أرسل «عبيد الله بن زياد» رأسه وأولاده إلى الخليفة «يزيد» قال أحد أولئك الأولاد ويدعى «محمد»: «أتي بنا يزيد ونحن اثنا عشر غلاماً. وكان كل واحد منا مغلولة يده

(1) ابن الأثير ـ **الكامل في التاريخ** 3/ 477 وما بعدها. **تاريخ الطبري** 5/ 267 وما بعدها.

إلى عنقه»[1].

ربما كان ذلك الرباط من الحديد أو الجلد أو القنب. وقد عفا «يزيد» عنهم وأعادهم إلى المدينة.

أمر «مسلم بن عقبة» قائد جيوش «يزيد» إلى «المدينة» و«مكة» بقتل «معقل بن سنان الاشجعي» صبراً، و«محمد بن حذيفة» صبراً[2]. أي أنه حبسهما وعذبهما حتى الموت.

وقبض «عبيد الله بن زياد» على «المختار الثقفي» وضربه وشتر عينه واودعه السجن ولم يزل في السجن حتى أمر «يزيد» (الخليفة) بالافراج عنه وأمهل ثلاثة أيام لمغادرة الكوفة[3].

وقبض «عبيد الله بن زياد» على «هانئ بن عروة» وأمر به فحبس في جانب القصر وذلك لكتمه المعلومات عن مكان وجود «مسلم بن عقيل» ثم قبض على «مسلم» فأصعد إلى أعلى القصر فضربت عنقه وألقيت جثته إلى الناس، وأمر بـ «هانئ» فصلب في إحدى ساحات الكوفة. وحبس «اسماء بن خارجة» لأنه اعترض على حبس «هانئ» قبل قتله[4].

وقيل: ثم ان «عبيد الله بن زياد» لما قتل «مسلماً وهانئاً» بعث برأسيهما إلى الخليفة «يزيد» فكتب اليه يزيد: «أما بعد... عملت عمل الحازم... وصدّقت ظني بك... احترس على الظن، وخذ على التهمة، غير ألاّ تقتل إلا من قاتلك... الخ[5].

إن هذه التعليمات من الخليفة، تدل على أن السجن، كان لتدعيم سلطة السلطان، فهو يطلب من عامله أن يحبس كل من يظن انه من الخصوم، وكل من توجه إليه التهمة.

(1) ابن عبد ربه الاندلسي - العقد الفريد 4/ 382.
(2) ابن عبد ربه الاندلسي - العقد الفريد 4/ 390.
(3) تاريخ الطبري 5/ 570.
(4) تاريخ الطبري 5/ 349.
(5) تاريخ الطبري 5/ 380.

في نهاية سنة / 61/ هجرية أمر «يزيد» بعزل «عمرو بن سعيد بن العاص» الاموي، وألقي القبض على غلمانه ومواليه وأودعوا السجن، فتمرد «عمرو» وأخرج جماعته من السجن[1].

وهكذا تبين لنا أن السجن، في عهد الخليفة «يزيد» بدا كأنه وقف على المعارضين السياسيين، والمناوئين للسلطة، ولو كان هؤلاء من الأمويين أنفسهم، هذه هي حال السجن عند الفرع السفياني (الاموي)، فكيف كانت حاله عند الفرع المرواني (الاموي)؟

2 ـ السجون عند المروانيين

أ ـ عند عبد الملك بن مروان

عبد الملك بن مروان بن الحكم خامس خلفاء بني أمية ولد سنة 26 هـ / 646 م وتوفي سنة 86 هـ / 705 م، استعمله معاوية على «المدينة» وهو ابن / 16/ سنة وانتقلت اليه الخلافة بموت أبيه سنة / 65/ هـ فضبط أمورها وظهر بمظهر القوة فكان جباراً على معانديه[2].

وكان عبد الملك من العلماء المنظورين والفقهاء المتفوقين ولكنه كان عاتياً سفاكاً جباراً، لا يخفر ذمة ولا يرعى عهداً. وانتقى عماله من ذوي الجور والعسف كالحجاج عامل العراق، والمهلب بن أبي صفرة عامل خراسان، وهشام بن اسماعيل عامل مصر، وموسى بن نصير عامل المغرب، ومحمد أخي الحجاج عامل اليمن، ومحمد بن مروان عامل الجزيرة[3].

في الوقت الذي كان فيه «عبد الملك» يسعى لتثبيت حكمه، انقلب عليه أحد أقربائه (عمرو بن سعيد بن العاص) طمعاً في الخلافة، فحصلت معارك بينهما انتهت بالصلح، ثم ان عبد الملك دعا «عمروا» إلى قصره وغدر به وذبحه وألقى برأسه إلى الناس، ثم قبض على مساعدي «عمرو» وجلّهم من بني أمية يريد قتلهم، فاستبدل القتل بالحبس نزولاً عند رغبة الوسطاء. ومن

(1) إبراهيم بيضون، الحجاز والدولة الاسلامية ص 259 ـ تاريخ الطبري 7/ 478.
(2) خير الدين الزركلي ـ الاعلام 4/ 165 ـ الموسوعة العربية الميسرة ص 1185.
(3) بطرس البستاني ـ دائرة المعارف 11/ 640.

الذين أمر الخليفة «عبد الملك» بحبسهم: يحيى بن سعيد، وعنبسة بن سعيد وهما شقيقا «عمرو» المذكور[1].

بايع «عمير بن الحباب السلمي» «مروان بن الحكم» (والد الخليفة عبد الملك) وفي نفسه ما فيها بسبب قتل جماعة من القيسيين بالمرج ثم انقلب عليه وحارب مع أعدائه. ثم أن «عميراً» استأمن إلى «عبد الملك» فآمنه، ثم غدر به، فحبسه عند مولاه «الريان»، فسقاه «عمير» ومن معه من الحرس خمراً حتى أسكرهم جميعاً، وتسلق في سلّم حبال وخرج من الحبس وعاد إلى الجزيرة[2].

وورد أنه رفع إلى «عبد الملك بن مروان» أعرابي يقال له «حمزة» سرق وقامت عليه البينة، فهم «عبد الملك» بقطع يده، فكتب اليه «حمزة» من السجن يقول:

يدى يا أمير المؤمنين أعيذها بعفوك أن تلقى مقاماً يشينها
فلا خير في الدنيا وكانت خبيثة إذا ما شمال فارقتها يمينها

فعفا عنه «عبد الملك»[3].

وذكر أن «سعيد بن المسيّب» وهو قرشي من بني مخزوم، جمع إلى شرف نسبه علم الحديث والفقه والعبادة والزهد. فلما أراد «عبد الملك بن مروان» أن يبايع لابنه «الوليد» خطب له بنت «سعيد» لما كان له من المنزلة بين الناس، فرفض «سعيد» تزويجها له، فحقد عليه «عبد الملك» أشد الحقد، ومضى فيما أراد من المبايعة، فبايع أهل «المدينة» كلهم، وأبى «سعيد» أن يبايع، فقبض عليه والي «المدينة» بأمر من «عبد الملك» وضربه ضرباً مبرحاً وأودع السجن، ثم أخرجوه بعد مدة ومنعوا الناس أن يجالسوه[4].

(1) **تاريخ الطبري** ـ 6/ 146ـ صلاح المنجد ـ **رسائل ونصوص** ص 9 ـ ابن الأثير ـ **الكامل في التاريخ** 4/ 301.

(2) ابن الأثير ـ **الكامل في التاريخ** 4/ 308.

(3) شهاب الدين الابشهي ـ **المستطرف في كل فن مستظرف** ـ دار إحياء التراث العربي ـ الطبعة الأخيرة 1/ 193.

(4) عبد المتعال الصعيدي ـ **القضايا الكبرى في الاسلام** ـ مكتبة الآداب ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ 1960 ـ ص 213.

نرى مما تقدم أن الصراع على الخلافة اشتد بين الأمويين أنفسهم، أو بالأحرى بين أفراد الفرع المرواني، فكان البقاء للأقوى وكان القتل والحبس للاضعف. وان أعمال الحبس في هذه الفترة أيضاً كانت من نصيب الخصوم السياسيين، وقلما نجد حادثة حبس لاسباب أخرى.

ب ـ عند هشام بن عبد الملك

تويع هشام بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد سنة 105 هـ / 723 م وتوفي سنة 125-هـ / 743 م، ومن كلامه: «ما بقي عليّ من لذات الدنيا إلا أخ أرفع مؤونة التحفظ بيني وبينه»[1].

يقول المسعودي: إن هشاماً كان خشناً فظاً غليظاً[2]. ويقول «فلهوزن» إن هشاماً فشل فشلاً كبيراً في كل شيء... ولم يكن من باب المصادفة أن الدعوة العباسية قويت واشتد أمرها في أيامه[3].

وفي أيام الخليفة «هشام» ألح الولاة والعمال في جباية الخراج، وأخذوا الجزية، ممن أسلم من الضعفاء، ومن يعترض أو يتأخر عن الدفع فإن نصيبه السجن، لذلك حبس «ثابت قطنة» ورفاقه، وبقي «ثابت» في الحبس حتى أصبح «نصر بن سيّار» والياً، فمدحه ثابت بقصيدة وهو محبوس، ومنها هذه الأبيات:

وما تَلَبَّسْتُ بالأمرِ الذي وَقَعُوا ... بهِ عليّ ولا دَنَّسْتُ أطْماري

ولا عَصَيْتُ إماماً كان طاعتُهُ ... حقّاً عليّ ولا قارفْتُ من عارِ[4]

وفي أثناء خلافة «هشام» تسلم «عاصم بن عبد الله» ولاية «خراسان» فحبس سلفه «عمارة بن حريم» وعماله معه وعذبهم، وقبض «الحارث بن سريج» على جماعة من أتباع «عاصم» وقيدهم وحبسهم ووكل بهم رجلاً

---

(1) محمد شفيق غربال ـ **الموسوعة العربية الميسرة** ص 1898 ـ ابن الأثير ـ **الكامل في التاريخ** 5/ 123 ـ خير الدين الزركلي ـ **الاعلام** 8/ 86.

(2) المسعودي ـ **مروج الذهب** 3/ 205.

(3) فلهوزن ـ **تاريخ الدولة العربية** ص 337.

(4) **تاريخ الطبري** 7/ 56.

يحفظهم، فتمكنوا منه وأوثقوه وخرجوا من السجن. وقبض «الحارث» أيضاً على «التجيبي» الذي كان عاملاً على «بلخ» وحوله إلى إحدى القلاع حيث سجنه فيها، ثم قتل على يدي رجل من بني حنيفة ادعى أن «التجيبي» كان قد قتل أخاه[1].

وهكذا يبدو لنا أنه في أثناء خلافة «هشام» كان للولاة صلاحيات واسعة، وإلى جانب تلك الصلاحيات محاذير كبيرة، فإن من صلاحيات الوالي الجديد، التصرف كيفما يشاء في منطقته ومنها القبض على الوالي السابق وإيداعه السجن.

ويبدو أن الغاية الرئيسية كانت عند هؤلاء الولاة، جمع الأموال، بأية وسيلة كانت، حتى أن الذين دخلوا الاسلام حديثاً ظلوا مرغمين على دفع الجزية، مع أن الجزية كانت تفرض على غير المسلمين وتسقط عنهم عند دخولهم في الاسلام، تلك الأموال، يحوّل قسم كبير منها إلى خزينة الدولة إرضاء للخليفة، لذلك كان هناك تسابق بين الولاة والأمراء في من يرسل المبلغ الأكبر خصوصاً إذا كانت المنطقة نفسها، والقسم الآخر من تلك الضرائب تكون من نصيب الأمير وعماله، وهذه الأموال ربما أصبحت وبالاً على صاحبها، يأخذها منه الوالي الجديد، بعد التنكيل والتعذيب والسجن. وهذا ما حصل مع «خالد القسري» الذي بقي في الامارة حوالي خمسة عشر عاماً، عزله الخليفة «هشام» فقبض عليه خلفه «يوسف بن عمر» وبقي «خالد» محبوساً ثمانية عشر شهراً مع أخيه وابنه وابن أخيه... وقيل انه حبس جميع موالي خالد، وام «جرير» بنت خالد والرائقة وجميع النساء والصبيان[2].

ومن حوادث السجن في عهد «هشام» حبس الشاعر «جعفر بن علبة الحارثي» لأنه شرب يوماً حتى سكر، ومما قاله في سجنه:

لَعَمْرُكَ ما بالسُّكْرِ عارٌ على الفتى ... ولكنَّ عاراً أن يقالَ لئيمُ[3]

وبالنسبة إلى العلويين فقد أخذوا قسطهم من العذاب والحبس في عهد

---

(1) تاريخ الطبري 7/ 93 وما بعدها.

(2) تاريخ الطبري 7/ 151 ـ 255.

(3) الاصبهاني ـ الأغاني 13/ 45.

«هشام» فقد ورد ان «زيداً بن علي» الهاشمي القرشي (79 ـ 122 هـ) وهو أحد الخطباء المشهورين أقام بالكوفة، وأشخص إلى الشام، فآذاه هشام وحبسه ثم تركه، فعاد إلى العراق حيث بايعه أربعون ألفاً، ودارت معركة انتهت بمقتله. . . وصلب «يوسف بن عمر» جثة زيد بالكوفة، طوال مدة حكم «هشام»، فلما ولّي «الوليد» أنزل، وإحرق[1].

والشاعر الفرزدق، حبسه «هشام» بين مكة والمدينة لأنه مدح «زين العابدين» في أثناء أداء فريضة الحج. ومنها قوله:

هذا ابنُ فاطمةٍ إنْ كنتَ جاهلَهُ ... بِجَدِّهِ أنبياءُ اللهِ قد خُتِمُوا[2]

سمع «هشام» مرة «غيلان الدمشقي» وصاحبه «صالح» ينتقدون آباءه وأجداده فلما تسلم الخلافة، استدعاهما وحبسهما مدة، ثم أخرجهما وقطع أيديهما وأرجلهما، فمات صالح، وأقبل الناس، فقال لهم «غيلان»: قاتلهم الله كم من حق أماتوه، وكم من باطل أحيوه، فأرسل اليه «هشام» من قطع لسانه فمات[3].

وكان للسجن نصيب، بصدد ولاية العهد، فقد ورد أنه قبل وفاة «يزيد بن عبد الملك» أوصى بالخلافة إلى أخيه «هشام» لأن ابنه «الوليد» كان صغير السن، واشترط على «هشام» أن يكون الوليد، ولي عهده. ولما كان هشام، يرغب في ولاية العهد لابنه، أخذ يضيق على «الوليد» وعلى أعوانه، فقبض على كاتبه «عياض» وضربه ضرباً مبرحاً، وألبسه المسوح، وقيده، وحبسه[4].

لم يتوقف «الخوارج» عن مناهضتهم للسلطة أيام الخليفة «هشام» وكان النزاع بينهم في الأغلب دموياً، والنصر إلى جانب السلطة، والقتل غالباً من نصيب الخوارج، لذلك، قلما نجد حادثة سجن للخوارج، لأنهم يقاتلون حتى الموت.

---

(1) التنوخي ـ **الفرج بعد الشدة** 2/ 336 ـ فلهوزن ص 326.

(2) نالينو، تاريخ الآداب العربية ـ ص 160 ـ ديوان الفرزدق 2/ 178.

(3) أحمد اليماني ـ المنية والأمل في شرح الملل والنحل ص 137.

(4) الاصبهاني ـ الأغاني 7/ 9 ـ فلهوزن ـ **تاريخ الدولة العربية** ـ ص 339.

خرج «وزير السختياني» على «خالد القسري» في نفر من الخوارج، فوجه اليه «خالد» قائداً من أصحابه وشرطاً من شرط الكوفة، فقاتل حتى قتل عامة أصحابه، وأتى بوزير، إلى خالد، فوعظه، وأعجب خالداً ما سمع منه، فأمسك عن قتله وحبسه عنده، فبلغ ذلك «هشاماً» الذي كتب إلى خالد في أمره، فقتله[1].

وفي أيام «هشام» نشطت دعوة جديدة، مناهضة للحكم الاموي، هي الدعوة لبني «العباس» فكيف كانت أوضاع أولئك الدعاة في ظل الأمويين؟

كان على «خراسان» أسد بن عبد الله، من قبل هشام، لما علم «أسد» بدعاة العباسيين قبض على من عرف منهم، فقتل بعضهم، ومثل ببعضهم، وحبس بعضهم[2].

اجتمع في الكوفة بعض دعاة العباسيين في دار، فغمز بهم (سعي بهم شراً) فأخذوا وحبسوا، ثم أخرجوا بعد مدة من السجن بعد أن نشروا دعوتهم داخل السجن بين المساجين ومنهم «أبو مسلم الخراساني»[3].

يبدو لنا مما تقدم، أن السجون كانت تغص بالنزلاء، في عهد «هشام» منهم بسبب الضرائب التي كانوا يعجزون عن أدائها. ومنهم من كان يؤدي ضريبة الامارة التي استغلها لاكتناز الاموال، فجاء من يضيّق عليه محاولاً وجاداً في انتزاعها منه.

وفريق آخر في غياهب السجون لخلاف أموي داخلي على ولاية العهد، وهناك المساجين السياسيون من علويين وخوارج ودعاة لبني العباس.

وبذلك نرى أن السجن تحول عن الغاية الاساسية التي وجد من أجلها، وهي ردع المعتدى واصلاح المجرم. فكيف كانت أحوال السجون في عهد الخليفة «الوليد بن يزيد»؟

---

(1) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري - تاريخ الرسل والملوك - دار المعارف بمصر الطبعة الثانية 1971 - 7/ 134.

(2) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري - تاريخ الرسل والملوك - 7/ 107 وما بعدها.

(3) المصدر نفسه 7/ 198 وقارن مع ابن الأثير - الكامل في التاريخ - دار صادر - بيروت 5/ 255 - 1979.

ج ـ عند الوليد بن يزيد بن عبد الملك

تسلّم «الوليد» الخلافة على أثر وفاة عمه «هشام» سنة 125 هـ / 742 م وبقي في الخلافة حوالي سنة وثلاثة أشهر إلى أن قتل[1].

لمّا سمع بنبأ وفاة عمه، سرّه النبأ أيما سرور، وقبض على ابن «هشام» نفسه، وصادر أموال أهل الخليفة المتوفي[2]. ثم أخذ بثأره من أعدائه الذين كانوا يساندون «هشاماً» ويحثونه على خلعه من ولاية العهد، وفتك بهم فتكاً ذريعاً، فأعدم بعضهم، وحبس بعضهم، وعزل عمال هشام وموظفيه، إلا «يوسف بن عمر الثقفي» فإنه أبقاه والياً على «العراق» لأنه عارض «هشاماً» في إقصاء «الوليد» عن ولاية العهد.

وقد اشتد «الوليد» على أبناء عمه «هشام» إذ ضرب «سليمان بن هشام» مئة سوط وحلق رأسه ولحيته، وغرّبه إلى «عمان» فحبسه بها، فلم يزل بها محبوساً حتى قتل «الوليد».

وحبس الأفقم يزيد بن هشام. وأراد «الوليد» البيعة بالخلافة من بعده لابنيه «الحكم وعثمان» فشاور «سعيد بن صهيب» فقال: لا تفعل، فإنهما غلامان لم يحتلما، فغضب وحبسه حتى مات في الحبس[3].

طلب «الوليد» من «خالد بن عبد الله القسري» الذي كان أميراً على العراق، أن يؤدي ما كان عليه من أموال العراق، فامتنع «خالد» لعدم توفر المال المطلوب. وسأل «الوليد» «خالداً» عن ابنه «يزيد» فقال انه لا يعرف شيئاً عن موضعه. فأمر «الوليد» صاحب حرسه فعذبه بالسلاسل، فلم يتكلم ولم يتأوه، فقال: اكفف عنه واحبسه عندك. فحبسه حتى قدم «يوسف بن عمر» بمال من «العراق» وكان مشحوناً بالحقد والكراهية «لخالد» ودفع إلى «الوليد» خمسين ألف ألف إذا سلّمه «خالداً» فأرسل الوليد إلى خالد: أن «يوسف»

---

(1) ابن كثير الدمشقي ـ **البداية والنهاية** ـ مكتبة المعارف ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة 1981 10/ 4.

(2) ول ديورانت ـ **قصة الحضارة** ـ الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ـ 1965 ـ 13/ 85.

(3) **تاريخ الطبري** 7/ 232 ـ ڤلهوزن ـ **تاريخ الدولة العبرية** ـ ص 340.

يشتريك بخمسين ألف ألف، فإن كنت تضمنها وإلا دفعتك اليه، فقال خالد: ما عهدت العرب تباع. فدفعه إلى «يوسف» الذي عذبه عذاباً شديداً، ثم قدم به «الحيرة» فمكث «خالد» يوماً في العذاب، ثم وضع على صدره المضرسة، فقتله ليلاً[1].

وقد عاقب «الوليد» ابراهيم ومحمد المخزومي، على ما اقترفاه من التخلي عنه والانضمام إلى جانب ابن عمه «مسلمة بن هشام»، لأن مسلمة كان ابن أخت لهما، ثم أمر بأن يبعث بهما إلى «يوسف بن عمر» بالكوفة وأمره بأن يبسط عليهما العذاب حتى يتلفا، وقد فعل ذلك، وكان هذا أيضاً مصير بني «القعقاع» الذين كانوا قد أيدوا «هشاماً» فيما أراده من خلع الوليد من ولاية العهد، وجعلها في ابنه «مسلمة» وأسلموا إلى «يزيد الفزاري» لينتقم منهم لعداوة سابقة، وهكذا وقع فصل دموي أخير من فصول العداوة بين قبيلتي «عبس وفزارة»[2].

وامتنع «الوليد» من الاستجابة إلى «القدريين» فهو لم يرض بالخروج بالدين من مرحلة الأخذ بالموروث إلى مرحلة النظر العقلي، وأقر نفي زعماء «القدريين» إلى جزيرة «دهلك»[3].

إن الحوادث بين «الوليد» والعلويين كانت قليلة، وذلك بسبب قصر مدة خلافته ولأن العلويين كانوا قد أنهكوا مما تعرضوا له من قتل وتشريد وحروب متواصلة.

يبدو لنا مما تقدم أن الأسباب التي كانت تؤدي إلى السجن في عهد الوليد هي بمجملها سياسية أو مادية.

كما أن الطريقة التي لجأ إليها «الوليد» مع من يتخلف عن الدفع، كانت غريبة وبشعة، إذ يبيع الشخص بالثمن الباهظ إلى ألد أعدائه، فيقبض هو

---

(1) **تاريخ الطبري** 7/ 260.

(2) يوليوس ڤلهوزن، **تاريخ الدولة العربية حتى نهاية الدولة الاموية** ـ ترجمة أبو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الثانية 1968 ـ ص 340.

(3) **الطبري** 7/ 232 ـ ڤلهوزن ص 342.

المال، ويترك الشخص مع عدوه يتحكم فيه ويسومه سوء العذاب، وهذا ما حصل مع «خالد القسري» إذ سلمه إلى ألد أعدائه «يوسف بن عمر» و«خالد القسري» هذا كان يعتبر زعيماً للقبائل اليمنية التي استاءت وامتعضت لقتل زعيمها، فاحتدمت العصبية بين القبائل المضرية واليمنية في الامصار كافة. وتآمر بالوليد فئات وجماعات مختلفة منها أبناء أعمامه الذين كانوا ينازعونه الخلافة فتصدعت الاسرة الأموية الحاكمة، وتمزق الجيش الاموي، ونشطت الاحزاب، وتحركت الشيعة في «الكوفة» واغتنم العباسيون كل النتائج التي نشأت عن اغتيال «الوليد» فجدّوا في الدعوة السرية لأنفسهم. وهكذا انتهى عهد «الوليد» ليبدأ عهد جديد ربما كان أسوأ منه.

3 ـ السجون عند الامراء والولاة (الفرع المرواني)

أ ـ عند الحجاج بن يوسف الثقفي

الحجاج بن يوسف الثقفي ولد في «الطائف سنة 40 هـ / 660 م، قائد، داهية، خطيب، سفاك، قلّده «عبد الملك بن مروان» أمر عسكره، ثم أمره بقتال «عبد الله بن الزبير، فقتله وفرّق جموعه، فولاه «عبد الملك» مكة والمدينة والطائف ثم أضاف اليه العراق. وثبتت له الامارة عشرين سنة وبنى مدينة «واسط» بين الكوفة والبصرة. وكان سفاكاً، سفاحاً باتفاق معظم المؤرخين، وكان له في القتل والعقوبات غرائب لم يسمع بمثلها. وقد مات بـ «واسط» سنة 95 هـ / 714 م[1]. وأحصي من قتله صبراً فوجد مئة وعشرين ألفاً، ومات «الحجاج» وفي حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد في الشتاء[2].

وربما كان الرجل يستتر بيده من الشمس، فيرميه الحرس بالحجارة، وكان المسجونون يقرّنون بالسلاسل، فإذا قاموا قاموا معاً، وإذا قعدوا قعدوا معاً، وكانوا يسقون الزعاف (الماء الوسخ القاتل) ويطعمون الشعير المخلوط

(1) البستاني، **دائرة المعارف** 6/ 698 ـ الزركلي ـ الاعلام 2/ 168.

(2) المسعودي، **مروج الذهب** 3/ 166.

بالرماد، ولا يجد المسجون المقيد منهم، إلا مجلسه، فيه يأكل، وفيه يتغوط، وفيه يصلي[1].

يبدو أن السجن كان يضم عدداً كبيراً من السجناء، ربما كان السبب في ذلك كثرة الثورات الفاشلة التي شهدها العراق واعتقال الكثيرين ممن اشتركوا فيها.

وقد ذكرت المصادر أن الحجاج كان يتفنن في ابتكار أنواع العذاب، ويتلذذ بمشاهدة ضحاياه عند تعذيبهم، وكان يعذب بعضهم ويقتلهم بيده.

فقد ورد أنه أحضر رجلاً إلى «الحجاج» يدعى «ابن القرية» وكان من جماعة ابن الاشعث، فأمر به، فأمسكه رجال أربعة، حتى لا يستطيع حراكاً، ثم وضع «الحجاج» حربة في جوفه ودفعها ثم خضخضها وأخرجها، فأتبعها دم أسود، وجعل «الحجاج» ينظر اليه حتى مات[2].

لما هزم «ابن الاشعث» قبض على «فيروز حصين» وبعض الأسرى، وأحضروا إلى «الحجاج» الذي طلب منه أموالاً كثيرة. وبما أنه لم يؤدها، أمر به فعذّب، وكان يشد عليه القصب المشقوق، يجر عليه حتى يجرح به ثم ينضح عليه الخل والملح حتى مات. وأحضر «محمد بن أبي وقاص» فظلّ «الحجاج» يضرب رأسه بعصا كانت في يده، حتى أدماه ثم أطمعه في أن يطلقه، وأطرق ملياً، كأنه يفكر، ثم قال لأحد الحرس: اضرب لي مفرق رأسه، فضربه فقسمه قسمين وسقط «محمد» ميتاً[3].

وورد أن «الحجاج» طلب رجلاً يدعى «ابراهيم النخعي» فأحضر الشرطي رجلاً آخر خطأ يدعى «ابراهيم التيمي» وكان رجلاً زاهداً، فأودع السجن ومنع عنه الطعام، ثم أرسل عليه الكلاب تنهشه، حتى مات، ولما مات رمي بجثته، ولم يجرأ أحد على دفنه، حتى مزقته الكلاب[4].

---

(1) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة ـ 1/ 260.

(2) التنوخي ـ **الفرج بعد الشدة** 1/ 400 ـ الدينوري ـ **الاخبار الطوال** ص 222 وما بعدها.

(3) ابن الأثير ـ **الكامل في التاريخ** 4/ 489 ـ التنوخي ـ **الفرج بعد الشدة** 1/ 400 ـ ابن قتيبة ـ **الإمامة والسياسة** 2/ 42.

(4) ابن سعد، **الطبقات الكبرى** 6/ 285 ـ التنوخي **الفرج بعد الشدة** 1/ 400.

وتذكر المصادر أن «الحجاج» قبض على «مالك بن اسماء» وأودعه السجن بسبب مال عليه، وكان «الحجاج» تزوج «هنداً» أخت «مالك» فاستدعاه «الحجاج» يوماً من السجن، فأحضر مكبّلاً بالحديد. فبينما هو يحدثه إذ استسقى ماء فأتى به، فلما نظر اليه «الحجاج» قال: لا، هات ماء السجن، فأتيّ به وقد خلط بالملح والرماد فسقيه[1].

وورد أيضاً أن «الحجاج» أمر «محمد الهمداني» أن يعذب «آزاد مرد» ليأخذ منه الأموال التي لديه. فرفّه «محمد» «آزاد» وأكرمه، فكان يؤدي اليه في كل أسبوع ثلاثمائة ألف درهم. وحينما علم «الحجاج» أن «محمداً» يكرّم «آزاد» ولا يعذبه، غضب وأخذه منه وسلّمه إلى رجل آخر، فعذبه ودق يديه ورجليه، فلم يعطه شيئاً. قال «محمد»: فاني لأسير، بعد ثلاثة أيام، إذا به معترضاً على بغل مدقوق اليد والرجل، فصاح بي، فكرهت أن آتيه فيبلغ «الحجاج» فأقع معه في مكروه، فدنوت، وشكرني على إحساني اليه، وأتيت منزلي، فما وضعت ثيابي حتى آتاني رسول الحجاج وقد بلغه ما جرى[2].

ومن حوادث السجن أيضاً عند «الحجاج» ما ذكرته المصادر عن «جحدر العكلي» الذي كان لصاً يخيف السبيل بأرض اليمن، وبلغ خبره «الحجاج» فأرسل إلى عامله باليمن يشدّد عليه في طلبه، فظفر به وحمله إلى «الحجاج» بـ «واسط» فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: كلب الزمان وجرأة الجنان (أي الفقر وقوة القلب) فأمر بحبسه فحبس، فحنّ إلى بلاده فأنشد شعراً منه:

وقولا «جَحْدر» أمسى رهيناً ... يحاذِرُ وَقْعَ مصقولٍ يماني
ستبكي كلُّ غانيةٍ عليه ... وكلُّ مخضّبٍ رَخْصِ البنانِ
وكلُّ فتىً له أدبٌ وحِلْمٌ ... معدّيٌّ كريمٌ، غير وانِ

فبلغ شعره «الحجاج» فأحضر بين يديه وقال له: ايما أحب إليك أن أقتلك بالسيف أو القيك للسباع؟ فقال له: اعطني سيفاً والقني للسباع. فأعطاه سيفاً وألقاه إلى سبع ضار مجوّع فزأر السبع وجاءه فتلقاه بالسيف ففلق هامته،

---

(1) الاصبهاني **الأغاني** 17/ 231.

(2) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة 1/ 398.

فأكرمه «الحجاج» وخلع عليه وجعله من أصحابه[1].

ويقول «الجاحظ» أن «الحجاج» خطب يوم جمعة فأطال الخطبة فقال رجل: إن الوقت لا ينتظرك، والرب لا يعذرك، فحبسه[2].

وورد في بعض المصادر، أنه على أثر ثورة «ابن الأشعث» هرب بعض أتباعه حيث استخفوا في «مكة» وهناك قبض عليهم «خالد بن عبد الله القسري» وأرسلهم إلى «الحجاج» فمات أحدهم في الطريق ويدعى «طلق بن حبيب» أما رفيقه «مجاهد». فقد أودع السجن وظل في الحبس حتى مات «الحجاج» وأما أحدهم ويدعى «سعيد بن جبير» وكان عالماً زاهداً، فلما قدموا به «الكوفة» أنزلوه في داره، وكان مقيداً، فدخل عليه قرّاء (فقهاء في الدين) «الكوفة» وأخذ يحدثهم ويفيدهم من علمه الغزير، بينما جلست بنية له في حجره، فنظرت نظرة فأبصرت القيد، فبكت. ثم أدخلوه على «الحجاج» حيث تحادث معه قليلاً ثم أمر به فضربت رقبته فبدر رأسه، فلما سقط رأسه هلّل ثلاثاً (قال: الله أكبر) افصح بمرة ولم يفصح بمرتين[3].

ويروى أنه أشكل على «الحجاج» بعض كلام القرآن فطلب أحد القراء، ولما أحضره الشرطي، كان «الحجاج» قد قام من مجلسه، فأودع السجن حيث بقي هناك حتى عرض «الحجاج» السجن بعد ستة أشهر حين سأله عن سبب حبسه، فعفا عنه[4].

و«معاوية بن صعصعة» كان والياً على «البحرين» فغضب عليه «الحجاج» وعزله وأغرمه أربعين ألف درهم ثم حبسه، ولم يحرك أهلوه ساكناً، فقال يعزي نفسه:

أما من تميم دافع لعظيمة ... ولا صابر عند الحفاظ مواسي

ولو كنت من حيّي ربيعة شرّفت ... دعائم بيتي منهم وأساسي

---

(1) ياقوت الحموي ـ معجم البلدان 2/ 222 وما بعدها ـ المبرّد ـ الكامل في اللغة والأدب 1/ 85.

(2) الجاحظ ـ البيان والتبيين 2/ 360.

(3) تاريخ الطبري ـ 6/ 489 ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ 4/ 580 ـ ابن قتيبة ـ الامامة والسياسة 2/ 44.

(4) سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون 1 ص 100.

ولكن في الحقيقة أن قبيلته لم تتخل عنه، ولكنها ترهب سلطان «الحجاج» ولا تتجرأ على التوسط لديه ومكالمته في شأنه[1].

إن تلك الرهبة، وذلك الخوف الذي يثيره «الحجاج» في قلوب مشاهديه، هما عظيمان جداً، نتبينهما من الصورة التي يقدمها لنا شاعر آخر هو الفرزدق الذي يقول:

إذا ما بدا الحجاج للناس أطرقوا وأسكت منهم كل من كان ينطق

فما هو إلا بائل من مخافة وآخر منهم ظلَّ بالرّيق يشرق[2]

وتذكر المصادر أن «المهلّب» مات سنة 83 هـ / 702 م وكان والياً على «خراسان» فاستخلف ابنه «يزيد بن المهلّب» وهو ابن ثلاثين سنة. وكان «الحجاج» في كل وقت يسأل المنجمين ومن يعاني هذه الصناعة عمّن يكون مكانه فيقولون: رجل اسمه «يزيد» فلا يرى من هو أهل لذلك سوى «يزيد» المذكور، والحجاج يومئذٍ أمير العراقين[3]. سعى «الحجاج» لدى الخليفة «عبد الملك بن مروان» فعزل «يزيداً» وقبض عليه «الحجاج» وأخذ يسومه العذاب فسأله أن يخفف عنه العذاب على أن يعطيه كل يوم مائة ألف درهم، فكان دأبه انه إذا أداها تركه وإلا عذبه إلى الليل[4].

وورد في تاريخ «اليعقوبي»: وكان «الحجاج» قد عزل «يزيد بن المهلب» عن «خراسان» فقبض عليه وعلى سائر ولد «المهلب» فحبسهم وطالبهم بستة آلاف ألف[5].

أما «ابن الأثير» فانه يقول: كان «الحجاج» قد خرج لمحاربة الاكراد الذين كانوا قد غلبوا على فارس، وأخذ معه «يزيد بن المهلب» وأخوته وجعلهم في فسطاط قريب منه، وجعل عليهم حرساً من أهل الشام، وطلب

(1) عون الشريف قاسم ـ **شعر البصرة في العصر الأموي** ص 178.

(2) **ديوان الفرزدق** ـ 2/ 53.

(3) ابن قتيبة ـ **المعارف** ـ ص 400 ـ ابن خلكان ـ **وفيات الأعيان** 6/ 278.

(4) **شرح مقامات الحريري البصري** ـ 4/ 104.

(5) **تاريخ اليعقوبي** 2/ 285.

منهم ستة آلاف ألف درهم، وأخذ يعذبهم، فكان «يزيد» يصبر صبراً حسناً، وكان ذلك مما يغيظ «الحجاج» منه، فقيل «للحجاج» انه رمي في ساقه بنشابة فثبت نصلها فيه، فهو لا يمسها إلاّ صاح، فأمر أن يعذب في ساقه، فلما فعلوا به ذلك صاح، وأخته «هند بنت المهلّب» عند الحجاج، فلما سمعت صوت أخيها صاحت وناحت، فطلقها «الحجاج»[1].

فصنع «يزيد» للحرس طعاماً كثيراً وأمر لهم بشراب، فسقوا واشتغلوا به، ولبس «يزيد» ثياب الطباخ وخرج ليلاً وتبعه أخوته، وساروا ليلتهم. ثم استجار «يزيد» بـ «سليمان بن عبد الملك» وهو شقيق «الوليد» الذي أصبح خليفة. فكتب «الحجاج» إلى الخليفة «الوليد» بأن آل المهلّب خانوا وهربوا والتحقوا بأخيه «سليمان» فطلب «الوليد» من أخيه «سليمان» إرسال «يزيد بن المهلّب» اليه مقيداً. فأرسله «سليمان» إلى الخليفة «الوليد» مع ابنه «أيوب» ودخلا عليه وهما مقيدان بسلسلة واحدة. فقدم «أيوب» كتاباً من أبيه إلى عمه الخليفة وفيه: «أما بعد، يا أمير المؤمنين، فقد وجهت اليك يزيد وابن أخيك «أيوب» ولقد هممت أن أكون ثالثهما. فإن هممت يا أمير المؤمنين بقتل «يزيد» فبالله عليك ابدأ بـ «أيوب» من قبله ثم اجعل «يزيداً» ثانياً واجعلني إذا شئت ثالثاً. والسلام. فلما قرأ الخليفة رسالة أخيه تأثر كثيراً وأمر بفك قيودهما وأكرمهما وأعادهما إلى أخيه، وأمر «الحجاج» بالكف عن آل المهلّب والعفو عنهم[2].

مما تقدم يتبين لنا أن «الحجاج» كان سفاكاً سفاحاً إلا أن هناك بعض الملاحظات، حول ما ذكرناه، لا بد من إيرادها أهمها أن تلك الأرقام التي ذكرت حول من قتلهم صبراً (مئة وعشرين ألفاً) و«صبرا» تعني انهم لم يقتلوا بالسيف أو بالرمح أو نحوهما، فكم مئة ألف قتلوا بهذه الوسائل؟ مع العلم أن طريقة القتل الفوري بضرب عنق المجرم كانت متبعة أكثر من الارسال إلى السجن وانتظار موت السجين صبراً. يبدو أن تلك الأرقام فيها شيء من المبالغة.

---

(1) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ 4/ 545 ـ التنوخي ـ الفرج بعد الشدة 1/ 401.

(2) الابشهي ـ المستطرف 1/ 135 ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ 4/ 546.

ومن وجد في سجنه حينما مات ـ خمسون ألف رجل ـ وثلاثون ألف امرأة ـ وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد. وسجن الحجاج المشهور كان في «واسط» فهل يعقل أن ذلك السجن كان على درجة من الضخامة يستوعب ثمانين ألف سجين، وكيف وافق الخلفاء (عبد الملك والوليد) على سجن الرجال والنساء في موضع واحد متجاهلين التعاليم الدينية الاسلامية، والقيم الأخلاقية، وكيف كان موقف رجال الدين وعامة الناس؟ وهذا العدد الضخم من النساء (ثلاثون ألف امرأة) ما هي الجرائم التي اقترفتها حتى أودعن السجن؟ إذا اعتبرنا أن أولئك المساجين من الرجال كانوا من المعادين للسلطة (علويين ـ خوارج ـ ضد النظام القائم ـ لصوصاً ـ مجرمين) فهل كانت تلك النسوة من هؤلاء أيضاً؟

والسجن المشار إليه بلا سقف يقي المساجين حر الشمس والبرد، وقوله: ربما استتر المسجون بيده من الشمس فيرميه الحرس بالحجارة. معنى ذلك أن السجن كان عبارة عن قطعة أرض واسعة لها سور وأبواب، أين كان يجلس أولئك الحراس ربما أمام الأبواب وفوق السور فمن أين كان يرمي الحارس السجين بالحجارة؟ غالباً من فوق السور فهل كان يحمل معه تلك الحجارة استعداداً لرمي المساجين بها. هذا ربما يكون صحيحاً بالنسبة لأولئك المساجين المجاورين للسور، أما بالنسبة للآخرين فمن المتعذر على الحارس إصابة أيديهم التي يتقون بها حر الشمس.

وبما أن السجن كان على هذه الدرجة من البساطة (قطعة أرض مصونة) فلماذا لم يستعمل عدة سجون لهذا العدد الكبير من المساجين، وواحد منها لسجن النساء؟

ومن حوادث السجن التي ذكرناها يتبين لنا أن «الحجاج» كان على درجة كبيرة من القسوة والشدة.

وحادثة «محمد الهمداني» و«ازاد مرد» تدل على الرعب الذي كان يثيره الحجاج في قلوب الناس وتدل أيضاً على أنه كان عنده رجال استخبارات. ويبدو أن الحجاج كان يعجب بالشجعان وان كانوا من اللصوص، إذ خلع على «جحدر العكلي» وجعله من أصحابه.

والملاحظ أنه لم يكن هناك تحديد لمدة العقوبة في السجن، أي أن العقوبة لم تكن على قدر الجرم، حتى أنه يمكن أن يسجن إنسان مدة طويلة وبغير سبب كما حصل لقارئ استدعاه «الحجاج» ليستوضح منه عن قضية دينية أشكلت عليه، فلم يجد الشرطي «الحجاج» في مقامه، فدفع به إلى السجن حيث ظل هناك إلى أن عرض «الحجاج» السجن بعد ستة أشهر وسأله عن سبب سجنه، فعفا عنه.

هذا «الحجاج» يعد من الرجال القلائل الذين نالوا درجة كبيرة من الشهرة في تاريخ الاسلام. وانه من النادر أن تقرأ كتاباً في التاريخ وما يتعلق به من كتب الأدب ولا تجد فيه للحجاج ذكراً كثيراً أو قليلاً.

لا بد من الاشارة هنا إلى أنني لا أدين «الحجاج» ولا أبرئه، بل أبحث عن الحقيقة وأعرضها، وشأنه شأن غيره ممن أتحدث عنهم. وهناك من يجد المسوّغات لتصرفات «الحجاج» ويعتبره رجلاً من رجالات الدولة يتوجب عليه معاقبة كل مخالف بالقسوة لأن الخارج عن السلطة يعرّض الأمة لخطر العصيان والتفرق. وهذا الفريق يرى أن معظم الاخبار الشنيعة هي من نسج خيال أعدائه وأعداء الأمويين، من عباسيين وغيرهم. لذلك سنعرض شيئاً من صفاته وردت في ثنايا بعض الكتب العربية، منها انه امتاز بخلال الكرم والفصاحة والدهاء والجور، وحلم في بعض الأوقات، فأما كرمه فحكي انه لما دخل «المدينة» فرّق في أهلها عشرة آلاف دينار، واقترض أموالاً كثيرة من التجار ووزعها[1].

ولما ولي العراق كان يطعم في كل يوم على ألف مائدة، يجتمع على كل مائدة عشرة أنفس، ويطوف على الناس ليشرف بنفسه على خدمتهم، وكان يرسل الرّسل إلى الناس لحضور الطعام[2].

وكان الحجاج يعفو عمّن كان يندم على الخروج والعصيان، وهذا ما فعله على أثر انتصاره بمعركة «دير الجماجم»[3].

---

(1) سرح العيون ص 98.

(2) سرح العيون ص 98 وقارن مع العقد الفريد 5/ 14.

(3) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ 4/ 481 ـ ابن عبد ربه الاندلسي ـ العقد الفريد 5/ 330.

وهناك رواية أخرى يذكرها «ابن الأثير» تدل على عاطفة نبيلة عند «الحجاج» وهي: قيل: كتب الخليفة «عبد الملك» إلى «الحجاج» يأمره بقتل «أسلم بن عبد البكري» بشيء بلغه عنه، فأحضره الحجاج، وإذ يتبعه أربع وعشرون امرأة يعولهن، فدخلن، وكان في آخرهن جارية قاربت عشر سنين. فقال لها: من أنت منه؟ قالت: ابنته، أصلح الله الأمير. ثم أنشأت تقول:

أحجاجُ لم تَشْهَدْ مَقَامَ بناتِهِ ... وعمَّاتِهِ يَنْدُبْنَهُ اللَّيلَ أجمعا

أحجاجُ لم تقبلْ به أنْ قتلتَهُ ... ثماناً وعشراً واثنتين وأرْبَعَا

أحجاجُ من هذا يقومُ مقامَه ... علينا فَمَهْلاً ان تزدْنا تَضَعْضُعَا

أحجاجُ إمّا ان تجودَ بنعمةٍ ... علينا وامّا ان تُقتِّلَنَا مَعَا

فبكى الحجاج وقال: والله لا أعنت الدهر عليكن ولا زدتكن تضعضعاً. وكتب إلى الخليفة عبد الملك بخبر الرجل والجارية. فكتب اليه «عبد الملك»: إن كان الأمر كما ذكرت فأحسن صلته وتفقد الجارية. ففعل[1].

أما وجه النظر المعاكسة، فإننا نراها في الكلام المنسوب إلى الخليفة الاموي «عمر بن عبد العزيز» الذي تولى الخلافة بعد موت «الحجاج» بفترة وجيزة، حيث يقول: «لو جاءت كل أمة بجيثها، وجئنا بالحجاج لغلبناهم»[2].

وقيل إنّ الخليفة «عبد الملك» قال للحجاج: ليس من أحد إلا وهو يعرف عيب نفسه، فصف لي عيوبك. فقال: اعفني يا أمير المؤمنين، قال: لا بد أن تقول. قال: انا لجوج، حسود، حقود. قال: ما في ابليس شر من هذا[3].

وكما اختلف المؤرخون من السلف في رأيهم بالحجاج، اختلف

(1) ابن الأثير ـ **الكامل في التاريخ** 4/ 586.

(2) ابن عبد ربه الاندلسي ـ **العقد الفريد** 5/ 49 ـ ابن الأثير ـ **الكامل في التاريخ** 4/ 586.

(3) ابن عبد ربه الاندلسي ـ **العقد الفريد** 5/ 49.

المحدثون أيضاً، وكذلك المستشرقون والباحثون الغربيون[1].

وليس غريباً أن يختلف المؤرخون والباحثون والكتّاب، على اختلاف عهودهم وأجناسهم، في الحجاج، ذلك ان الرجل بحق من أبرز رجالات العرب والمسلمين في عصره، إذ أسهم بدور كبير فعّال في صنع تاريخ ذلك العصر، وتوجيه احداثه الوجهة التي يتمنى ويريد، ويبدو أن رأيه يتلخص في الايمان المطلق بوحدة الجماعة الاسلامية وقوة دولتها في الداخل والخارج، وفي أن السبيل الوحيد لتحقيق هذا الهدف هو الالتفاف حول الخليفة القائم واطاعته طاعة مطلقة، ومن أجل ذلك لم يتردد الحجاج في القضاء على كل من يقف في وجه تحقيق هذا الهدف المقدس من أعداء الدولة والخارجين عليها إمّا بالقتل أو الحبس أو التنكيل بمختلف الأساليب. فهل هذه الصفات كانت وقفاً على الحجاج؟ أو أن معاصره عبيد الله بن زياد كان يتمتع بشيء منها؟

ب ـ السجون عند عبيد الله بن زياد

عبيد الله بن زياد (28 هـ / 648 م ـ 67 هـ / 686 م)، وال، فاتح، من الشجعان جبار، خطيب. ولاّه عمّه (الخليفة معاوية)، خراسان حيث أقام سنتين، ونقله «معاوية» إلى البصرة أميزاً عليها، ثم أقرّه «يزيد» على إمارته[2].

ورد أنه في سنة 58 هـ / 677 م، اشتد «عبيد الله بن زياد» على «الخوارج» فقتل منهم صبراً جماعة كثيرة، ومنم «عروة بن أديّة» الذي حبس فترة في «البصرة» ثم استدعاه «عبيد الله» وأمر بقطع يديه ورجليه، ثم قال له:

(1) أنظر رأي «محمد كرد علي» في الاسلام والحضارة العربية 2/ 166 وقارن مع: أدب السياسة في العصر الأموي للحوفي ص 513 ـ وأباطيل يجب أن تمحى من التاريخ لابراهيم شعوط ص 264 .وتاريخ العرب: فيليب حتي ص 268 و282 .وتاريخ خلافة بني أمية: نبيه عاقل ص 183 ـ ومئة أوائل لسهيل زكار ص 158 ـ وأدباء العرب لبطرس البستاني 1/ 397 ـ والشعراء الصعاليك: عطوان ص 33 والحياة الأدبية في عصر بني أمية ص 263 محمد عبد المنعم خفاجي. والحجاج بن يوسف عن لامنس ص 563 دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية جـ 7 ص 313 ـ 317 ـ والحجاج بن يوسف ص 562 عن:

Muit: The caliphate, les rise, decline and Fall. p. 361.

(2) بطرس البستاني ـ دائرة المعارف 11/ 688 الزركلي ـ الاعلام 4/ 193.

كيف ترى؟ فقال عروة: «أفسدت عليّ دنياي، وأفسدت عليك آخرتك» ثم أمر به فقتل ثم صلب على باب داره»[1].

ثم ان «عبيد الله» تتبع «الخوارج» فحبسهم ومن بينهم رجل يدعى «فرداس» فرأى صاحب السجن شدة اجتهاده في العبادة، وحلاوة منطقه، فسمح له بالانصراف ليلاً إلى بيته ثم يعود عند انبلاج الفجر، وهكذا... إلى أن لجّ «عبيد الله» في حبس الخوارج وقتلهم، لأنهم قتلوا رجلاً من الشرط. فقال «عبيد الله»:

ما أدري ما أصنع بهؤلاء. كلما أمرت رجلاً بقتل رجل منهم فتكوا بقاتله، لأقتلنّ من في حبسي منهم. فوصل الخبر إلى «مرداس» وكان في بيته. فلما كان السّحر تهيّأ للرجوع إلى السجن. فقال له أهله: اتّق الله في نفسك فإنك إن رجعت قتلت. وبلغ الخبر صاحب السجن فبات بليلة سوء إشفاقاً من أن يعلم الخبر «مرداس» فلا يرجع. فلما كان الوقت الذي كان يرجع فيه إذ به قد طلع، فقال له السجّان: هل بلغك ما عزم عليه الأمير؟ قال: نعم، قال: ثم غدوت. قال: نعم، ولم يكن جزاؤك مع إحسانك ان تعاقب بسببي. وأصبح «عبيد الله» فجعل يقتل الخوارج، ثم دعا بمرداس، فوثب السجان، وكان ظئراً لعبيد الله - (ابن مرضعته) ثم قال: هب لي هذا، وقصّ عليه قصته، فوهبه له وأطلقه[2]. ثم ان «مرداس» خرج بعدها مع جماعة من «الخوارج» فقتلوا جميعاً وقطعت رؤوسهم وصلبت[3].

وورد أن أول من جمع له المصران: الكوفة والبصرة، زياداً وابنه (عبيد الله) فقتلا من الخوارج ثلاثة عشر ألفاً، وحبس عبيد الله منهم أربعة آلاف[4].

وذكر أنه لم مات الخليفة «يزيد» بايع أهل البصرة «عبيد الله بن زياد»

---

(1) المبرّد - **الكامل في اللغة والأدب** 2/ 191 - **الطبري** 5/ 312 وقد ذكر الدكتور إحسان عباس في كتابه **«شعر الخوارج»** ص 52 الحاشية، ان زياداً» هو الذي قتل عروة بن أدية وذلك في خلافة معاوية صبرا، دون أن يشير إلى المصدر.

(2) **تاريخ الطبري** 5/ 313 - المبرّد **الكامل في اللغة والأدب** 2/ 183.

(3) المبرّد - **الكامل في اللغة والأدب** 2/ 187 - ابن الأثير - **الكامل في التاريخ** 4/ 94.

(4) **تاريخ الطبري** 5/ 524.

وكان في السجن يومئذٍ أربعمائة رجل من الخوارج، وضعف أمر ابن زياد فكلّم فيهم فأطلقهم فأفسدوا البيعة عليه[1].

هذه بعض الحوادث التي حصلت بين «عبيد الله بن زياد» (أمير البصرة والكوفة) وبين إحدى الفرق الاسلامية (الخوارج) ومنها نستنتج أن العلاقة بينهما كانت سيئة بمجملها.

أما علاقته بالفرقة الاسلامية الأخرى «الشيعة» أو «العلويين» فلم تكن بأفضل من ذلك ويكفي أن نعرف أن الفاجعة بمقتل «الحسين بن علي بن أبي طالب» كانت في أيامه وعلى يديه.

وقصة ذلك أنه بعد موت الخليفة «معاوية بن أبي سفيان» تسلم الخلافة ابنه «يزيد» وأقر امارة «عبيد الله بن زياد» على البصرة والكوفة. طلب أهل الكوفة من «الحسين بن علي» الحضور إلى الكوفة لمبايعته بالخلافة، فبعث ابن عمه «مسلم بن عقيل بن أبي طالب» ليتأكد من حقيقة وضع «الكوفة» فبايعه اثنا عشر ألفاً من أهلها وكتب بذلك إلى «الحسين» يأمره بالقدوم.

وكان «مسلم» قد استخفى في بيت أحدهم «هانئ بن عروة» فاستدعاه «عبيد الله بن زياد» وسأله عن «مسلم» فأنكره، فضربه «عبيد الله» على حاجبه فشجه وأمر به فحبس في جانب القصر[2].

كتب الخليفة «يزيد بن معاوية» إلى «عبيد الله بن زياد» رسالة من ضمنها: «بلغني أن «الحسين بن علي» قد توجه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح[3] واحترس على الظن، وخذ على التّهمة، غير ألاّ تقاتل إلا من قاتلك..»[4].

---

(1) المبرّد ـ الكامل في اللغة والأدب 2/ 218.

(2) تاريخ الطبري 5/ 347 وما بعدها.

(3) المناظر: جمع منظرة وهو الموضع يرقب فيه العدو.

المسالح: جمع مسلحة وهي موضع يكون فيه أقوام ـ يحملون السلاح، ويرقبون العدو، لئلا يطرقهم على غفلة.

(4) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ 4/ 36 ـ تاريخ الطبري 5/ 381.

ومعنى ذلك أن مجرد الظن بأي شخص أنه يتعاطف مع الحسين، أو أنه مناوئ للسلطة، يكفي لاعتقاله وحبسه.

وفي العاشر من شهر المحرّم سنة 61 هـ / 680 م قتل «الحسين» وقبض «عبيد الله ابن زياد» على رؤوس أصحابه وأرسلهم مع النساء والصبيان إلى «يزيد» وكان من بينهم «علي بن الحسين» فجعل «ابن زياد» الغلّ في يديه ورقبته، حتى بلغوا الشام»[1].

يتبين لنا مما تقدم أن الأوضاع في العراق لم تكن مستقرة في عهد أميرها عبيد الله ابن زياد، حاول استمالة «الخوارج» اليه باطلاقهم من السجن، فلم ينجح، والعلويون كانوا ينظرون إلى الأمويين انهم اغتصبوا الملك، وزادت نقمتهم على أثر مقتل «الحسين» لذلك ليس غريباً أن نرى في هذا العصر، معظم نزلاء السجون من الخصوم السياسيين. وكيف كانت أوضاع السجون في عهد أمير أموي آخر «يوسف بن عمر»؟

ج ـ السجون عند يوسف بن عمر

يوسف بن عمر «الثقفي»، أمير، من جبابرة الولاة في العصر الأموي، ولاّه الخليفة «هشام بن عبد الملك» إمارة اليمن سنة 106 هـ / 724 م فلم يزل والياً بها حتى كتب اليه هشام سنة 120 هـ / 737 م بولايته على العراق وأضاف اليه أمرة خراسان فاستخلف ابنه «الصلت» على اليمن، ودخل العراق وعاصمته يومئذٍ الكوفة، فأقام بها. وكان صغير الحجم قصير القامة، عظيم اللحية، وكان يضرب به المثل في التّيه والحمق، يقال: أتيه من أحمق ثقيف. وكان مهيباً، جباراً، ظلوماً[*].

كثر على هشام، ما يتصل به عن خالد، من الأمور التي كان يكرهها فعزم على عزله، وعيّن يوسف بن عمر أميراً على العراق، بعد أن أمضى خالد خمس عشرة سنة أميراً عليها.

---

(1) الاصبهاني ـ **مقاتل الطالبيين** ص 118 ـ وما بعدها ـ **تاريخ الطبري** 5/ 390 وما بعدها. الكامل في التاريخ 4/ 80 وما بعدها.

(*) الزركلي ـ **الاعلام** 8/ 243 ـ ابن خلكان ـ **وفيات الأعيان** 7/ 101.

لما وصل «يوسف» إلى الكوفة خطب في الناس منذراً ومتوعداً، وانه سيأخذ خالداً وعماله بالعذاب، وهذا ما حصل بالفعل، إذ قبض على «طارق» وعذبه حتى مات في العذاب ولقي خالد وجميع عماله كل شر، ومات منهم في العذاب بشر كثير، وكأن ما استخرج يوسف من خالد وأسبابه تسعين ألف ألف درهم[1].

وقد حبس «يوسف بن عمر» من عمال «خالد» أيضاً عيسى بن معقل وأخاه ادريس[2]. وكان «بلال بن أبي بردة» عاملاً إلى «خالد» على البصرة، حينما بلغه تكليف يوسف بن عمر بامارة العراق، فأسرع إلى خالد في الكوفة يستحثه الاتصال بأمير المؤمنين «هشام» ويعرض عليه بعض الأموال، فرفض خالد، ونزل «بلال» في دار له بالكوفة. فقبض عليه يوسف وقيده في تلك الدار التي جعلت سجناً إلى اليوم[3]. ويقال ان «بلالاً» سأل السجان أن يرفع اسمه في الموتى ويعطيه مالاً، فقال يوسف: اعرض الموتى عليّ، وكأنه تنبه إلى الخديعة، فما كان من السجان إلا أن غمّ «بلالاً» حتى مات وعرضه على يوسف ميتاً[4].

ثم ان «يوسف» استأذن «هشاماً» في بسط العذاب على «خالد» فلم يأذن له، حتى ألح عليه بالرسل واعتل بانكسار الخراج لما صار اليه وإلى عماله منه، فأذن له فيه مرة واحدة، فدعا به يوسف وجلس على دكان بالحيرة وحضر الناس، وبسط عليه العذاب... ثم رد خالداً إلى محبسه فأقام ثمانية عشر شهراً، ثم كتب اليه «هشام» يأمره بتخلية سبيله، وخرج خالد ومعه جماعة من أهله وغيرهم حتى أتى «القرية»[5].

وقيل أنه لما قبض «يوسف بن عمر» على «خالد القسري» عذّبه كثيراً، لكي يدفع له ما لديه من أموال، فادعى انه استودع «زيداً بن علي» (من أئمة

(1) ابن خلكان ـ **وفيات الاعيان** 7/ 103 ـ الجهشياري ـ **الوزراء والكتاب** ص 63.

(2) **تاريخ الطبري** 7/ 198.

(3) **تاريخ الطبري** 7/ 153.

(4) ابن خلكان ـ **وفيات الاعيان** 7/ 106.

(5) ابن خلكان ـ وفيات الاعيان 7/ 105.

الشيعة) وغيره مالاً عظيماً. فكتب بذلك يوسف إلى هشام الذي أمره بجمعهما والتأكد من صحة ادعاء «خالد» فجمعهما فأنكر زيد ذلك وكذلك خالد، فقال له القوم: ما دعاك إلى ما صنعت؟ قال: غلظ عليّ العذاب فادعيت ما ادعيت، وأمّلت أن يأتي الله بفرج قبل قدومكم. فأطلقهم يوسف، وشتم خالداً ورده[1].

أقام «خالد» بدمشق خلافة «هشام» حتى هلك، فلما هلك، تسلم الخلافة «الوليد» الذي طلب من «خالد» ابنه يزيد، فأنكر معرفته لمكان وجوده، فأمر بتعذيبه، ثم حبسه حتى قدم «يوسف بن عمر» على الوليد، ودار الحديث عن خالد، فقال «ابان بن عبد الرحمن النميري» أنا اشتري خالداً بأربعين ألف ألف درهم، وقال يوسف: ادفع خالداً اليّ وأنا أستأديه خمسين ألف ألف درهم، فدفعه إلى يوسف، وكل منهما يأمل أن يحصل من خالد، تحت العذاب، على مبالغ طائلة.

أخذه يوسف ونزع ثيابه ودرّعه عباءة ولحقه بأخرى وحمله في محمل بغير وطاء، فبسط عليه وعذّبه عذاباً شديداً، وهو لا يكلمه كلمة. ثم قدم به يوسف «الحيرة» فمكث «خالد» يوماً في العذاب، ثم وضع على صدره المضرّسة، فقتله من الليل، ودفن بناحية «الحيرة» وذلك سنة 126 هـ / 743 م، وفي رواية، دعا «يوسف» بعود، فوضع على قدمي «خالد» ثم قامت عليه الرجال حتى كسرت قدماه، ثم على ساقيه حتى كسرتا، ثم على فخذيه ثم على حقويه، ثم على صدره حتى مات، فما تكلم ولا عبس[2].

وقال الاشعث بن القيني فيما نال خالداً:

لَعَمْرِي، لقد أعْمَرْتُم السّجْنَ خالداً   وأوْطَـأْتُـمُـوهُ وَطْـأةَ الـمُـتَـثَـاقِـلِ
فإنْ تَحْبِسُوا القَسْرِيَّ لا تَحْبِسُوا اسْمَهُ   ولا تَـحْبِسوا مَعْرُوفَهُ في القَبـائِلِ[3]

و«توبة العنبري» أحد الولاة، ولاّه «يوسف بن عمر» سابور ثم ولاه

(1) تاريخ الطبري - 7/ 162 وما بعدها.
(2) **تاريخ الطبري** 7/ 259 وما بعدها - **وفيات الاعيان** 7/ 110 - **التنبيه والاشراف** ص 280.
(3) الدينوري - **الاخبار الطوال** ص 347.

الاهواز توفي سنة 131 هـ / 748 م، قال «توبة»: اكرهني يوسف بن عمر، على العمل، فلما رجعت حبسني حتى لم يبق في رأسي شعرة سوداء، وكنت دائماً في قيودي[1].

وذكر أن «وهب بن منبه» مؤرخ، وعالم بأساطير الأولين، ولاّه عمر بن عبد العزيز قضاء صنعاء، ولد ومات في «صنعاء» سنة 114 هـ / 732 م حبسه يوسف بن عمر وكان كبير السن وضربه حتى مات[2].

و«قحذم بن أبي سليم» كان كاتباً عند «يوسف بن عمر» فنقم علنيه «يوسف» وعزله وحبس ابنه «عمر» وعذبه وطالبه بمئة وخمسين ألف درهم، فدفعت عنه وأخلي سبيله، وطلب «قحذماً» نفسه ليودع في الحبس إلا ان «قحذماً» أحس بالطلب فهرب إلى مكة[3].

هذا شيء مما كان من أمر «يوسف بن عمر» يستعمل الحبس والعذاب والقتل لانتزاع الأموال من الأمير السابق وعماله، ويبدو أن تحركات الخوارج كانت ضعيفة في عهده. وأما الشيعة (العلويون) فقد تنشطوا في عهد الأمير يوسف وحصلت مصادمات بينهما أدت إلى حروب وقتل وسجن وتعذيب.

وكتب «يوسف بن عمر» إلى نصر بن سيار، عامل خراسان، للقضاء على «يحيى بن زيد» وجماعته، فقبض «نصر» على «يحيى» وحبسه، وقيده وجعله في سلسلة، وكتب بذلك إلى «يوسف» الذي كتب هو الآخر إلى الخليفة «الوليد» الذي أمر باخلاء سبيله[4].

وفي سنة 126 هـ / 743 م قتل الخليفة «الوليد بن يزيد بن عبد الملك» وتسلم الخلافة «يزيد بن الوليد» الذي عزل «يوسف بن عمر» وولّى «منصور بن جمهور» ولما علم «يوسف» بقتل «الوليد» خاف على نفسه، واستغل الاحقاد القديمة بين القبائل العربية فتقرب من «المضريّة» وعمد إلى من

---

(1) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة 2/ 328.

(2) الزركلي ـ الاعلام 8/ 125 ـ الفرج بعد الشدة 2/ 331 الحاشية.

(3) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص 65.

(4) تاريخ الطبري 7/ 228 ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ 5/ 271.

بحضرته من «اليمانية» فيلقيهم في السجون. ولما لم يجد عنده «المضرية» ما يحب أطلق من في السجون من «اليمانية»، وكان «منصور» وهو في طريقه إلى العراق، يقبض على عمال «يوسف» ويعذبهم ويودعهم السجون، بعد أن يكلف عمالاً جدداً. ولما اقترب من العراق، هرب «يوسف بن عمر»، ودخل «منصور» الكوفة، فأخذ بيوت الأموال، وأطلق من في سجون «يوسف»[1].

وفي سنة 124 هـ / 741 م قدم جماعة من خراسان يريدون مكة، فلما دخلوا الكوفة أتوا «عاصم العجلي»، وهو في الحبس قد اتّهم بالدعاء إلى ولد العباس، وكان في الحبس «أبو مسلم الخراساني» غلاماً مملوكاً يخدم أسياده ابنا معقل المحبوسين، فكان يسمعهم يتكلمون في الدعوة إلى ولد العباس فيبكي، فدعوه إلى ما هم عليه، فأجاب وقبل[2].

ولما هرب «يوسف بن عمر» أتى إلى «البلقاء» فاستخفى بها، وكان أهله مقيمين فيها، فلبس زي النساء وجلس بينهن، وبلغ «يزيد» خبره فأرسل اليه من أحضره، فحبسه في «الخضراء» وهي دار بدمشق مشهورة، فأقام «يوسف بن عمر» في السجن بقية مدة الخلافة «يزيد» و«ابراهيم بن الوليد» إلى أن تسلّم الخلافة «مروان بن محمد» آخر خلفاء بني أمية، في حالة فوضى، فأرسل «يزيد بن خالد القسري» بعض أتباعه فدخلوا السجن وأخرجوا «يوسف بن عمر» فضربوا عنقه، لأنه سبق وقتل «خالد القسري» والد «يزيد» المذكور[3].

يبدو أن «يوسف بن عمر» كان خطيباً بليغاً، فقد ذكر له «ابن عبد ربه الأندلسي» خطبة من أربعة أسطر تقريباً جاء فيها قوله: «اتقوا الله عباد الله، فكم مؤمّل أملاً لا يبلغه، وجامع مالاً لا يأكله، ومانع عمّا سوف يتركه، ولعله من باطل جمعه، ومن حق منعه... خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين»[4].

مما تقدم يتبين لنا أن الأمير الجديد، يعيّن عمالاً جدداً على الامصار،

---

(1) **تاريخ الطبري** 7/ 272 وما بعدها ـ **تاريخ الدولة العربية** ـ فلهوزن ص 353 وما بعدها.

(2) **تاريخ الطبري** 7/ 198 وما بعدها.

(3) ابن خلكان ـ **وفيات الأعيان** 7/ 110 وما بعدها ـ **تاريخ الطبري** 7/ 274.

(4) ابن عبد ربه الاندلسي ـ **العقد الفريد** 4/ 134 وما بعدها.

وينتقم من الأمير السابق وعماله، فيعذبهم بالضرب والسجن، ويعمل جاهداً على ابتزاز ما كانوا قد جمعوه من أموال، وكأن الامارة نعيماً وترفاً في أولها، وجحيماً وموتاً في نهايتها. وهذا الأمير الجديد (يوسف بن عمر)، لقي المصير نفسه في نهاية حكمه، إذ أنه هرب ولبس زيّ النساء، وتخفى بينهن، وقبض عليه وقتل، بينما وجدناه في الأمس القريب يقبض على سلفه الأمير خالد، ويسومه مختلف أنواع العذاب.

ويبدو أنه لم يكن هناك مدة محددة لعقوبة السجن، إذ أن «توبة العنبري» يقول أنه بقي في السجن حتى لم يبق في رأسه شعرة سوداء، وكان طول تلك الفترة مقيداً. و«وهب بن منبّه» مع انه كان شيخاً كبيراً لم ينقذه كبر سنه من السجن حيث ضرب فيه حتى مات.

ولم يكن السجن وسيلة لابتزاز الأموال فحسب، من الأمراء والولاة، بل كان أيضاً وسيلة لقمع التيارات السياسية المعارضة للسلطة الحاكمة خصوصاً مع الشيعة العلويين، حتى أن أحد أئمتهم «زيد بن عليّ» لم تمنعه قرابته من الرسول، من القتل والصلب، وهو عريان، قتل بسهم ثبت في دماغه، وتشاء الاقدار أن يقتل ابنه «يحيى» من بعده بالطريقة عينها بوساطة نشابة أصابت جبهته.

وتلك الفئة الجديدة الداعية لبني العباس أخذت نصيبها من السجن أيضاً، إنما ما يلفت الانتباه قصة «أبي مسلم الخراساني»[1] الذي كان مملوكاً يخدم أسياده المسجونين كما سبقت الاشارة إلى ذلك في حينه، وهذا يعني أن المترفين من المسجونين، كان بامكانهم إدخال خدمهم معهم للقيام بخدمتهم، وهؤلاء الخدم يصبحون في واقع الحال من المساجين.

وإن من يتفهم معنى الخطبة التي أوردناها لـ «يوسف بن عمر» يلاحظ أنه يدعو إلى التقوى والعمل على إرضاء الله، والزهد في الحياة، وجمع المال من طرق الحلال وبذله في طرق الخير، والترهيب من الآخرة وملاقاة الله.

وهذا الكلام الذي يصدر عن «يوسف» لا ينطبق على واقعه مع نفسه، فهو ينصح الآخرين، وينسى نفسه التي كانت الاحوج إلى النصح والارشاد.

---

(1) Hermann Zotenberg - L'âge d'or des Abbassides - Islam - Sindbad- Paris 1983- Page II.

الفصل الثاني

أحكام السجون عند الفقهاء المسلمين

تمهيد

بعد انتشار الدين الجديد طبقت في المجتمع العربي أنظمة الشريعة الاسلامية، والتعرض لاحكام السجون عند الفقهاء المسلمين يلقي الأضواء على جوانب مهمة من موضوعنا، ويساعد على معرفة حقيقة أوضاع المساجين، ولا سيما من ناحية مشروعية حبسهم وجدوى السجن كأداة تعزير.

بوفاة الرسول ﷺ، ثم وفاة آخر الصحابة، بدأ عصر جديد، كان تمهيداً لظهور الحركة الفقهية. وكان طبيعياً أن تتكون المدرسة الفقهية الأولى في المدينة المنورة ـ دار السنّة ـ وامتازت تلك المدرسة بمشاهير من الفقهاء الذين كانوا حلقة الوصل بين عصر الصحابة وعصر المذاهب الفقهية، أمثال: سعيد بن المسيّب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وغيرهم، وقد انطلقت الحركة الفقهية أول ما انطلقت من أقوال أولئك الفقهاء الاعلام[1].

والمذاهب التي نشأت، منها الفردية التي انقرضت ولم يكتب لها البقاء ومنها الجماعية التي كونت مدارس، ووضعت مناهج للبحث التشريعي العميق، وما يزال لها في العالم الاسلامي أتباع كثيرون، كالمذاهب الخمسة المشهورة: الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي، والجعفري[2].

---

(1) صبحي الصالح ـ النظم الاسلامية ص 207.

(2) René Kalisky - L'islam, Origine et essor du monde Arabe-Marout Université - Belgique 1980 - Page 136.

Les peuples et les civilisations du proche orient - Tome 4 - Dar Aouad 1983 - Page 118.

ونحاول فيما يلي توضيح مشروعية الحبس بالتعزير في المسائل التي لها علاقة بموضوعنا لندرك مدى تأثير ذلك على شعراء السجن والأسر. وعلى نتاجهم الأدبي.

مشروعية الحبس

قال الزيلعي في شرح الكنز: «ان الحبس يصلح للعقوبة، وهو مشروع بالكتاب والسنّة والاجماع:

1 ـ أما الكتاب ففي قوله تعالى: ﴿**أوينفوا من الأرض**﴾ وقال ان المقصود بالنفي في آية المحاربة هذه، الحبس.

2 ـ واما السنّة فلأن النبي ﷺ حبس رجلاً للتهمة.

3 ـ واما الاجماع، فلأن الصحابة ومن بعدهم اجمعوا عليه»[1].

قد يكون الحبس في التعزير هو العقوبة الوحيدة التي يقضي بها، وقد يضم إلى غيره من العقوبات، إذا رأى القاضي أن ذلك لازم لردع الجاني وزجره[2].

والتعزير هو ضرب دون الحد، لمنعه الجاني من المعاودة وردعه عن المعصية، والعزر: المنع. والتعزير: التوقيف على الفرائض والاحكام، وأصل التعزير: التأديب[3].

متى يشرع الحبس بالتعزيز

ذهب الفقهاء إلى مشروعية الحبس تعزيراً في كثير من المسائل، منها ما يتعلق بالعقيدة ومنها ما يتعلق بالدماء، والاموال، والقضايا الاجتماعية، والاعتداء وغيرها وفيما يلي آراء الفقهاء في المسائل المتعلقة بموضوعنا.

---

(1) عبد العزيز عامر ـ **التعزير في الشريعة الاسلامية** ص 364، نقلاً عن تبيين الحقائق. **شرح الكنز** للزيلعي 3/ 207 وقارن مع **الطرق الحكمية** ص 102 و119، **والعقوبات في الفقه الاسلامي** ص 190، **والفقه الاسلامي وأدلته** 6/ 198 **والأحكام السلطانية** للماوردي ص 224.

(2) عبد العزيز عامر ـ **التعزير في الشريعة الاسلامية** ص 364 وما بعدها.

(3) ابن منظور ـ **لسان العرب** 4/ 561 وما بعدها.

أولاً - فيما يتعلق بالدماء

من مقاصد الشريعة التي جاءت لحفظها وصيانتها، كما ذكر الفقهاء، خمسة أشياء: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال. وقد شرع الاسلام: لحفظ الدين، أحكام الردّة، ولحفظ العقل، حد الشرب لكل مسكر يعطل العقل، ولحفظ النسل حد الزنا والقذف، ولحفظ المال حد السرقة، وشرع لحفظ النفوس، أحكاماً صارمة، وجعل الاعتداء على نفس واحدة، اعتداء على جميع الناس، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿**من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً...**﴾[1] وفي القرآن أيضاً: ﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا الحق**﴾[2] وفي الحديث عن الرسول ﷺ: «ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم»[3].

وقد حدد الاسلام للقتل العمد: عقوبة الاعدام (القتل) قصاصاً، وهذه العقوبة إتفق عليها جميع الفقهاء لأنها ثابتة بالنص. لذلك كان لزاماً على معاوية الحكم باعدام الشاعر هدية بن خشرم على الرغم من تعاطفه معه ومحاولته إنقاذه من القتل. وهناك حالات، فيها اعتداء على النفس الانسانية لم يرد بشأنها نص صريح مما جعل الفقهاء يضعون لها عقوبات تعزيرية من بينها عقوبة الحبس، فمن ذلك:

1 - القاتل إذا عفي عنه، فقد ذهب المالكية إلى أنه يجلد مئة جلدة ويسجن سنة[4]. بينما يذهب الشافعي وابن حنبل إلى خلاف هذا الرأي فعندهما انه إذا عفي عنه (القاتل) فإنه لا يضرب ولا يحبس، مع ملاحظة أن السنة للحبس تبدأ من يوم العفو وان المدة التي قضاها في السجن قبل العفو

---

(1) سورة المائدة 32.

(2) سورة الانعام 151.

(3) الامام مالك - **الموطأ** ص 631.

(4) محمد بن أحمد المالكي - **قوانين الاحكام الشرعية** - ص 375 - أبو الوفا المالكي - **تبصرة الحكام** 2/ 158 و201.

ليس لها اعتبار[1]. كذلك إذا كان القاتلون جماعة فقتل واحد منهم قصاصاً فإن بقيتهم يضربون مئة ويحبسون عاماً[2].

2 ـ الامساك للقتل: إذا أمسك رجل آخر، لرجل حتى قتله، فإنه يحبس الممسك حتى الموت. وقد استدلوا على ذلك بحديث ورد عن الرسول، يقول فيه: «اقتلوا القاتل واصبروا الصابر» وفسّرت عبارة «واصبروا الصابر»، بحبسه حتى يموت لأنه حبس المقتول للموت، بامساكه إياه للآخر حتى قتله[3].

ومن ذلك أيضاً: من أوثق آخر وألقاه أمام أسد فأهلكه، فعند أبي يوسف يحبس حتى يموت في السجن كما هو مذهب علي بن أبي طالب. ومن أوثق آخر وألقاه في الشمس أو في برد شديد حتى مات، فعليه الحبس حتى يموت. وهذا ما ذهب إليه الشيعة الجعفرية[4].

3 ـ الأمر بالقتل وتخليص القاتل: ومن أمر إنساناً بقتل آخر، فإن الفقهاء يرون أن يقتل القاتل، واما الآمر فإنه يضرب مئة ويحبس سنة وهذا ما ذهب اليه المالكية كما يقول ابن فرحون، أما الشيعة الجعفرية فيقولون: يقتل به من باشر القتل، ويحبس الآمر بقتله في الحبس حتى يموت[5].

وعند الشيعة أيضاً أن من خلّص القاتل فإنه يسجن حتى يؤتى بالقاتل[6].

4 ـ المتهم بالقتل: يحبس المتهم إلى أن يتبين أمره، وطريقة الكشف تكون بالحبس والضرب معاً وبالحبس دون الضرب كما ذكر ابن فرحون المالكي. ويرى الشيعة الجعفرية حبس المتهم ستة أيام وإذا لم تثبت إدانته خلالها خلّي سبيله[7].

---

(1) محمد بن أحمد المالكي ـ قوانين الاحكام الشرعية ص 375 ـ أبو الوفا المالكي ـ تبصرة الحكام ـ 2/ 158 و201.

(2) محمد بن أحمد المالكي ـ قوانين الاحكام الشرعية ص 375.

(3) أقضية الرسول ص 100 وما بعدها.

(4) التعزير في الشريعة الاسلامية ص 373 .فقه الامام جعفر 6/ 346.

(5) تبصرة الحكام 2/ 180، فقه الامام جعفر 6/ 323 و348 ـ النهاية ص 747.

(6) فقه الامام جعفر ص 6/ 348.

(7) تبصرة الحكام 2/ 116 وما بعدها ـ النهاية ص 744 ـ وقارن مع أقضية الرسول ص 93 والطرق الحكمية ص 120 وما بعدها.

وعلى هذا الأساس أمر الخليفة عبد الملك بن مروان بالقبض على الشاعر السمهري وأعوانه وأودعوا السجن وضيق عليهم لانكارهم القتل، وهذا ما سنوضحه في حينه.

نلاحظ مما تقدم، ذلك الموقف المتشدد بالنسبة إلى القتل وما ذلك إلا صوناً للدماء وللنفوس ليعيش المجتمع في ظل الأمن والاستقرار والعدالة التي هي الهدف الاسمى لجميع الأديان والشرائع.

ثانياً ـ فيما يتعلق بالأموال

العقوبة الوحيدة التي نص عليها الاسلام في الاعتداء على المال، هي عقوبة القطع، وهذا ما ورد في القرآن الكريم: **﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا، نكالاً من الله، والله عزيز حكيم﴾**[1].

وهذه العقوبة لا توقع على مرتكب السرقة إلا ضمن شروط ذكرها الفقهاء[2]. وتسقط عند حدوث أية شبهة، استناداً إلى قول الرسول ﷺ: «ادرؤوا الحدود بالشبهات»[3] وقد توسع الفقهاء في فرض عقوبات على كل اعتداء خارجاً عن موضوع السرقة التي ذكرناها بشروطها، وتوسعهم هذا إنما كان من باب التعزير الذي هو عقوبة غير مقدرة، يترك أمر تقديرها إلى القاضي أو الحاكم حسبما تقتضيه المصلحة العامة، ومن بين هذه العقوبات التي قررها الفقهاء عقوبة السجن.

ونظراً لاتساع المعاملات المالية وتشعبها، فقد رأينا، تيسيراً للبحث أن نقسمها بحسب مواضيعها، فنذكر المسألة ونضم اليها مثيلاتها. فمن ذلك:

1 ـ السرقة وما يتعلق بها

أ ـ المتهم بالسرقة: المتهم بالسرقة لا بد أن يكشف أمره ويستقصى عليه

---

(1) سورة المائدة ـ الآية 38.

(2) يمكن الاطلاع عليها في الفقه الاسلامي وأدلته 6/ 100 وما بعدها. وقارن مع نصب الراية 3/ 309.

(3) نصب الراية 3/ 309 ـ تحفة الاحوذي في شرح سنن الترمذي 2/ 318 وقارن مع الموطأ ص 530.

وذلك إما بالضرب والحبس، أو بالحبس دون الضرب، وذلك موكول إلى رأي الحاكم أو القاضي. وقد ذهب الامام مالك إلى أنه يحلّف ويسجن ويهدد، ومن شهد عليه بأنه موصوف بالسرقة فإنه يسجن حتى يموت[1].

ب ـ السارق للمرة الثالثة: ذهب الشيعة إلى أنه يحبس مؤبداً. وقد ذهب الامام مالك إلى أنه إن سرق للمرة الخامسة ضرب وحبس، واما أبو حنيفة فإنه قال: لا يقطع في الثالثة ولا في الرابعة بل يضرب ويحسب مؤبداً حتى يتوب أو يموت[2].

ج ـ ومن اتهم بالسرقة وضرب الناس: يحبس ويخلّد في السجن حتى يظهر التوبة، ويعلل ابن عابدين الحنفي ذلك، بأن شر هذا الجاني موجه إلى الناس، ففي حبسه وتخليده في السجن دفع لهذا الشر عنهم[3].

وعلى هذا الأساس كان القبض على الصعاليك وزجهم في غياهب السجون أمثال جحدر العكلي. ويعلى الاحوال الازدي وغيرهما وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل فيما بعد.

د ـ اللصوص الدعار: وهم الذين يقصدون إتلاف أموال الناس فإنهم يحبسون حتى يتوبوا[4].

2 ـ الدين وما يتعلق به

يعرف الدين عند الفقهاء بأنه الحق الذي لا يسقط إلا بالاداء أو الابراء[5]. وهو نتيجة طبيعية للعلاقات المالية بين الناس، وقد أمر الاسلام بالوفاء به، والنصوص في ذلك كثيرة جداً منها قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين**

---

(1) تبصرة الحكام 2/ 116 وما بعدها.

(2) **النهاية** ص 717 ـ **فقه الامام جعفر** ص 345 ـ **قوانين الاحكام الشرعية** ص 390 **التعزير** ص 374 ـ **تبصرة الحكام** 2/ 172 ـ **مفهوم الحرية في الاسلام** ص 45.

(3) **التعزير** ص 373 نقلاً عن **حاشية ابن عابدين** 3/ 187 و194.

(4) عبد العزيز عامر ـ **التعزير** ص 375 نقلاً عن **فصول الاستروشني** ص 46 والسندي 7 ورقة 662 / أ.

(5) **التعريفات** ص 111 وقارن **بمعجم لغة الفقهاء** ص 212.

آمنوا أوفوا بالعقود﴾[1] وقول الرسول: «مطل الغني ظلم»[2].

يشترط لحبس المدين المماطلة في الوفاء مع مقدرته عليه، لأنه بذلك يكون ظالماً يستحق العقوبة. أما إذا ثبت عسرته فإنه يستحق الانظار إلى أن يوسر. فحبسه مع العسرة يكون ظلماً فلا يحل[3]. وذهب الشيعة الجعفرية إلى أن الحاكم مخيّر بين حبس المدين وبين بيع بعض أمواله[4].

يتبين لنا أن حبس المدين القادر المماطل جائز شرعاً، وهذا ضروري صوناً للعدل ومراعاة للمصلحة العامة وزجراً للمماطلين الذين لا يمتازون كثيراً عن السارقين والمختلسين والمحتالين.

واما المفلس، فهو العاجز عن وفاء ما عليه من حقوق مالية، ومن كان دينه أكثر من ماله، والفرق بينه وبين المديون، ان المديون لا يمنع من التصرف في أمواله، بالغة ما بلغت ديونه الا بعد أن يحجر عليه الحاكم، فإن حجر عليه الحاكم سمي مفلساً[5].

وقد اختلف الفقهاء في حبس المفلس وعدمه، واستثنى الشيعة الجعفرية من الحجر على أموال المفلس: دار السكن، وكل ما تدعو اليه الضرورة، كالثياب والقوت، وأدوات الصناعة التي يكسب منها قوته، وأثاث البيت الضروري، كالفراش واللحاف وما إلى ذلك مما لا غنى لاحد عنه[6].

---

(1) سورة المائدة 1.

(2) حديث صحيح أخرجه البخاري 4/ 464 ومسلم 3/ 1197.

(3) التعزير ص 414 نقلاً عن شرح الزيلعي للكنز 4/ 180.

(4) فقه الامام جعفر 5/ 114 و347 - وقارن مع التعزير ص 415 و417 نقلاً عن المغني 4/ 502 وما بعدها. ومعجم الفقه الحنبلي 1/ 165 و22 و331 .والروض النضير 4/ 125 وما بعدها. والنظرية العامة للموجبات والعقود 2/ 32.

(5) معجم لغة الفقهاء ص 81 و447 وفقه الامام جعفر 5/ 110.

(6) فقه الامام جعفر 5/ 111 وقارن مع الفقه الاسلامي وأدلته 5/ 455 وقوانين ص 347، والطرق الحكمية ص 75 حيث ذهب وهو حنبلي إلى أنه لا يحبس، والروض النظير 4/ 158 وما بعدها ومعجم الفقه الحنبلي 1/ 165.

3 ـ النفقة وما يتعلق بها

النفقة في اللغة مأخوذة من الانفاق وهي ما ينفقه الانسان على عياله، وعند الفقهاء هي كفاية من يمونه من الطعام والكسوة والسكنى. وهي قسمان:

أ ـ نفقة تجب للانسان على نفسه، وهي مقدمة على النفقة على الغير، تنفيذاً لمضمون الحديث الشريف «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»[1].

ب ـ ونفقة تجب على الغير وأسبابها ثلاثة: الزوجية، والقرابة والملك.

1 ـ **الزوجية**: واجبة بنص القرآن: **﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن﴾**[2] وان امتنع الزوج عن النفقة، مع يساره، حبسه الحاكم، فإن صبر على الحبس أخذ الحاكم النفقة من ماله رغماً عنه، هذا ما ذهب اليه المالكية والشافعية والحنابلة والحنفية وكذلك الشيعة الجعفرية والزيدية[3].

وقد إتفق الفقهاء على أنه إذا حبست الزوجة بجريمة اقترفتها، سقطت نفقتها، واما ان حبست ظلماً، فقد قال الحنفية والحنابلة بسقوط النفقة، وخالفهم في ذلك الشافعية والمالكية. وعلى العكس من ذلك فإنه إذا حبس الزوج، فلا تسقط عنه النفقة إلى زوجته[4].

2 ـ **النفقة بسبب القرابة**: تعني القرابة: الأب والأم والجد والجدة وان علوا، والفروع كالابن والبنت وأولادهما وان نزلوا، وكذلك الاخ والاخت والعم والعمة والخال والخالة وما أشبه ذلك. إذا امتنع الانسان عن الانفاق على أحدهم، مع يساره، فإنه يحبس، ولو كان أباً، لحمله على الانفاق لحفظ حياة الانسان، وهذا موضع إتفاق بين الفقهاء[5].

---

(1) رواه أحمد بن حنبل ومسلم والدارقطني باسناد صحيح عن **نيل الاوطار 6/ 321 وما بعدها، وقارن بالفقه الاسلامي** وأدلته 7/ 765.

(2) سورة البقرة الآية 232.

(3) **معجم الفقه الحنبلي 2/** 972 وقارن **بالمغني 9/** 245، **والفقه الاسلامي وأدلته 7/** 811 نقلاً عن **بدائع الصنائع 4/** 38. وقارن **بالاختيار لتعليل المختار** المجلد الأول، الجزء الثاني ص 90 **وفقه الامام جعفر 5/** 323، **والروض النضير 4/** 159.

(4) **الفقه الاسلامي وأدلته 7/** 795 وما بعدها.

(5) **معين الحكام** ص 192 ـ **الروض النضير 4/** 160 ـ **الفقه الاسلامي وأدلته 7/** 783.

3 ـ الحبس في مسائل أخرى متفرقة: هناك مسائل فرعية متفرقة رأى الفقهاء وجوب عقوبة الحبس على فاعلها منها:

أ ـ الوصي على اليتيم، إذا تصرف بمال اليتيم بما يلحق الضرر بماله، فإنه يحبس ويضيق عليه[1].

ب ـ ومن اؤتمن على أمانة فذهب بها فإنه يحبس[2].

ج ـ الغاصب الذي يعتدي على أموال الناس وأملاكهم عن طريق الغصب فإنه يحبس ويضيق عليه، ويضرب زجراً له ولامثاله على حسب اجتهاد الحاكم[3].

د ـ من عرف عنه أكل الربا فإنه يعزر ويحبس حتى يتوب[4].

هـ ـ من امتنع عن أداء الزكاة أخذت منه جبراً عنه، فإن غيّب ماله عوقب بالحبس حتى يؤدي ما عليه[5].

و ـ من أقر بشيء في ذمته وامتنع من تعيينه فإنه يحبس حتى يعيّنه[6].

ز ـ من أنكر الوديعة وقامت البيّنة عليه فإنه يحبس ويضرب ويضيق عليه استبراء لأمره[7].

ح ـ من امتنع من تسليم رهن عنده إلى صاحبه فإنه يجبر على تسليمه، فإن امتنع حبس حتى يؤديه[8].

ط ـ من احتكر الطعام، وكان ذلك مضراً بالسوق: يباع عليهم، فيكون لهم رأس أموالهم، والربح يؤخذ منهم يتصدق به أدباً لهم، وينهون عن ذلك،

---

(1) أبو الوفا المالكي ـ تبصرة الحكام 2/ 156 ـ النهاية ص 353 ـ فقه الامام جعفر الصادق 6/ 346.

(2) النهاية ص 353 فقه الامام جعفر 6/ 346.

(3) تبصرة الحكام 2/ 119 ـ النهاية ص 353 ـ قوانين الاحكام الشرعية ص 358 ـ 359.

(4) حاشية ابن عابدين 3/ 187 نقلاً عن التعزير ص 367.

(5) تبصرة الحكام 2/ 136.

(6) معين الحكام 194.

(7) تبصرة الحكام 2/ 150.

(8) تبصرة الحكام 2/ 145.

فإن عادوا كان الضرب، والطواف (التشهير)، والسجن لهم[1].

ثالثاً ـ الحبس في قضايا اجتماعية

أ ـ علاقة الرجل بالمرأة

من المعروف عند الفقهاء «أن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة يجب أن تكون قائمة على أساس صحيح، وهو الزواج الشرعي، وكل علاقة تقوم على غير هذا الاساس فهي محرمة تحريماً قاطعاً، وتعتبر من قبيل الزنا، فإذا ثبت ذلك على شخص فقد أوجب الاسلام إقامة الحد الشرعي عليه، فإذا كان الزاني متزوجاً فإنه يرجم حتى الموت، واما إذا كان عزباً، فإنه يجلد مئة جلدة، ويضاف إلى هذه العقوبة أيضاً تغريب سنة، وقد فسر الفقهاء التغريب بحبسه في البلد الذي ينفى اليه. وأما بالنسبة إلى الزانية فإنه لا يحكم عليها بالتغريب[2].

وكذلك من خدع النساء والبنات وأخرجهن من بيوتهن وأفسدهن على أزواجهن أو آبائهن، فإنه يحبس حتى يرجع عن خدعهن أو يموت في السجن، وعللوا ذلك بأن هذا الجاني يعتبر ساعياً في الأرض بالفساد[3].

ب ـ المجون والدعارة

المراد بالمجون، عدم مبالاة الانسان بما صنع، وبالدعارة، الفجور والفسوق[4]. فكلاهما محرم في الاسلام، فكل من تعاطى شيئاً من هذا القبيل فإنه يعزر بالحبس، مثل المسلم الذي يبيع الخمر، واما المسلم الذي يشرب الخمر في شهر رمضان، فإنه يُحَدُّ لشربه ثمانين جلدة، ويحبس ويعزر[5]. ومن هذا القبيل كان حبس أبي محجن الثقفي الذي سنتحدث عنه فيما بعد.

---

(1) القاسمي ـ نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي 2/ 606 ـ 607.

(2) تبصرة الحكام 2/ 176 ـ الفقه الاسلامي وأدلته 6/ 39 ـ الأحكام السلطانية للفراء 263 ـ قوانين الأحكام الشرعية ص 384.

(3) التعزير في الشريعة الاسلامية ص 374 نقلاً عن فصول الاستروشني في التعزير ص 73 ـ 74 ـ وقارن تبصرة الحكام 2/ 120.

(4) لسان العرب 13/ 400 ـ معم لغة الفقهاء ص 206.

(5) التعزير في الشريعة الاسلامية ص 367.

والمغني والمخنث (الذي يتشبه بالنساء)، والنائحة، يحبسون حتى يتوبوا. وكذلك الدعّار، وهم الذين يقصدون إتلاف أموال الناس فإنهم يحبسون حتى يتوبوا[1].

وكان من جملة أسباب حبس الشاعر الأحوص أنه كان مخنثاً غزلاً، نسب بنساء ذوات أخطار من أهل المدينة[2].

وأما من يعرف بالفساد والجرم فإنهم يحبسون ويثقلون بالحديد، ولا يخرجون منه أبداً حتى تظهر توبة أحدهم[3]. لذلك لما شهر القتال الكلابي في شعره بابنة عمه «عالية» إشتكى أهلها إلى السلطان فأودعه السجن، وهذا ما سنوضحه فيما بعد.

ومن تعاطى اللواط فإنه يعزر أشد التعزير، ويحبس حتى يتوب أو يموت[4]. والذي يجمع أهل الفساد والشر فإنه يحبس حتى تظهر توبته[5].

رابعاً ـ الاعتداء وما يتعلق به

مما لا شك فيه أن الاعتداء بجميع أشكاله قد تضافرت النصوص الدينية على تحريمه، فقد جاء في القرآن الكريم: **﴿ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين﴾** (سورة البقرة/ 190/). وجاء في الحديث عن الرسول ﷺ: «أن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا»[6].

والمراد من هذا الحديث تحريم الاعتداء على النفوس والأموال والأعراض، وقد حدد الاسلام بعض العقوبات على كثير من أنواع الاعتداء كالقتل والسرقة والزنا والقذف، فهذه الجرائم لها عقوبات محددة بالنصوص

---

(1) **التعزير في الشريعة الاسلامية** ص 375 ـ الخراج لابي يوسف ص 149 وقارن **بالروض النضير** 4/ 160.

(2) **الأغاني** 40/ 224.

(3) أبو الوفا المالكي ـ **تبصرة الحكام** 2/ 121.

(4) **التعزير** ص 373.

(5) **تبصرة الحكام** 2/ 113.

(6) **طبقات ابن سعد** 2/ 184.

الدينية، إلا أن هناك أنواعاً من الاعتداء لم يحدد لها الاسلام عقوبة معينة ليأتي دور الفقهاء في تحديد عقوبة لها وذلك من باب التعزير. فمن ذلك:

أ ـ العائن وهو من فيه خاصية اصابة الناس «أذاهم» بعينه، وقد ذكر كثير من الفقهاء أنه يجب على الامام أن يحبسه، وذلك حسب مقدار الضرر الذي يصاب المعين، ويعود تقدير ذلك إلى الامام[1].

ب ـ القاذف والمراد به هنا، من يقذف غيره وهو لا يقصد بقذفه الزنا، فمن قال لانسان «يا ابن الخبيثة»، وهو يقصد بذلك الخبث في الفعل والخلق بعد أن يحلف انه لم يقصد بذلك الزنا فإنه ينكل نكالاً موجعاً، وفي حال امتناعه عن اليمين فإنه يحبس أيضاً، ومدة حبسه ترجع إلى تقدير الحاكم[2].

ج ـ ومن تعاطى مهنة الطب وهو غير عارف بها فإن كثيراً من الفقهاء قد ذهبوا إلى حبسه وتأديبه بالضرب إلا إذا أدى تعاطيه إلى إزهاق روح المريض أو تعطيل عضو من أعضائه وعندها يقام عليه الحد الشرعي[3].

د ـ ومن سقى أرضه من نهر مملوك ملكية خاصة دون إذن صاحبه، وتكرر منه ذلك، فإن للامام أن يؤدبه بالضرب والحبس[4]. وانني أرى أن المقصود هنا بهذا النهر أنه القناة التي أنفق صاحبها على حفرها ليروي أرضه وذلك بمدها من نهر عام.

هـ ـ ومن أكره رجلاً على بيع متاعه دون حق فإن جزاءه الحبس أو الضرب، وذلك لأنه اعتداء على أموال الناس[5].

و ـ ومن تكلم بحق من له الولاية، لغير موجب لذلك، فإنه يسجن شهراً ويعاقب، عقاباً شديداً. وكذلك من شتم إنساناً أو سبه فإن للقاضي أن يعزره بالحبس، والخصمان إذا تشاتما بين يدي القاضي فنهاهما فلم ينتهيا، فإن له أن يحبسهما وذلك لأنهما أخلاّ بحرمة مجلس القضاء، حتى لا يجترئ

---

(1) معجم لغة الفقهاء ص 299 ـ كشاف القناع 4/ 75 قارن بالتعزير ص 368.

(2) أبو الوفا المالكي ـ تبصرة الحكام 2/ 181.

(3) قوانين الاحكام الشرعية ص 365 لم يذكر في ذلك خلافاً.

(4) التعزير ص 367 نقلاً عن فصول الاستروشني ص 91.

(5) تبصرة الحكام 2/ 126.

على ذلك غيرهما[1].

ز ـ وقاطع الطريق إذا لم يقتل أو يأخذ مالاً، فإن للامام أن يأمر بنفي القاطع، وذلك من باب التعزير، وهناك في المنفى يمكث في السجن حتى تتأكد توبته. وفي حال القتل أو أخذ المال فإنه يقام عليه الحد الشرعي المقرر، وهو القتل والصلب وقطع اليد[2].

ج ـ وشاهد الزور، حدّ له الفقهاء عقوبات متعددة وهي: الحبس، والضرب، والطواف به في المجالس، وتسويد وجهه وعدم قبول شهادته أبداً لأنه لا تعرف توبته، ومنهم من حدد مدة حبسه بسنة[3].

من هذا كله يظهر لنا، أن الاسلام يحرص كل الحرص على حماية الفرد، عن طريق حمايته لجميع مقوماته المادية والأدبية: فيحمي نفسه أي حياته، ويحمي عرضه الممثل لكرامته، ويحمي ما تعتمد عليه حياته وهو ما له وما يملكه، ويحمي الاساس الأول لعرضه وهو نسبه أي منبته وانتماؤه إلى آبائه وأسرته، وتبدو حمايته لما ذكرناه في العقوبات القضائية الشديدة التي يوقعها على من يخالف الاحكام الشرعية ومن تلك العقوبات الحبس.

ولكن المهم فيما يستوعبه الفرد من مفهوم الاحكام من شريعته، والاهم فيما يطبقه من تلك الاحكام.

---

(1) عبد العزيز عامر ـ **التعزير** ص 367 ـ 368.

(2) ابن القيم الجوزية ـ **الطرق الحكمية** ص 120 ـ روزنتال ـ **مفهوم الحرية في الاسلام** ص 45 محمد بن أحمد المالكي ـ قوانين الاحكام الشرعية ص 392. وقد ذكر خلاف أبي حنيفة للأئمة في النفي مع موافقته لهم على الحبس، فعنده يحبس في بلده حتى تظهر توبته.

(3) محمد بن أحمد المالكي ـ **قوانين الاحكام الشرعية** ص 337 ـ عبد العزيز عامر ـ **التعزير** 368.

الفصل الثالث

دراسة عامة عن أوضاع السجون

بعدَ أن تأكدنا من وجود السجون عند العرب، وتعرفنا مدى تطورها عبر اللمحة التاريخية التي عرضناها، وبعد أن تحدثنا عن آراء الفقهاء المسلمين في المخالفات التي تؤدي بصاحبها إلى السجن، يجدر بنا تعرف واقع السجون في تلك الحقبة الزمنية، أسمائها وأماكن وجودها، والاسباب التي تؤدي إلى السجن، وطريقة معاملة السجناء، ومدة العقوبة، وكيفية الخروج من السجن.

1 ـ أسماء السجون وأماكن وجودها

بالنسبة إلى أسماء السجون وأماكن وجودها نذكر ما يلي:

نافع: سجن كان بالكوفة غير مستوثق البناء، فكان المحبوسون يهربون منه، فهدمه «علي بن أبي طالب»، وقيل كان من قصب، ونقب وأفلت منه المحبسون[1].

المخيّس: هو سجن كان بالعراق وبه سمي سجن الحجاج، وقيل: هو سجن معروف بالكوفة بناه «علي بن أبي طالب» من المدر بعد هدم نافع، وفي ذلك يقول:

ألا تراني كيّساً مكيّساً   بنيت بعد نافع مخيّسا
بابا كبيراً وأميناً كيّسا[2]

عارم: ورد ذكره في تاريخ الطبري: وإنما سمّي سجن عارم لعبد كان يقال له: زيد عارم، فسمّي السجن باسمه، وقيل هو حبس موحش، مظلم،

---

(1) ابن سيدة ـ **المخصص** ـ المجلد الثالث 12/ 93 ـ ابن منظور ـ **لسان العرب** 6/ 74.

(2) **تاريخ الطبري** 5/ 347 ـ المسعودي ـ **مروج الذهب** 3/ 76 ـ روزنتال ـ **الحاشية** 169 ياقوت الحموي ـ **معجم البلدان** 4/ 66 ـ ابن منظور ـ **اللسان** 12/ 397.

يبدو أنه كان بالطائف، وجاء في لسان العرب: «قال ابن برى: وعارم سجن، قال كثير:

تُحَدِّثُ من لاقَيْتَ أنَّكَ عائِذٌ   بل العائذُ المظلومُ في سجن عارِمِ

الديماس: سجن الحجاج بن يوسف، سمي به على التشبيه، وسمي بذلك لظلمته، وقيل هو السّرب المظلم، ومنه يقال: دمسته أي قبرته، ويبدو أن هناك اختلافاً في وصفه إذ ورد أن الديماس لم يكن له ظل من الشمس ولا كنّ من البرد، وكان فيه كل اثنين من المساجين في سلسلة[1].

الخضراء: ورد في تاريخ الطبري: أمر الخليفة «يزيد» بحبس «يوسف بن عمر» فحبس في الخضراء. وجاء في مكان آخر: «. . . والتخلية عن ابني «الوليد» وهما في سجن دمشق محبوسان وفي مكان ثالث: «. . . فقال بعضهم لبعض: إن بقي الغلامان ابنا الوليد حتى يقدم مروان ويخرجهما من الحبس، ويصير الأمر إليهما لم يستبقيا أحداً من قتلة أبيهما، والرأي أن نقتلهما، فَوَلَّوْا ذلك يزيد بن خالد ومعهما في الحبس أبو محمد السفياني ويوسف بن عمر، فدخل السجن، فشدخ الغلامين بالعُمد، وأخرج يوسف بن عمر، وضربت عنقه. وأرادوا قتل أبي محمد السفياني، فدخل بيتاً من بيوت السجن فأغلقه، وألقى خلفه الفرش والوسائد، واعتمد على الباب فلم يقدروا على فتحه».

ويقول فلهوزن: «اما أبو محمد السفياني فأخذ إلى الخضراء، سجن دمشق، وفيه حبس أيضاً ابنا الوليد بن يزيد وآخرون من السفيانيين[2].

وعليه، فإن سجن الخضراء كان في دمشق وانه كان يتألف من عدة بيوت لكل منها أبواب داخلية، وكان يسمح بادخال الفرش والوسائد إليه.

الثوية: موضع قريب من الكوفة، وقيل خريبة إلى جانب الحيرة، على

---

(1) ابن منظور ـ **لسان العرب** 6/ 88 ـ ابن سعد ـ **الطبقات الكبرى** 6/ 285 ـ التنوخي **الفرج بعد الشدة** 1/ 260 ـ **الحاشية** 2 ـ المسعودي ـ **مروج الذهب** 3/ 166 ـ **معجم البلدان** 2/ 544.

(2) **تاريخ الطبري** 7/ 275 و301 و302 ـ ڤلهوزن ـ **تاريخ الدولة العربية** ص 351.

ساعة منها، ذكر العلماء أنها كانت سجناً للنعمان بن المنذر، كان يحبس بها من أراد قتله[1].

حران: هي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان على طريق الموصل والشام، لما قدم مروان بن محمد الرقة كان معه سعيد بن هشام وابنيه عثمان ومروان، وهم في وثاقهم، أرسلهم وسجنهم في خران ومعهم ابراهيم الامام وغيره. فهلك في سجن حران قسم منهم في وباء يقال: الطاعون ومنهم ابراهيم الامام. فقال سديف بن ميمون يرثيه:

قد كنتُ أحسِبُنِي جَلْداً فَضَعْضَعَنِي   قبرٌ بِحَرّانَ فيهِ عِصْمَةُ الدّينِ
فيه الامامُ وخيرُ الناسِ كلُّهمُ   بين الصفائحِ والاحجارِ والطينِ

وينسب الطبري هذه الأبيات إلى ابراهيم بن علي بن سلمة[2].

دهلك: أراد عمر بن عبد العزيز إرسال يزيد بن المهلب إلى دهلك لأنه امتنع عن دفع الاموال المترتبة عليه، وهي جزيرة في بحر عيذاب بالقرب من سواكن، كان الخلفاء يحبسون بها من نقموا عليه. ويقال هي جزيرة في بحر اليمن، وهو مرسى بين بلاد اليمن والحبشة، كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه اليها. قال أبو المقدام عن حبيبته:

ولو أصْبَحَتْ خَلفَ الثّرَيّا لَزُرْتُها   بنفسي، ولو كانت بدهلَك دورُها[3]

دوّار: سجن باليمامة، كان ابراهيم بن عربي والي اليمامة، لعبد الملك بن مروان، فحبس أحد اللصوص واسمه «جحدر» في سجن دوار، فقال جحدر في سجنه:

كانت منازلنا التي كنّا بها   شتّى، وألّف بيننا دوّارُ
سجن يلاقي أهله من خوفه   أزلاً، ويمنَع منهم الزوّارُ[4]

---

(1) ياقوت الحموي ـ معجم البلدان 2/ 87.

(2) ياقوت الحموي ـ معجم البلدان 2/ 235 ـ تاريخ الطبري 7/ 436 وما بعدها.

(3) وفيات الأعيان 6/ 300 ـ معجم البلدان 2/ 492.

(4) المبرد ـ رغبة الأمل من كتاب الكامل ـ جـ 1/ 2/ 171 ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان 2/ 478.

هذه بعض أهم السجون التي ورد ذكرها في سياق العرض الذي قدمناه عن تطور السجون منذ العصر الجاهلي وحتى نهاية العصر الأموي.

2 ـ سجون النساء

كانت سجون النساء معروفة منذ أمد بعيد، ومنذ عهد الرسول ﷺ، بالذات، إذ ورد في كتب السيرة من خبر اسلام «عدى بن حاتم» وفراره إلى الشام، حين سمع بجيش الرسول وطئ بلادهم، فخرج يتبعه خيل الرسول، فأصابت بنت حاتم ممن أصابه، فقدم بها في سبايا طيء، وقد بلغ الرسول انه هرب إلى الشام، فجعلت بنت حاتم في حصيرة بباب المسجد وكانت النساء تحتبس فيها[1].

ويقال انِ معاوية، بعد أن استتبت له الأمور، تتبع من كان من أنصار علي، ففر منه، «عمر بن الحمق الخزاعي»، فاعتقل امرأته، وحبسها في سجن بدمشق، وهي آمنة بنت الشريد بن سويد الثقفية، إحدى النساء الشهيرات اللواتي أوتين حظاً من البلاغة، وممن كان لها مع معاوية شأن، بقيت في السجن سنتين، ولما قتل زوجها أرسل معاوية رأسه إلى زوجته في السجن[2].

وكتب الخليفة هشام إلى كلثوم بن عياض، وكان يومئذٍ على دمشق، يأمره أن يحبس آل خالد بن عبد الله القسري، الصغير منهم والكبير، ومواليهم والنساء فحبسهم، وحبس ام جرير بنت خالد والرائقة وجميع النساء والصبيان. ولما عاد خالد، قال: خرجت غازياً في سبيل الله. . . وأخذ حرمي وحرم أهل بيتي، فحبسوا مع أهل الجرائم[3].

وخرج عبيد الله بن الحر إلى المدائن فلم يدع مالاً قدّم من الجبل للسلطان إلا أخذه وكان ذلك سنة 68 هـ، فأمر «المختار» بامرأة «عبيد الله» ام سلمة الجعفية، فحبست، فلما بلغ ذلك «عبيد الله» أقبل في فتيانه حتى دخل

---

(1) الكتاني ـ التراتيب الادارية 1/ 300.

(2) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة 3/ 364 ـ وكيع ـ أخبار القضاة 1/ 27 ـ أحمد بن طيغور بلاغات النساء ص 87 ـ الشابشتي ـ الديارات ص 179 ـ روزنتال ـ مفهوم الحرية ـ الحاشية 173 ص 128.

(3) تاريخ الطبري 7/ 255 وما بعدها.

الكوفة ليلاً، فكسر باب السجن، وأخرج امرأته وكل امرأة ورجل كان فيه، وقال حين أخرج امرأته من السجن:

. . . .

وأنّي صَبَحْتُ السّجنَ في سوْرة الضُّحى   بكلِّ فَتىً حامي الذِّمار مُدَجَّجِ[1]

ويقول المسعودي: مات في حبس الحجاج ثلاثون ألف امرأة، وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد[2].

يتبين لنا مما تقدم أن سجون النساء كانت موجودة وفي أماكن مختلفة، دمشق، الكوفة، واسط الخ. . . وتطورت أوضاعها من حصيرة على باب المسجد إلى بناء خاص، إنما هل كان ذاك البناء خاصاً بالنساء، أم كان جناح منه للنساء وآخر للرجال، أو كانت النساء والرجال في مكان واحد؟

3 ـ طريقة معاملة السجناء

يقول روزنتال: «وكان مما يؤكد عليه دائماً ضرورة إتاحة الفرصة للسجناء لأداء الصلاة وتعود بنا إحدى الطرائف المتعلقة بمسجد السجن، إلى القرن الثالث الهجري، والتي تروى عن «البوطي» تلميذ الشافعي، فقد كان يعمد كل يوم جمعة، طوال مدة إقامته في السجن، فيستحم ويتعطر وينظف ثيابه، ثم عندما يسمع النداء للصلاة، كان يتقدم من بوابة السجن، بقصد الخروج لاداء الصلاة، وهناك كان الحارس يطلب اليه العودة من حيث أتى، فيتأوه قائلاً: اللهم اني أجبت داعيك فمنعوني. ويتابع قائلاً: وعلى كل حال فقد كانت فكرة السجن كريهة وشديدة الوقع على أكثر المسلمين، رغم كون المعاملة في السجون لطيفة أحياناً، وربما فضّل أحدهم الانتحار على الذهاب إلى السجن»[3].

وذكر «أبو يوسف»: . . . كتب إلينا «عمر بن عبد العزيز» لا تدعنّ في

---

(1) **تاريخ الطبري** 6/ 128 وما بعدها. ابن الأثير ـ **الكامل في التاريخ** 4/ 289 ـ حسين عطوان ـ **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ص 182.

(2) المسعودي ـ **مروج الذهب** 3/ 166.

(3) روزنتال، **مفهوم الحرية في الاسلام** ـ ص 62 وما بعدها.

سجونكم أحداً من المسلمين في وثاق لا يستطيع أن يصلّي قائماً، ولا تبيّتن في قيد إلا رجلاً مطلوباً بدم، واجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم في طعامهم، وأدمهم»[1].

وذكر أبو يوسف أيضاً: لم تزل الخلفاء تجري على أهل السجون، ما يقوتهم في طعامهم وأدمهم، وكسوتهم الشتاء والصيف، وأول من فعل ذلك علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بالعراق، ثم فعله معاوية بالشام، ثم فعل ذلك الخلفاء من بعده»[2].

ويقول الطبري: «حينما أراد جماعة الخليفة الأموي المخلوع (إبراهيم بن الوليد) قتل أبي محمد السفياني وهو محبوس في سجن الخضراء في دمشق، دخل السفياني بيتاً من بيوت السجن فأغلقه، وألقى خلفه الفرش والوسائد، واعتمد على الباب، فلم يقدروا على فتحه»[3].

نستدل من ذلك على أن الفرش والوسائد كانت متوفّرة للمساجين داخل السجن، ويبدو أنها كانت بكثرة مما أتاح للسفياني الاستعانة بها لرد المهاجمين. وذكر أيضاً أن «يوسف بن عمر» قتل «خالد بن عبد الله القسري» في السجن تحت العذاب، ثم عزله الخليفة «يزيد بن الوليد» في أواخر سنة 126 هـ وقبض عليه وحبسه في دمشق، إلى أن أرسل اليه «يزيد بن خالد القسري» من قتله في السجن بثأر أبيه[4].

وهذه الحادثة تدل على أن الأمير الجديد «يوسف» يقبض على الأمير السابق «خالد» ويسومه أنواع العذاب في السجن حتى يقضي عليه. ثم يأتي دور الأمير يوسف ويقبض عليه، ويرسل ابن المغدور اليه، من يقتله في السجن ثأراً لأبيه، وهذا يعني أن السجين لم يكن بمأمن من الاعداء وان العذاب ليس له حدود.

---

(1) أبو يوسف ـ كتاب الخراج ـ ص 150.
(2) أبو يوسف ـ الخراج ص 149.
(3) أبو يوسف الخراج ص 149.
(4) تاريخ الطبري ـ 7/ 302.

وذكر أيضاً أن «الحجاج» حبس «ابراهيم التيمي الزاهد» ومنع عنه الطعام، ثم أرسل عليه الكلاب تنهشه حتى مات[1].

هذه لمحة عن حالة السجون وأوضاع المساجين فيها، فما هي الأسباب التي كانت تؤدي بصاحبها إلى السجن؟

4 ـ الاسباب الموجبة للسجن

لم يسجل التاريخ وجود مجتمع خال تماماً من الانحراف، فالجريمة وانواع أخرى من أنماط السلوك المنحرف قديمة قدم المجتمع البشري، لذلك كانت العقوبة ضرورة للحد من انتشار الجرائم، ولتقويم السلوك الفردي، وكان السجن ضرباً من ضروب التعزير، إلا أننا نلاحظ أنه قد تحول إلى وسيلة للقمع في المجتمع الاموي، لها صفة الديمومة والشمول، وذلك بسبب الصراع السياسي للوصول إلى سدة الخلافة أو للحصول على مرتبة الامارة، تاركين وراء ظهورهم المبادئ الشرعية الاسلامية، ونصب أعينهم المصالح الذاتية الدنيوية، وهذه أمثلة على ذلك.

بسبب التنازع على السلطة بين «الوليد بن يزيد بن عبد الملك» وبين بني عميّه (هشام والوليد) ابني «عبد الملك» اشتد «الوليد» على بني «هشام»[2].

لما استوثق الأمر «ليزيد بن الوليد» استعمل «حريث بن أبي الجهم» على «واسط» وكان عليها «محمد بن نباتة»، فطرقه ليلاً فحبسه وأوثقه وقبض على الأمير «يوسف بن عمر» فحبس في السجن ولاية «يزيد» كلها وشهرين وعشرة أيام من ولاية ابراهيم[3].

وتوبة العنبري، من رجال الحديث، ولاّه يوسف بن عمر، سابور، ثم الاهواز، ثم نقم عليه «يوسف» وحبسه، قال توبة: أكرهني «يوسف» على

---

(1) **الزركلي** ـ الاعلام ـ 8/ 243.

(2) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة، 1/ 260 ـ الحاشية 3 عن اللباب 1/ 190.

(3) **الطبري** 7/ 231 وما بعدها. وقارن مع **الكامل في التاريخ** 5/ 268 وراجع ما ذكرناه ص 49. هذا في الأصل

(4) **الطبري** 7/ 270 وما بعدها. **الكامل في التاريخ** 5/ 297.

العمل، فلما رجعت حبسني حتى لم يبق في رأسي شعرة سوداء[1].

وعياض بن سالم، كاتب الوليد بن يزيد، حبسه «هشام» وضربه، ولم يزل محبوساً حتى مات هشام وأصبح «الوليد» خليفة، فخرج «عياض» لوقته من السجن[2].

وزيد بن علي بن الحسين، أشخص إلى الشام، فآذاه «هشام» وحبسه، ثم أطلقه فعاد إلى العراق[3].

وحبس نصر بن سيار، العامل الاموي، يحيى بن زيد بن علي، وقيده وجعله في سلسلة ولما أطلق وفك حديده، صار جماعة من مياسير الشيعة إلى الحداد الذي فك قيده من رجله واشتروه قطعة قطعة فاتخذوا منها فصوصاً للخواتيم يتبركون بها[4].

وبلغ «الحجاج» أن «الغضبان» قال لابن الاشعث: «تغدّ بالحجاج قبل أن يتعشى بك». وحين قدم الغضبان، أمر الحجاج، فذهبوا به إلى السجن وقيّدوه وسجن، فمكث ما شاء الله[5].

ومصعب بن الزبير قبض على «عبيد الله بن الحر» وحبسه فقال وهو في السجن:

مـن مُـبْـلِـغُ الـفِـتْـيَـانِ أنَّ أخَـاهُـمُ ... أتَـى دونَـهُ بـابٌ شـديـدٌ وحـاجِـبُـه[6]

وذكر ان عبد الله بن الزبير رفض مبايعة «يزيد»، فلحق بمكة، وأرسل عامل المدينة جيشاً مع «عمرو بن الزبير» أخي عبد الله، وكان شديد العداوة لاخيه، لقتاله، فانتصر عبد الله، وأمسك أخاه عمروا وحبسه حتى مات في حبسه[7].

---

(1) التنوخي ـ **الفرج بعد الشدة** 2/ 328 ـ الزركلي ـ **الاعلام** 2/ 90.

(2) التنوخي ـ **الفرج بعد الشدة** 2/ 403.

(3) الزركلي ـ **الاعلام** 3/ 98 ـ **الفرج بعد الشدة** 2/ 336 الحاشية.

(4) الاصبهاني ـ **مقاتل الطالبيين** ص 154.

(5) الابشهي ـ **المستطرف** 1/ 49.

(6) **الطبري** 6/ 130.

(7) أبو الفداء ـ **المختصر في أخبار البشر** 1/ 189.

وفي أواخر عصر بني أمية، نشط دعاة العباسيين، فكانوا يجوبون الامصار متظاهرين بالتجارة، فقبض على بعضهم وأودعوا سجن الكوفة[1].

يتبين لنا من النماذج التي أوردناها أن السجن كان أداة القمع الرئيسية للاسباب السياسية بمختلف ألوانها.

فالخليفة «الوليد» يحبس بني عميه (هشام والوليد) بسبب التنازع على الخلافة، وبسبب التنازع على الامارة، ورغبة في ابتزاز الأموال يودع الأمير الجديد، الأمير السابق السجن ويطيل حبسه وتعذيبه، كالذي حصل مع حريث وابن نباتة ويوسف بن عمر، ويقبض «الحجاج» على «الغضبان» لأنه يحذر ابن الأشعث منه.

وحتى الكاتب يدفع ثمن انتمائه السياسي فيودع السجن كالذي حصل مع عياض كاتب الوليد.

وقد كان للعلويين نصيب وافر في سجون بني أمية لأنهم ناصبوهم العداء، وهذا ما تعرّض له زيد بن علي» و«يحيى بن زيد» وهم من زعماء العلويين.

وللخوارج نصيب أيضاً في تلك السجون، إنما بقدر محدود، ويكفي أن نشير إلى سجن عبيد الله ابن الحر من قبل مصعب بن الزبير.

وحرمة الاخوة لم تكن كافية لتكون حائلاً بينها وبين السجن، إذ أن عبد الله بن الزبير يودع أخاه عمروا غياهب السجن لأنه يناصبه العداء السياسي. وهذا يدل أيضاً على أن الزبيريين شأنهم في ذلك شأن الأمويين يستعملون السجون أداة قمع لخصومهم السياسيين.

ويتبين لنا أيضاً أن مدة العقوبة في السجن لم تكن محدودة، فتوبة العنبري، دخل السجن ولم يزل حتى لم يبق في رأسه شعرة سوداء، والغضبان بقي إلى ما شاء الله، وهكذا.

وهنا قد يتبادر إلى الأذهان سؤال: هل كانت السجون أداة تعزيز للاسباب السياسية فحسب، أم كانت وسيلة تعزيز لاسباب اجتماعية أيضاً.

---

(1) الطبري 7/ 198 وقارن مع المكافأة ص 146 الحاشية 2 .والبدء والتاريخ 6/ 66.

يبدو أن الخليفة وأمير المصر وعامل الناحية، كانوا يأمرون بسجن الجناة والمتهمين. أما القضاة فيختلف شأنهم مع المساجين، والقاضي النموذجي كان يؤدي واجبه بأمانة تامة فلا يرسل بانسان إلى السجن إلا عندما يبدو واضحاً أن الدوافع تتطلب ذلك حقاً. وعندما يصل إلى قرار ما لم يكن القاضي يغير منه أي اعتبار مهما عظم. فعندما أدان القاضي «شريح» رجلاً، تربطه به صلة القربى، بسبب دين عليه، أثار ذلك استنكار المتهم وحيرته، فأوضح له «شريح» قائلاً: أنا لم أحبسك، ولكن الحق حبسك. وحينما طلب منه الأمير عبد الله بن زياد إخراج رجل من السجن، قال له «شريح»: أيها الأمير، السجن سجنك، والعامل على السجن عاملك، وتأمر فتطاع. وأبى «شريح» أن يخرجه هو[1].

وورد أن «عاصم الهلالي» بقي والياً على خراسان حوالي سبعة أشهر، ثم عزل وحضر مكانه «أسد القسري» الذي قبض على عاصم وحبسه، وسأله عمّا أنفق، وحاسبه، فأخذه بمئة ألف درهم[2].

وقبض «يوسف بن عمر» أمير العراق، على «محمد بن غزّان» فضربه وسجنه وألزمه مالاً عظيماً يؤدي منه في كل جمعة نجماً، وان لم يفعل ضرب خمسة وعشرين سوطاً[3].

وطلب «عمر بن عبد العزيز» من «يزيد بن المهلّب» دفع الاموال المترتبة عليه، والتي كان قد كتب بها إلى «سليمان بن عبد الملك» فحاول التنصل من ذلك، فأمر بحبسه[4].

وذكر أن «جحدر» كان يخيف السبيل، بأرض اليمن، وبلغ خبره «الحجاج» فأمر عامله باليمن فقبض عليه، وساقه إلى الحجاج الذي أمر

---

(1) وكيع - **أخبار القضاة** لوكيع، 2/ 296 و308.

(2) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** 5/ 188 - **الطبري** 7/ 104.

(3) **الطبري** 7/ 272.

(4) ابن خلكان - **وفيات الأعيان** 6/ 300 - الجهشياري - **الوزراء والكتاب** ص 50 - المسعودي - **التنبيه والاشراف** ص 277.

بحبسه، فحبس[1].

ورفع إلى الخليفة «عبد الملك بن مروان» اعرابي يقال له «حمزة» سرق وقامت عليه البيّنة، فأودع السجن، وهمّ «عبد الملك» بقطع يده، فكتب اليه حمزة من السجن:

يدى يا أمير المؤمنين أعيذها بعفوك أن تلقى مقاماً يشينها
فلا خير في الدنيا وكانت خبيثة إذا ما شمال فارقتها يمينها[2]

ويقول الاصبهاني:

شبّب ابن العرجي، الشاعر الأموي، بجيداء، أم محمد المخزومي، لا لمحبة كانت بينهما، ولكن ليفضح ابنها، فقبض عليه وأودع السجن وضرب حتى مات في الحبس[3].

قتل الشاعر «ابن الدمينة» «مزاحم بن عمرو» لأنه رمى بزوجته، فقبض عليه وأودع السجن وبعد أن خرج «ابن الدمينة» من السجن، قتله «مصعب» أخذاً بثأر أخيه «مزاحم» وذلك سنة 130 هـ، ثم سلّم نفسه للسلطة وأودع السجن. وفي السجن بلغ «مصعب» أن قوم «ابن الدمينة» يريدون أن يقتحموا عليه السجن فيقتلوه. فقال:

إذا نَبَحَتْ كلابُ السّجن حَوْلي طَمِعْتُ هَشَاشَةً وهَفَا فؤادِي
طماعاً أن يَدُقَّ السجنَ قَوْمِي وخوفاً أن تُبَيِّتَنِي الأعَادِي[4]

ونفى «عمر بن عبد العزيز» الشاعر «الاحوص» إلى جزيرة «دهلك» لفرط تشبيبه بالنساء ذوات الاخطار من أهل المدينة[5].

وروى أنه ذكر لعمر بن عبد العزيز، مخنث بالمدينة أفسد نساءها،

---

(1) ياقوت ـ **معجم البلدان** 2/ 222.
(2) الابشهي ـ **المستطرف** 1/ 193.
(3) الاصبهاني ـ **الاغاني** 1/ 386.
(4) عبد الرحيم العباس ـ **معاهد التنصيص** ص 167 وما بعدها.
(5) نالينو ـ **تاريخ الآداب العربية** ـ ص 130.

فاستدعاه وامتحنه، فإذا هو جاهل لا يعرف من القرآن إلا اليسير جداً. فقال: ضعوه في الحبس، ووكّلوا به معلماً يعلّمه القرآن، ولا يخرج من السنجن حتى يحفظه[1].

يتبين لنا مما تقدم أن الرجل كان يسجن لمخالفات وتجاوزات اجتماعية، كأن لا يسدد الدين الذي عليه للناس، أو لدفع الاموال العامة التي يكون قد حصّلها من خلال وظيفته بطريقة غير مشروعة، أو لكونه قاطع طريق، أو سارق، أو مخنث، أو يشبب بالنساء، أو قاتلاً وما إلى ذلك...

وبما أن السجون كانت متوفرة في العصر الأموي والاسلامي والجاهلي، وكثيراً ما كانت تكتظ بالنزلاء لأسباب سياسية أو اجتماعية أو غيرها، وبما أنه لم يكن هناك فترة زمنية محددة للسجين، يمكنه الخروج عند انتهائها، فكيف كانت تتم عملية الخروج من السجن؟

5 ـ الخروج من السنجن

يبدو أن بعض الخلفاء والأمراء كانوا يتفقدون السجون للاطلاع على أحوال المساجين، وإطلاق سراح بعضهم ممن تكون قد انتهت مدة عقوبتهم[2] ولم تكن حالات العفو نادرة، وكانت تشمل السجناء السياسيين في ظروف كثيرة، وحالات عفو كهذه لم تكن تغفل أولئك الذين ارتكبوا جرائم خفيفة كما كانت تشمل أولئك الذين تسوء صحتهم من المدينين[3].

أما في ظروف الغليان والتمرد، فقد كانت السجون أهدافاً مفضلة للعامة تعبيراً عن سخطها على الأوضاع السائدة، فلقد كانت السجون تعتبر في كثير من الأحوال رموزاً للاضطهاد السياسي، وعندما كانت الجماهير تهاجم السجون وتقتحمها مطلقة سراح المسجونين، كان المقصود بالتحرير غالباً المسجونين السياسيين، لكن ما كان يحدث فعلاً، هو أن كل نزلاء السجون، في مثل هذه الحالات، كانوا يحررون من دون تفرقة[4].

---

(1) الاصبهاني ـ **الأغاني** 6/ 337 ـ **عمر بن أبي ربيعة** 1/ 126 (جبور).

(2) راجع ما ذكرناه عن عثمان بن عفان ص. 27.

(3) روزنتال ـ **مفهوم الحرية في الاسلام** ص 64.

(4) روزنتال ـ ص 64.

وان الاقامة الطويلة في السجن، يمكن أن تنتج رغبة عارمة في الحرية، كما يمكن أن تقود بعض الافراد إلى القيام بتصرفات يائسة، أما الفرار من السجن، فقد كان شائعاً ومنذ أوقات متقدمة، وهذا ما دفع عليّ بن أبي طالب، إلى هدم سجن «نافع» وبناء سجن «المخيّس» كما أسلفنا. ونورد في هذا المجال بعض حوادث الخروج من السجن.

بعد قتل «الوليد» وتسلم «يزيد» الخلافة، عيّن «منصور بن جمهور» أميراً على العراق، فهرب أميرها وعماله، ودخل منصور الكوفة، وأخذ بيوت الاموال، وأخرج العطاء والارزاق، وأطلق من في السجون من العمال وأهل الخراج[1].

وعلى أثر موت «يزيد بن معاوية» هرب «عبيد الله بن زياد» من العراق، ووثب الناس وكسر الخوارج باب السجن، وخرج منه المساجين[2].

قدم «الوليد بن عتبة» أميراً على الحجاز، وعزل «عمرو بن سعيد» وأخذ غلمانه ومواليه، فحبسهم. وخرج «عمرو» سائراً حتى نزل من المدينة على ليلتين، وبعث إلى غلمانه ومواليه، وهم نحو من ثلاثمائة رجل، لكل منهم جملاً وحقيبة، فكسروا باب السجن، ثم خرجوا إلى الابل وأقبلوا إلى «عمرو»[3].

وكان خالد بن عبد الله القسري، حبس «الكميت» الشاعر، فزارته امرأته في السجن فلبس ثيابها، وخرج ولم يعرف فقال:

خرجتُ خروج القِدْح قدحِ ابن مُقْبلِ على رغم آناف النوابح والمُشْلي
عليّ ثيابُ الغانيات وتحتها عزيمةُ امرءٍ أشبهتْ سَلّة النصل[4]

وذكر ان «المغيرة بن شعبة» تمكن من جماعة من الخوارج، فأودعهم سجن الكوفة، فلما مات المغيرة سنة ثمان وخمسين، خرجوا من السجن[5].

---

(1) الطبري 7/ 273.
(2) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ 4/ 167 ـ التنوخي ـ الفرج بعد الشدة 2/ 102.
(3) الطبري 5/ 478.
(4) ابن قتيبة ـ عيون الاخبار 1/ 81 ـ القدح: السهم قبل أن ينصّل ويراش.
(5) الطبري 5/ 309.

وكان «يزيد بن المهلّب» مسجوناً أيام «عمر بن عبد العزيز» ولم يزل في محبسه ذلك حتى بلغه مرض «عمر»، فأخذ يعد للهرب من محبسه، مخافة «يزيد بن عبد الملك» لأنه كان عذب اصهاره آل أبي عقيل... فلما ثقل المرض على «عمر» نزل يزيد من محبسه وهرب. فلما جاز كتب إلى عمر: اني والله لو علمت أنك تبقى ما خرجت من محبسي، ولكني لم آمن «يزيد بن عبد الملك»[1].

ولّى «هشام» خالد بن عبد الله القسري على العراق، فقبض على سلفه «عمر ابن هبيرة» وأودعه الحبس، فلما طال حبسه، جاء مواليه، واكْتَرَوْا داراً بجانب الحبس، ثم نقبوا منها سرباً (نفقاً) إلى الحبس واكْتَرَوْا داراً إلى جانب سور المَدينة، مدينة واسط، فلما جاءت الليلة التي أرادوا أن يخرجوه فيها من الحبس، وقد أفضى النقب إلى الحبس، أخرج في السرب... ثم إلى خارج المدينة، وقد هيأت له خيل، فركب وسار... وفي ذلك يقول الفرزدق:

لمّا رأيتُ الأرضَ قد سُدَّ ظهرُها ولم يك إلاّ بطنُها لك مَخْرَجَا

فأصبحتَ تحت الأرض قد سِرْتَ سيرةً وما سارَ سارٍ مثلها حيث أدلَجا[2]

وحينما تسلم الخلافة «سليمان بن عبد الملك» أطلق الأسرى وأخلى السجون، وأحسن إلى الناس[3].

مما تقدم يمكن القول، انه لم تكن هناك فترة محددة يتوجب على السجين قضاؤها ثم يطلق سراحه عند انتهائها. فربما كان محظوظاً ويخرج بعد فترة يسيرة، وربما كان تعساً سيء الحظ فيقضي فترة طويلة أو يموت في السجن، وفي النماذج التي أوردناها، رأينا أن العفو يمكن أن يكون سبباً للخروج من السجن، وذلك بمناسبة تولي خليفة أو أمير مركز السلطة. وربما يكون الخروج بمناسبة تفقد المسؤول للسجن والمساجين، وكذلك بمناسبة

---

(1) **الطبري** 6/ 564 وقارن مع **وفيات الاعيان** 6/ 300 - الجهشياري - **الوزراء والكتّاب** ص 50 - المسعودي - **التنبيه والاشراف** ص 277.

(2) المرصفي - **رغبة الآمل من كتاب الكامل** 6/ 231 وقارن مع التنوخي **الفرج بعد الشدة** 2/ 191 - الزركلي - **الاعلام** 5/ 68.

(3) ابن الأثير - **الكامل في التاريخ** 5/ 37.

الغليان والتمرد واقتحام العامة السجون وتحطيم أبوابها، وأحياناً تكون الثورة من داخل السجن، فينتصر المساجين على الحرس، ويلوذون بالفرار. وأحياناً تحصل عملية تمويه فيخرج السجين في ثياب امرأة بغفلة من الحرس، وأحياناً أخرى يهرب السجين إمّا بتسلق الجدران أو بحفر السراديب من خارج السجن إلى داخله.

إن عملية الهرب من السجن غالباً ما تكون محفوفة بالمخاطر، فصاحبها معرض للهلاك ومع ذلك نجده يقدم عليها توقاً للحرية وهرباً من الأسر والعذاب، وفي غياهب تلك السجون كانت فئة من الشعراء الذين عبروا تجربة السجن والتعذيب وعاشوا في ظل الارهاب والمطاردة والحصار، هؤلاء أغنوا الكتب الأدبية بنتاج أدبي يعكس ظاهرة القمع، ويسجل تجربة السجن والمعاناة والرعب والصمود، فمن هم هؤلاء؟ وما هو نتاجهم الأدبي؟

الباب الثاني

الشعراء المساجين وأدبهم(*)

تعرّض قسم من شعراء الجاهلية والاسلام لعقوبة السجن والأسر والصعلكة، وجاء على ألسن هؤلاء كثير من الشعر الرائع في وصف السجون، وتصوير أوضاعها، ومكارهها، وفي التعبير عما يخالج نفوسهم من أحاسيس وتأملات وصور، هذا الشعر متناثر هنا وهناك في ثنايا الكتب، وهناك شيء من النثر أيضاً، ومجمل هذا وذاك سميته أدب السجون.

فمن هم هؤلاء الشعراء؟ وأين سجنوا؟ وما هي الحصيلة الأدبية من تلك السجون؟

من جهة ثانية، فإن الشعراء «الصعاليك» يمكن اعتبارهم في عداد المساجين، ذلك أنهم من شذاذ العرب الذين خلعوا من قبائلهم، وأشهد الشيوخ العرب على أنفسهم بخلعهم إياهم، فأبعدوا وأفردوا وحرموا أهلهم وعشيرتهم.. «وأمسوا منفيين في سجن كبير»[1].

ليس بامكاننا في هذه الدراسة، أن نثبت كل النتاج الأدبي، لشعراء السجون، ومنهم الشعراء الصعاليك، نظراً لوفرته وغزارته، لذلك سنتوقف عند ترجمة المكثرين منهم والذين كان للسجن دور مميز في نتاجهم الشعري، أما المقلّون فسنكتفي بالاشارة اليهم وذكر البارز المشهور من شعرهم.

(*) أ ـ في عرض الشعراء المساجين اعتمدنا التسلسل الابجدي للاسماء.

(1) ف. أ. البستاني، **المجاني الحديثة**، ج. أ. بيروت 1960 ص 3، وقارن مع **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ـ يوسف خليف ص 90 وما بعدها.

الفصل الأول

في العصر الجاهلي

أ ـ أدب السجن

1 ـ البراء بن قيس

البراء بن قيس بن الحارث الملك، رئيس كندة يوم الكلاب الثاني (بين تميم ومذحج)، والكلاب اسم ماء بين الكوفة والبصرة ـ، وكان النصر فيه لتميم، فما زالوا في آثار مذحج ومن لفّها، يقتلون ويأسرون حتى تمكنت تميم من أسر عدد من رؤساء مذحج، ومنهم البراء بن قيس، أسره الاهتم (لقب) سنان بن. . . منقر. قال البرّاء في ذلك قصيدة من ستة عشر بيتاً من الشعر، ذكرها صاحب الأغاني، نقتطف منها ما يلي:

قَتَلَتْنَا تميمُ يوماً جديداً ... قتل عادٍ وذاكَ يومُ الكُلابِ

. . .

تركوني مُسَهَّداً في وَثاق ... أرقب النجم ما أُسيغُ شرابي

خائفاً للرَدَى ولولا دفاعي ... بمئينٍ عن مهجتي كالهضابِ[1]

. . .

وقال البراء بن قيس في زوجته حذفة، وهو محبوس عند كسرى أنو شروان:

يا دارَ حُذْفَةَ باللِّوَى فالمَجْدَل ... فجنوب أُسْنُمَة فقُفِّ العُنْصُلِ

بل لا يَغُرّك من حليل صالح ... إن لم يلاقك بعد عام الأوّلِ

(1) الأغاني 16/ 329، 332، 339 ـ النقائض 1/ 139، 152 وقارن مع أيام العرب ص 128 الحاشية رقم 6.

كانت إذا غَضِبَتْ عليَّ تَظَلَّمَتْ وإذا كَرِهْتُ كلامها لم تُثْقِلِ
وإذا رأتْ لي جِنَّةً عملتْ لها ومتى تَعَنَّ بعلم شيء تسأل[1]

داخل جدران سجنه المعتم، بعيداً عن الأهل وأبناء العشيرة، وفي وحدته القاتلة، استيقظت لدى «البرّاء بن قيس» ذكرى زوجته، فكانت هذه الأبيات التي ينادي فيها شريكة حياته، فيندفع مخاطباً دارها، ناصحاً إياها، معبراً عن صَورتها في مخيّلته، صورة المرأة الحكيمة العطوف، والتي تشارك زوجها مشاعره وأحاسيسه، وأفراحه وأتراحه، ومشاغله وهمومه، وهي ليست مدّعية أو مغرورة، لأنها متى اعترضها شيء تسأل عنه مستوضحة.

فهل هذه الصورة عن الزوجة هي نفسها التي كانت في مخيلة «البراء» قبل حبسه؟ أو أن السجن هو الذي هيّج نفسه، وأثار مشاعره، فتداخلت تلك الاحاسيس مع الحنين إلى لقاء زوجته؟

والجواب هو أن محنة السجن والشعور بالوحدة والبعد عن المرأة كل ذلك كان باعثاً في تحريك وجدان الشاعر فسمت صورتها في مخيلته وعبر عن ذلك لسانه.

2 ـ سعيد بن العاص

سعيد بن العاص بن أمية، يكنّى «أبا أحيحة» كان من وجوه قريش، لم يدرك الاسلام، وكان إذا إعْتَمَّ بمكة، لم يعتّم أحد بمثل عمامته، إجلالاً له. وكان سعيد قد قدم الشام في تجارة، فحبسه «عمرو بن جفنة» لأجل «عثمان بن الحارث» فقال سعيد في ذلك شعراً[2].

لقد سجن «سعيد بن العاص» في الشام ظلماً، فهو لم يحبس لذنب اقترفته يداه، وطال انتظاره في الحبس، فتحطمت كبرياؤه أمام صمت ذويه وتقاعسهم، لا حول له ولا قوة، ولا سبيل للخلاص إلا بالفدية. فأخذ ينادي الركبان، عسى أن يذكروا وجهاء قومه به، ليعملوا على إطلاق سراحه، لاجئاً إلى أسلوب الترغيب بمدحة فريدة من نوعها.

---

(1) ياقوت الحموي ـ معجم البلدان 5/ 57.

(2) راجع ما ذكرناه سابقاً ص 20 سعيد بن العاص وابن جفنة.

بعد طول انتظار، دبّ اليأس إلى نفسه، فعبّر عن ذلك اليأس بقوله إلى زميله هشام: قومي وقومك يا هشام قد اتفقوا على تركنا حتى آخر الدهر.

هذا الاحساس بالمرارة التي تشوبها النقمة، يعود بلا شك إلى الأزمة النفسانية التي يمر بها، وهو مقيد في حرّيته ضمن جدران السجن، **فجلّ تفكيره ينحصر بذاته، بخلاصه**، وهذه أقصى أمنياته.

3 ـ طرفة بن العبد[1]

هو «عمرو بن العبد بن سفيان... بن بكر بن وائل» وطرفة، لقب، وهو أشعر الشعراء بعد امرئ القيس. قال الشعر صغيراً، وليس عند الرواة من شعره إلا القليل، قتل وهو ابن ست وعشرين سنة، والشاهد على ذلك قول اخته الخرنق ترثيه:

عـددنـا لـه سـتـاً وعـشـريـن حـجـة فـلـمـا تـوفّاهـا اسـتـوى سـيّداً ضـخـمـاً

وزعم بعضهم أنه كان ابن عشرين سنة لما قتل، وذكر أن موته كان في سنة/ 564/م، وسبب قتله، خلافه مع الملك «عمرو بن هند» قيل بسبب هجائه له، وقيل بسبب تشبيبه بأخته، وقيل بسبب وشاية من «عبد عمرو»، فأمر عامله على البحرين وهجر بقتله، فتريث العامل في قتله وأودعه السجن لصلة قرابة تربطه به، وقيل أحجم عن قتله مخافة من قبيلته بكر بن وائل، ثم ان الملك انتدب شخصاً آخر قتله، وقبره معروف بهجر. وإلى طرفة ينسب قوله في السجن:

أَسْلَمَنِي قـومـي ولـم يَـغْـضَـبُـوا لِـسَـوْءَةٍ حَـلَّـتْ بـهـم فَـادِحَـةْ
كَـمْ مـن خـلـيـلٍ كـنـتُ خَـالَـلْـتُـهُ لا تَـرَكَ اللهُ لـه واضِـحَـةْ
كُـلُّـهُـمُ أروغُ مـن ثـعـلـبٍ مـا أشْـبَـهِ الـلّـيـلـةَ بـالـبـارِحَـةْ

ذكر «ابن قتيبة» البيتين الأخيرين على أن «طرفة» قالهما وهو صبي[2].

---

(1) محمد بن سلام الجمحي ـ **طبقات فحول الشعراء** 1/ 54: سئل لبيد بن ربيعة: من أشعر الناس؟ فقال: الملك الضليل. قالوا: ثم من؟ قال: الغلام القتيل. يعني طرفة

(2) ابن قتيبة ـ **الشعر والشعراء** 1/ 117 وقارن مع لويس شيخو ـ **شعراء النصرانية** ص 298، فروخ ـ **تاريخ الادب العربي** ص 135 ـ **الأصمعيات** ص 149، **والموسوعة العربية الميسرة** 2/ 383، البغدادي ـ **خزانة الادب** 1/ 414، وبروكلمان 1/ 92.

وذكر ابن منظور البيتين الأخيرين مع تغيير كلمة واحدة هي «صافيته» بدلاً عن «خاللته» من دون أن ينسبهما إلى أحد، ولم يذكر المناسبة التي قيلا فيها.

يتم «طرفة» من أبيه صغيراً، فأبى أعمامه أن يقسموا له نصيبه من ارث أبيّه وظلموه حقه، فنشأ مع امه في بؤس، حتى أن أبناء قبيلته اجتنبوه ـ ربما لفقره ـ وأضحى وحيداً، يقاسي من ألم الوحدة، وقد عبّر عن ذلك ضمن معلقته بقوله:

إلى أن تحامتني العشيرة كلّها　　　وأفردت إفراد البعير المعبّد

هكذا كان وحيداً قبل أن يسجن، وفي سجنه أضحى وحيداً أيضاً، لذلك يقول: ما أشبه الليلة بالبارحة. إنما هذه الوحدة تختلف عن تلك، لأن حريته مقيدة، وحياته مهددة، فهو مضطرب، حاقد، ناقم، على الأهل الذين خذلوه، ولم يثوروا لأجله، ولم يعملوا على إنقاذه، وهذه سوءة كبيرة تلتصق بهم وتحط من قدرهم. وظهر غاتباً على أولئك الأصدقاء الذين تنكروا له. وكأنه لا يرجو منهم خيراً لذلك لجأ إلى توجيه الاهانة اليهم: كلّهم أروغ من ثعلب.

ومما نسب إليه قوله وهو في السجن، يخاطب «عمرو بن هند»:

ألا اعتزليني اليومَ يا خول أو غُضّي　　　فقد نزلتْ حدباءُ محكمةُ العضّ

أبا منذرٍ، كانتْ غَروراً صَحِيفَتِي　　　ولم أُعْطِكُمْ بالطّوعِ مالي ولا عِرْضِي

. . .

خذوا حِذْرَكم أهلَ المُشَقَّرِ والصّفا　　　عبيدَ اسْبذٍ والقرْض يُجْزَى من القرْضِ

. . .

همـا أورداني المـوتَ عَمْداً وَجَـرّدا　　　على الغدر خيلاً ما تَمَلُّ من الركْضِ[1]

يطلب «طرفة» من «خولة» اجتنابه اليوم لابتلائه بمصيبة كبيرة لا مناص له منها، والمصيبة التي يشير اليها «طرفة» حبسه وانتظاره الموت القريب. ثم

---

(1) البصري ـ **الحماسة البصرية** 1/ 43 وقارن مع **ديوان طرفة بن العبد** ص 66 ـ جواد علي ـ **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام** 9/ 539.

يخاطب «أبا منذر» عمرو بن هند، مستغرباً، متعجباً من الكتاب الذي أرسله معه إلى عامل البحرين وانه كان خدعة انطلت عليه فأودع السجن مكرهاً ولم يستسلم.

ثم يعمد إلى أسلوب التحذير والتحريض لأهل البحرين (المشقر: حصن، الصفا: نهر، أسبذ: بلد) فهو يرى الاحسان إلى المحسن، والاساءة إلى المسيء.

ويعود إلى تحديد من ساقه إلى الموت: هما (عمرو بن هند وعبد عمرو) اللذان غدرا به.

إن معظم المصادر التي أشرنا اليها سابقاً تجمع على أن «عمرو بن هند» أمر عامله على البحرين بقتل طرفة، إلا أن ثمة خلافاً في طريقة قتله، فمنهم من يقول، قتله، من دون الاشارة إلى طريقة القتل، وآخر يقول، سقاه الخمر حتى أثمله، ثم فصد أكحله أو أكحلاه، وتركه ينزف حتى الموت، وثالث يقول دفن حياً وأبو زيد القرشي يشير إلى صلبه مستشهداً بما قاله طرفة قبل صلبه:

فمن مبلغ أحياء بكر بن وائل   بأنَّ ابن عبد راكب غير راجل
على ناقة لم يركب الفحل ظهرها   مشذَّبة أطرافها بالمناجل[1]

هذا الشعر ينطوي على تحريض قبيلته، للعمل على انقاذه، مشيراً إلى أنه مصلوب على خشبات شذِّبت أطرافها بالمناجل.

وإذا كنّا نشك في تفصيلات رواية مقتل طرفة بن العبد، المستفيضة في كتب الأدب والاخبار، فإننا لا نشك في أنه قتل في ربيع العمر، في البحرين بأمر من عمرو بن هند بعد سجن لم يطل، دخل السجن ولم يخرج منه. ويبدو أنه قال شعراً رائعاً عندما أحاط به الموت، وأحسّ أن أجله قد انتهى. ويشهد على صحة ما نقوله قول الجاحظ: «وما قرأت في الشعر، كشعر عبد يغوث بن صلاءة الحارثي، وطرفة بن العبد، وهدبة بن خشرم، فإن شعرهم

(1) القرشي ـ **جمهرة أشعار العرب** ص 33.

في الخوف لا يقصّر عن شعرهم في الأمن، وهذا قليل جداً»[1].

وبعد يبدو أن طرفة بن العبد ذهب ضحية الصراع السياسي الذي كان قائماً بين بعض بطون بكر بن وائل وبين المناذرة الذين كانوا يستغلون خلافات الأقرباء ومات طرفة وهو يحذر أهله، ويدعوهم إلى الالفة والوحدة ولكن دون جدوى.

4 ـ عدي بن زيد العبادي

عدي بن زيد العبادي التميمي، شاعر فصيح من شعراء الجاهلية، من دهاة الجاهليين، وكان نصرانياً من أهل الحيرة، أتقن العربية والفارسية، وكان عديّ أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى، فرغب أهل الحيرة اليه ورهبوه، لم يكن من فحول الشعراء، وعلماء العربية لا يرون شعره حجّة، كان الأصمعي وأبو عبيدة يقولان:

عدي بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجري معها مجراها.

اجتهد عدي عند كسرى حتى صار النعمان بن المنذر ملكاً على الحيرة، ثم أوقع الوشاة بين عدي والنعمان الذي قبض عليه وأودعه السجن[2].

فجعل عدي يقول الشعر وهو في الحبس، ومما قاله:

لَيتَ شعري عن الهمام ويأتيـ ... لكَ بخُبْرِ الأنباء عطفُ السّؤالِ

. . .

ليتَ أنّي أخذتُ حَتْفِي بِكَفِّيّ ... ولم ألقَ ميتةَ الأقتالِ

مَحَلوا مَحْلَهُمْ لِصَرْعَتِنَا العا ... مَ فقد أوقَعُوا الرَّحَى بالثُّفالِ

(1) الجاحظ ـ كتاب الحيوان 7/ 157.

(2) الزركلي ـ **الاعلام** 4/ 220 وقارن مع البغدادي **خزانة الأدب** 1/ 184 ـ المرصفي ـ **رغبة الآمل من كتاب الكامل** 2/ 39 وما بعدها. فروخ ـ **تاريخ الادب العربي** ص 184 ـ وبروكلمان ـ **تاريخ الادب العربي** 1/ 124 وما بعدها. ويلاحظ من تلك المراجع وغيرها، خلاف على اسم جد عدي، وكذلك الملك الذي حبس عدي، وقارن مع **شعراء النصرانية** ص 439.

وقد ذكر انها قصيدة طويلة ورد منها ستة أبيات من الشعر في كتاب الأغاني، بينما ذكر منها صاحب شعراء النصرانية ثمانية[1]، ولم يرد ذكرها في المراجع الأخرى.

يوجه «عدي» كلامه إلى الملك «النعمان» العظيم الهمة، مشيراً إلى أن الجواب الصح يكون بعد طرح السؤال، وكأنه يلمح إلى أنه أودع السجن من دون أن توجه إليه أية تهمة، ومن دون أن يتاح له الوقت للدفاع عن نفسه، ولو تم ذلك لتبين للملك كذب الوشاة، وصدق موقف عدي المؤيد للملك. ثم يتمنى لو أنه انتحر قبل أن يعرف انه سيلقى في السجن ميتة الاعداء.

ويتابع قوله مشيراً إلى الحسّاد والاعداء الذين سعوا بينه وبين النعمان وتمكنوا من الايقاع بينهما.

وقال أيضاً وهو محبوس:

أرِقْتُ لِمُكْفَهِرٍّ باتَ فيه	بَوَارِقُ يَرْتَقِينَ رؤوسَ شِيبِ

...

سعى الأعداءُ لا يألُونَ شَرّاً	عليَّ وربِّ مكَّةَ والصَّليبِ
أرادُوا كيْ تُمَهَّلَ عن عديٍّ	لِيُسْجَنَ أو يُدَهْدَهَ في القَليبِ

...

ألا مَنْ مُبْلِغُ النعمانِ عنّي	وقد تُهْدَى النَّصيحةُ بالمغيبِ
أحَظِّي كان سلسلةً وقيداً	وغُلاً والبيانُ لَدَى الطبيبِ
أتاكَ بأنّني قد طالَ حبسِي	ولم تسأمْ بمسجونٍ حَريبِ
وبيتيَ مُقْفِرٌ الا نساءً	أراملَ قد هلكنَ من النَّحيبِ
يُبَادِرْنَ الدّموع على عدي	كشنٍّ خانه خرز الربيب

...

(1) الاصبهاني - الأغاني 2/ 110، لويس شيخو - شعراء النصرانية ص 450 وقارن مع ابن قتيبة - الشعر والشعراء 1/ 150 وما بعدها، والقرشي - جمهرة أشعار العرب ص 103، والمعري - رسالة الغفران ص 80 وموسوعة الشعر العربي 2/ 437 وما بعدها.

فـإنّـي قـد وَكَـلْـتُ الـيـومَ أَمْـرِي   إلـى ربٌّ قـريـبٍ مُـسْـتَـجِـيـبِ[1]

إنها قصيدة استعطاف وتظلّم يتوجه فيها عدي إلى الملك النعمان، من سجنه بعد أن أدرك الوشاة منه غايتهم، وقد ضمنها تذكيره الملك بمساعدته له يوم اشتد عليه المنافسون.

فهو يعبر عن أرقه في ليل غلظ سحابه وأسود، يركب بعضه بعضاً، فيه برق ولمع، وينتقل إلى ذكر الوشاة الأعداء الذين يريدون الشر، ويقسم على براءته، وهؤلاء الاعداء يرومون سجنه أو حدره وتدحرجه في بئر أو قبر. ثم يطلب النجدة من أي كان ليعرض سوء حاله على الملك، فنصيبه كان القيود والاغلال وسوء حالته الصحية وهذا ما يؤكده الطبيب، وقد طال حبسه وسلب ماله وعقاره وأضحى بيته خاوياً ليس فيه إلاّ نساء أرامل يكذن يمتْن من البكاء والعويل، ودموعهن غزيرة لا تنقطع كالماء الموجود في خلق من آنية صنعت من الجلد لم ينجح المصلح في خرز ثقوبه. وتلك النسوة اللواتي أشار إليهن عدي، ربما المقصود بها زوجته هند وقيل انها ابنة الملك النعمان، وكأنه يلجأ إلى استدرار عاطفة الابوة عند الملك عسى أن يتأثر ويطلق سراحه، إن لم يكن رحمة به، فرحمة بابنته هند.

وبعد أن ذكّر الملك بمناصرته له عند تتويجه، وألقى اللوم على الوشاة، وأظهر بؤسه وبؤس نسوته، أوكل أمره إلى الله، وأذعن إلى مشيئته، فهو قريب يستجيب لدعوة الداعي إذا دعاه.

وقال عديّ في السجن قصيدة أخرى منها:

طـالَ ذا الّـلـيـلُ عـلـيـنـا واعْـتَـكَـرْ   وكـأنّـي نـاذِرُ الـصُّـبْـحِ سَـمَـرْ
إذْ أتـانـي نَـبَـأٌ مـن مُـنْـعِـمٍ   لـم أَخُـنْـهُ والـذي أعـطـى الـشَّـبَـرْ
مِـنْ نـجـيِّ الْـهَـمِّ عـنـدي ثـاوِيـاً   فـوقَ مـا أُعْـلِـنَ مـنـهُ وأُسِـرْ[2]

يحل الليل على الشاعر وهو في سجنه، فتتآلف عليه الهموم، ويطول

---

(1) لويس شيخو - شعراء النصرانية ص 451 - الاصبهاني - الأغاني 2/ 111، موسوعة الشعر العربي 2/ 456.

(2) لويس شيخو - شعراء النصرانية - ص 452 - الاصبهاني - الأغاني 2/ 112.

الليل، ذلك أن ليل الهموم طويل ومعتكر، ويبدأ بانتظار الصبح ظاناً أن سجنه سينتهي مع حلول الصباح، أو لشدة قلقه من الاخبار التي زعمها الوشاة وأبلغوها إلى الملك، ويظل ساهراً كأنه نذر أن يقضي ليله هكذا، وغيره قد يظل يقظاً سامراً لأنه عاشق، إنما هو يسهر من الهموم التي لا تفارقه والتي في قيمتها تزيد عما يعلنه ويخفيه، وهو يقسم بالذي أعطى الشبر (الانجيل والقربان) بأنه لم يخن الملك. وهذا دليل على عمق المأساة في نفسه.

ولجّ الملك «النعمان» في حبس «عدي»، وعديّ يرسل اليه بالشعر، فممّا قاله له أيضاً:

لـيـس شـيءٌ عـلـى الـمَـنـونِ بـبـاقِ　　غَـيـرُ وَجْـهِ الـمُـسَـبَّـحِ الـخَـلاَّقِ

. . .

ولـقـد سـاءَنـي زيـارةُ ذي قُـر　　بَـى حـبـيـبٍ لِـوُدِّنَـا مُـشْـتـاقِ

سـاءهُ مـا بـنـا تـبـيّـنَ فـي الايـ　　ـدِي وإشْـنَـاقِـهـا إلـى الأعْـنـاقِ

. . .

فـاذهـبـي يـا أمـيـمَ ان يَـشَـإِ اللهُ　　يُـنَـفِّـسْ مـن أزْمِ هـذا الـخِـنَـاقِ

أو تـكنْ وجـهـةٌ فـتـلـكَ سبيـلُ الـنـا　　سِ لا تَـمْـنَـعُ الـحُـتـوفَ الـرَّوَاقِـي(1)

وهذه مقتطفات من قصيدة أخرى يعبر فيها «عدي بن زيد» عن واقع حاله في السجن يستهلها بالحكمة العامة التي تعبر عن حتمية الزوال لجميع المخلوقات، منطلقاً إلى وصف تأثره من زيارة أمه له، وهو في السجن، مصوراً مشهد اللقاء الفاجع، وقد أثقلته القيود وحالت بينه وبين معانقة أمه، وأنّى لمثله أن يعانق وقد شنقت يده بالأغلال إلى الاعناق، وعبّر أيضاً عن استياء أمه حينما رأته على هذا الحال، فبادر إلى التخفيف عنها بقوله إذا شاء الله يمكن أن يعفى عنه ويتخلص من تلك القيود، وإلا، فإنه سيسير إلى الموت كسائر الناس، ولن تستطيع الرواقي منع المنايا.

طال انتظار «عدي» في الحبس، ولم يسمع جواباً من الملك «النعمان»

---

(1) **موسوعة الشعر العربية** 2/ 461، الاصبهاني ـ **الأغاني** 2/ 116، لويس شيخو ـ **شعراء النصرانية** ص 454.

لنداءاته المتكررة واستغاثاته المتتالية، مع أن سجنه كان افتراء وظلماً، وحرام سجنه دونما ذنب، فيتوجه أخيراً، بعد أن يئس من الاعتذار وطلب الصفح، إلى أخيه يناديه:

أبـلـغْ أُبَـيّـاً عـلـى نَـأيـهِ وهـل ينفعُ المرءَ ما قد عَلِمْ
بـأنَّ أخـاكَ شـقـيـقَ ألـفُـؤا دِ كـنـتَ بـهِ واثِـقـاً مـا سَـلِـمْ
لَدَى مَـلِـكٍ مُـوثـقٌ فـي الـحـديـ دِ إمَّـا بـحـقٍّ وإمّـا ظُـلِـمْ
فـلا أعْـرِفَـنْـكَ كـذاتِ الـغـلا مِ ما لـم تَـجِـدْ عـارِمـاً تَـعْـتَـرِمْ[1]
فـأرضَـكَ أرْضَـكَ إنْ تـأتِـنَـا تَـنَـمْ نـومـةً لـيـس فـيـهـا حُـلُـمْ[2]

إنه يطلب من أخيه أن يأتي لنجدة شقيقه الذي كبّل بالحديد، وسجن اما بحق واما كان حبسه ظلماً، فهو قد حرم من حريته ويعاني في العذاب، ويصرخ الشاعر دون مجيب، فتزداد مرارته، ويزداد اليأس في نفسه، لذلك نجده يلجأ إلى قومه يستحثّهم لنصرته، طالباً مساعدتهم ولو اضطروا إلى الحرب، حتى ولو كان ذلك في الاشهر الحرم، وهذا دليل على شدة ما يعانيه في سجنه فيقول لهم:

يـا أبـا مُـنـشـهِـرٍ فـأبـلِـغْ رسـولاً أخـوتـي إنْ أتـيْـتَ صَـحْـنَ الـعـراقِ
أبـلـغـا عـامِـراً وأبـلـغْ أخـاهُ أنَّـنِـي مُـوثَـقٌ شـديـدٌ وِثـاقِـي
في حديدِ القسطاسِ يَرْقُبُنِي الحا رسُ والـمَـرْءُ كـلُّ شـيءٍ يُـلاقِـي
فـي حـديـدٍ مُـضَـاعَـفٍ وغُـلـولٍ وثـيـابٍ مُـنَـضَّـحـاتٍ خِـلاقِ
فَـارْكَـبُـوا فـي الـحَـرَامِ فُـكُّـوا أخـاكُـمْ إنَّ عَـيْـراً قـد جُـهِّـزَتْ لانـطـلاقِ[3]

---

(1) هكذا ورد في **الأغاني** 2/ 118 وفي **شعراء النصرانية** ص 460 ورد: كدأب الغلام ما لم يجد عارماً يعترم. وورد هذا البيت في لسان العرب 12/ 395 مادة / عرم/ على الشكل التالي:

ولا تلفين كأم الغلام إن لم تجد عارماً تعترم

أي لا تكن كالمرضعة إن لم تجد من ترضعه درّت هي فحلبت ثديها، وربما رضعته ثم مجته من فيها. أي لا تكن كمن يهجو نفسه إذا لم يجد من يهجوه.

(2) **الأغاني** 2/ 118، **شعراء النصرانية** ص 460.

(3) **الأغاني** 2/ 117، **شعراء النصرانية** ص 454.

إن عدياً يستثير عاطفة قومه، عارضاً لهم ما يعانيه في غياهب السجن، وهو يرزح تحت ثقل القيود والاغلال، وثيابه أضحت خلقاً بالية مرقعة قديمة، بعد ذلك الترف الذي كان يعيش فيه، ثم يحرضهم على انجاده ولو كان ذلك عن طريق الحرب، معتبراً أن هذه الاستغاثة ستلاقي تجاوباً من أهله لذلك يقول: إن عيراً قد جهزت للانطلاق، وربما يكون هذا نوعاً من التأثير النفسي على قومه، يزيد في حماسهم للعمل على انقاذه.

إن صرخات «عدي» المتتالية، وعتابه للملك واستغاثته، واعتذاره له، وذكر دور الوشاة، واستعطافه عن طريق ذكر النساء اللواتي ينتحبن عليه ومن بينهن هند ابنة الملك، وتذكيره بدوره في تتويجه، كل ذلك لم يجده نفعاً. ثم لجأ إلى أخيه وإلى قومه يستحثهم العمل على انقاذه، ولكن دون جدوى، إذ بعث اليه «النعمان» فغطوا وجهه بشيء حتى اختنق، فمات ثم دفنوه وكان ذلك سنة 587 م[1].

وهكذا نرى غيرة الملك وحسده لعدي، قلبت صداقته ومحبته إلى سخط عليه، وربما خشي زوال سلطانه، فوجد في التخلص من عدي سبباً للمحافظة على قوته، لذلك أودعه السجن وقتله. إن المركز المرموق الذي بلغه عدي، وقوة نفوذه ومكانته، كلها كانت السبب المباشر لقتله.

5 ـ قيس بن مسعود

هو قيس بن مسعود بن قيس بن خالد... بن ذهل بن شيبان. ولجده يقول طرفة بن العبد:

فلو شاء ربّي كنت قيس بن خالد ولو شاء ربّي كنت عمرو بن مرقد

تعبثت بكر بن وائل بأصحاب كسرى الذي اشتد حنقه عليهم، فأرسل إلى قيس بن مسعود، وقال له: غررتني من قومك، وزعمت أنك تكفينيهم، وأمر به فحبس «بساباط» وقيل بايوان حلوان، وأقبل كسرى على تعبئة الجيوش، فقال قيس ينذر قومه بقصيدة منها وهو في الحبس:

---

(1) لويس شيخو، شعراء النصرانية، معجم الشعراء (الايوبي) ص 280.

ألا ليتني أرْشُو سلاحي وبَغْلَتي　　لِمَنْ يُخْبِرُ الأنباءَ بكرَ بن وائِل

. . .

وقال أيضاً قصيدة أخرى منها:

وان جنودَ العُجْمِ بيني وبينَكم　　فيا فَلَجي يا قومُ إن لم تُقاتِلوا

ومما قاله في السجن يصِف مأساته وحزنه ويأسه:

. . .

ألا من مُبْلِغَ قومي ومن ذا　　يُبَلِّغُ عن أسيرٍ في الإوانِ

تَطَاولَ لَيْلُهُ وأصابَ حُزناً　　ولا يَرجُو الفِكَاكَ من المِتانِ

بلغ «بكر بن وائل» قدوم جيوش الفرس، فاستعدوا لذلك، وحينها قال أحد قادتهم، «حنظلة بن ثعلبة بن سيّار»: يا معشر بكر بن وائل، قاتلوا عن ظعنكم أو دعوا. وذلك بعد أن أمر بالظعن جميعاً فوقفها خلف الناس. ثم التقى الزحفان، وتقارب القوم ببطحاء «ذي قار» وانتهت المعركة بانتصار العرب على العجم، وهذا يوم من أيام العرب المشهورة. ومات قيس بن مسعود في سجن كسرى[1]. وهو متحرق على قومه يدعوهم إلى الاتحاد وإعداد العدة لملاقاة الاعداء الاعاجم ولم يرهبه سجنهم ولم يكترث بعقابهم وظل محافظاً على شهامته ورجولهته وعنفوانه، انه حب الوطن وحب العشيرة والأهل.

6 ـ المنخل اليشكري 597 م

هو المنخل بن عمرو وقيل بن مسعود بن. . . يشكر بن بكر بن وائل، شاعر مقل من شعراء الجاهلية، كان ينادم النعمان مع النابغة الذبياني، فسعى المنخل بالنابغة وأوغر صدر النعمان عليه، فهرب النابغة، وخلا المنخل بمجالسة النعمان. ثم ان النعمان بن المنذر، اتهم المنخل بامرأته «المتجردة»،

---

(1) الابلة: بلدة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل إلى ولاية البصرة، الاغاني رواه الهاشمي رقم 14.

(2) المرزباني ـ **معجم الشعراء** ص 324 ـ الاصبهاني ـ **الأغاني** 24/ 54 وما بعدها.

وقيل: بل وجده معها، وقيل: بل سعي به اليه في أمرها، فأخذه الملك «النعمان» ودفعه إلى رجل من حرسه وصاحب سجنه يقال له «عكّب» من بني تغلبه ليقتله.

قال المنخل يحرض قومه عليه:

. . .

فـان لـم تَـثْـأَروا لـي مـن عِـكَـبٌ فـلا رُويـتُـمُ أبـداً صَـدِيّـا
يُـطَـوِّفُ بـي عِـكَـبٌ فـي مَـعَـدٍّ وَيَـطْـعُـنُ بـالصُّمَـيـلـةِ في قَـفِـيّا[1]

وورد انه قال قبيل قتله:

ظُـلٌّ وَسْـطَ الـعـبـادِ قـتـلـي بـلا جُرْ مٍ، وقـومـي يُـنَـتِّـجُـونَ الـسِّـخـالا
لا رَعَـيْـتُـمْ بـطـنـاً خـصـيـبـاً ولا زُرْ تُـمْ عـدوّاً، ولا رَزَأْتُـمْ قِـبـالا[2]

وقد ورد البيت الأول في كتاب الأغاني على الشكل التالي:

ظلٌّ وَسْـطَ الـنَّـدِيِّ قَـتْـلِـي بـلا جُرْ مٍ وقـومِـي يُـنَـتِّـجـونَ الـسِّـخَـالا

وهكذا أيضاً في شعراء النصرانية مع اختلاف كلمة واحدة وهي: يثخنون بدلاً عن ينتجون.

إن المنخل اليشكري أوقع بين الملك النعمان والنابغة الذبياني حسداً وأنانية ليخلو الجو له وحده.

خلا الجو للمنخل وأضحى الشاعر المدلل الوحيد عند الملك، وتدور الدائرة ويقع في نفس الشرك الذي نصبه للنابغة، لذلك سلّمه الملك إلى «عكّب» ليقتله.

إننا، من خلال الشعر المنسوب إلى المنخل، والذي ذكرناه آنفاً،

---

(1) لويس شيخو - شعراء النصرانية ص 421 - الاصبهاني - الأغاني 21/ 3 - شرح ديوان الحماسي 1/ 48 - الأصمعيات ص 58 - تاريخ الادب العربي فروخ ص 168.

(2) ابن قتيبة - الشعر والشعراء 1/ 318 - موسوعة الشعر العربي 3/ 211 - الاصبهاني الأغاني 21/ 3 - شرح ديوان الحماسة 2/ 48 - لويس شيخو - شعراء النصرانية ص 421.

نلاحظ تحريضه قومه للسعي إلى إخراجه من السجن، وللانتقام من السجّان الذي يعذبه أشد العذاب بجرّه مغلولاً على الأرض، وأحياناً بطعنه في حديدة في قفاه. ولمّا لم يجد من أهله تجاوباً، يسري اليأس في نفسه، فيلوم الأهل ويعاتبهم أشد العتاب، إذ يتهمهم بتناسيه وعدم الثأر لدمه الذي سيراق، حيث لا شهامة ولا مروءة، وإنما همهم الأشياء المادية وما يشغلهم توليد النعّاج، وشتان بين هذا وذاك. إن شعر المنخل هذا يشير إلى سخطه على عشيرته يذم قومه لتشاغلهم عن استخلاصه من حبس الملك، ويدعوهم إلى الانتقام من السجان، والسنجان مأمور، والآمر هو السلطان وظلامته غنده.

الأرجح أن المنخل قال شيئاً يتعلق بالملك، إلا أن خوف الناس من النعمان والرهبة من السلطان أضاع ذلك الشعر حتى عفا مع السنين كما عفا قسم كبير من أدب الاسر والسجن.

ب - أدب الأسر في العصر الجاهلي

إن الظروف التي أحاطت بحياة العرب الجاهليين هيأت جواً مناسباً للخصومات والمنازعات، ونشوب الحروب المعروفة بأيام العرب. ولدى تقارب الفريقان، كان الرؤساء والقادة يجمعون المقاتلين ويلهبون حماستهم، ويثيرون حميتهم، بما يقوى شجاعتهم، كما كانوا يتوجهون اليهم ببعض النصائح والوصايا، فمن ذلك أنه لما جاءت مذحج لقتال تميم، فزع التميميون إلى كبيرهم، «أكثم بن صيفي» فقال لهم: . . . «ألبسوا جلود النمور، والثبات أفضل من القوة، وأهنأ الظفر كثرة الأسرى، وخير الغنيمة المال، ولا ترهبوا الحرب عند الموت»[1] . . .

فمن كلام «أكثم» يتبين أن الجاهليين، عقب انتصارهم في الحروب، كانوا يجهدون أنفسهم ليتمكنوا من أسر أكبر عدد ممكن من الاعداء المهزومين، ويوجهون همهم بطبيعة الحال إلى الرؤساء وذوي المكانة. ومن عاداتهم انهم كانوا يجزون ناصية الاسير ويحفظونها، وكانت عاقبة الاسير

---

(1) محمد أحمد جاد المولى بك - **أيام العرب في الجاهلية** ص 126، علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل ابراهيم - دار الفكر.

تتوقف على الحال التي بين قومه وآسريه أو حلفائهم، فإذا كان بينهما دم، فإن الأسير كان يقتل أخذاً بالثأر. وإذا لم يكن بينهم ثأر فإنهم كانوا يحافظون على الأسير إلى أن يفدى، وكانت الفدية عادة تدفع من الابل، ويختلف حجمها تبعاً لحالة الاسير الاجتماعية فكلما عظمت مكانته في قومه، كشيخ القبيلة أو قائدها، كانت الفدية أعظم، وربما كان ذلك من الاسباب التي كانت تجعلهم يتسابقون على أسر ذوي الشخصيات الممتازة، وكان الآسر هو الذي يأخذ فدية الاسير، فإذا اشترك غير واحد في أسره، أخذ كل واحد جزءاً من الفدية[1].

وقد يطلق سراح الأسير لمجرد أن يعد آسريه بدفع الفدية، كما قد يخلى سبيله مناً عليه، أو فخراً بذلك، أو وفاء لعهد، أو إسداء لمعروف، أو رداً لجميل، أو إكراماً لعظيم[2].

هذا المجتمع، الذي عرفت قبائله التنابذ والاقتتال والاسر، كان فيه للشعراء دور بارز ونصيب من الاسر، ونتوقف فيما يلي عند شعراء الأسر المشهورين، منهم:

1 ـ الأعشى[3]

هو ميمون بن قيس، يمتاز بكثرة قصائده الطويلة، كما يمتاز بكثرة تصرفه في فنون الشعر من مديح وهجاء وفخر ووصف وخمر وغزل، أما المديح، فقد قالوا أنه أول من سأل بالشعر واستجدى بالقريض، واتخذه متجراً يطوف به البلاد[4].

---

(1) محمد أحمد جاد المولى بك ـ **أيام العرب في الجاهلية** ص 187.

(2) أيام العرب في الجاهلية والاسلام ص 172.

(3) هو ميمون بن قيس بن جندل بن... بكر بن وائل... بن ربيعة بن نزار، ويكنّى أبا بصير وهو أحد الاعلام من شعراء الجاهلية وفحولهم، وقد عده ابن سلام من شعراء الطبقة الأولى وهم: أمرؤ القيس، ونابغة بني ذبيان، وزهير، والاعشى، وقال: أخبرني يونس بن حبيب: أن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس بن حجر، وأهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى، وان أهل الحجاز والبادية كانوا يقدمون زهيراً والنابغة. أنظر طبقات فحول الشعراء 1/ 52.

(4) ابن رشيق ـ **العمدة** 1/ 81 ـ الجمحي ـ **طبقات فحول الشعراء** 1/ 67.

واشتهر بأنه «صناجة العرب» قيل لأنه كان يتغنى بشعره، وقيل: لكثرة مراودته لمجالس الشرب والطرب، ولما في شعره من موسيقى الغزل، والتغني بالمرأة والخمرة، والمتعة، وقيل: إنما سمّي الأعشى «صناجة العرب» لأنه أول من ذكر الصنج في شعره إذ يقول:

ومستجيبٍ لصوت الصَّنج تسمعُه   إذا تُرَجِّعُ فيه القَنيةُ الفُضُلُ[1]

نشأ الأعشى وترعرع في اليمامة، في أوديتها الخصبة اللطيفة المناخ، في قرية يقال لها «منفوحة» وفيها داره وبها قبره. ومنفوحة، كأنه اسم المفعول من نفح الطيب، إذا فاح[2].

وجاء لقبه بالاعشى لضعف في بصره، أدى إلى الظلام في عينيه في نهاية حياته اما ابن قتيبة فإنه يقول: انه كان أعمى[3].

ورد في الأغاني وفي كتاب شعراء النصرانية ما يلي: «هجا الأعشى رجلاً من كلب فقال»:

بنو الشهرِ الحرامِ فلستَ منهم   ولستَ من الكِرامِ بني عُبَيْدِ
ولا من رَهْطِ جَبّارِ بن قُرْطٍ   ولا من رَهْطِ حارِثةَ بن زيدِ

ـ قال: وهؤلاء كلهم من كلب ـ فقال الكلبي: لا أبا لك. أنا أشرف من هؤلاء. قال: فسبّه الناس بعد هجاء الأعشى إياه، وكان متغيظاً عليه. فأغار على قوم قد بات فيهم الأعشى فأسر منهم نفراً وأسر الأعشى وهو لا يعرفه، ثم جاء حتى نزل بشريح بن السموأل بن عادياء الغساني صاحب تيماء بحصنه الذي يقال له الأبلق[4].

أما «ابن رشيق» فيذكر في «العمدة» رواية أخرى عن سبب أسر الأعشى،

---

(1) الأصبهاني **الأغاني** 9/ 109 ـ **تاريخ الادب العربي**، العصر الجاهلي، شوقي ضيف ص 336 ـ ابن قتيبة ـ **الشعر والشعراء** 1/ 179 ـ ابن رشيق ـ **العمدة** 1/ 131 ـ **موسوعة الشعر العربي** 2/ 15.

(2) المرزباني ـ **معجم الشعراء** ص 401 ـ ياقوت ـ **معجم البلدان** 5/ 214 ـ فروخ ـ **تاريخ الادب العربي**. ص 221.

(3) ابن قتيبة ـ **الشعر والشعراء** 1/ 178.

(4) **الأغاني** ـ 9/ 118 ـ لويس شيخو ـ شعراء النصرانية ـ ص 361.

إذ يقول: «ولما تنافر «عامر بن الطفيل، وعلقمة بن علاثة» أقام عند «هرم بن قطبة بن سنان» سنة لا يقضي لأحدهما على الآخر، إلى أن قدم الأعشى، وكانت لعامر عنده يد، فقال:

عَـلْـقَـمَ مـا أنـت إلـى عـامـر ... الـنـاقـضِ الأوتـارِ والـواتـرِ
إنْ تَـسُـد الـحُـوصَ فـلـم تَـعْـدُهُـمْ ... وعـامـرٌ سـاد بـنـي عـامـر

. . .

فرواه الناس، وافترقوا وقد نفر عامر، على «علقمة» بحكم الاعشى في شعره[1] وذكر ابن قتيبة في الشعر والشعراء: «ولما قال الأعشى في علقمة بن علاثة»:

عـلـقـم مـا انـت إلـى عـامـر ... الـنـاقـض الأوتـار والـواتـر

نذر علقمة دمه، فخرج الأعشى، يريد وجهاً، فأخطأ به دليله، فألقاه في ديار بني عامر بن صعصعة، رهط علقمة، فأتوه به، فقال:

أعـلـقـم قـد صـيّـرتـنـي الأمـور ... إلـيـك، ومـا انـت لـي مـنـقـص
فـهـب لـي ذنـوبـي فـدتـك الـنـفـوس ... ولا زلـت تـنـمـي ولا تـنـقـص

هذا ما ذكره ابن قتيبة، ويبدو أن هذين البيتين هما الأول والأخير من قصيدة وردت في الديوان كما يلي:

أعـلـقـمُ قـد صَـيَّـرتْـنـي الأمـورُ ... إلـيـكَ، ومـا كـان لـي مَـنْـكَـصُ
كـسـاكُـمْ عُـلاثَـةُ أثـوابَـهُ ... وَوَرَّثَـكُـمْ مـجـدَهُ الأحـوصُ
وكـلُّ أنـاسٍ وإنْ أفْـحَـلُـوا ... إذا عَـايَـنـوا فـحـلَـكُـم بَـصْـبَـصُـوا
وإنْ فَـحَـصَ الـنـاسُ عـنْ سَـيِّـدٍ ... فَـسَـيِّـدُكـم عـنـهُ لا يُـفْـحَـصُ
فـهـل تُـنكرُ الـشـمسُ في ضـوئِـهـا ... أو الـقَـمَـرُ الـبـاهـرُ الـمُـبْـرِصُ
فـهـبْ لـي ذُنـوبـي فَـدَتْـكَ الـنـفـوسُ ... ولا زلْـتَ تَـنْـمّـي ولا تَـنْـقُـصُ[2]

---

(1) ابن رشيق ـ العمدة 1/ 53 ـ ذكرنا بيتين من الشعر من أصل أربعة.

(2) ابن قتيبة ـ الشعر والشعراء 1/ 182 وقارن مع ديوان الاعشى الكبير ص 419 شرح وتعليق الدكتور محمد محمد حسين. رقم 81.

واللافت هو الاختلاف في الشطر الثاني من البيت الأول بين رواية ابن قتيبة وما ورد في ديوان الأعشى، ولدى العودة إلى لسان العرب تبين ان «النقص» يعني الخسران في الحظ، و«النكص» يعني الاحجام[1].

فعفا عن علقمة، فقال الأعشى ينقض ما قاله أولاً:

علقمُ يا خيرَ بني عامرٍ ... للضّيفِ والصّاحِبِ والزّائرْ

والضّاحكُ السّنّ على هَمِّهِ ... والغافرَ العَثْرَةِ للعاثِرْ[2]

نلاحظ بوضوح كيف أن الأسر حمل الأعشى على إظهار التملق لعلقمة، فقد تسبب بيتان من الهجاء بأسره، وكان لا بد من الانقلاب إلى المدح بمجموعة من الأبيات فتحت له باب الحرية، لذلك اختار من المناقب ما يرتاح لها آسره فجعله وريث مجد تالد.

جعله فوق سائر الناس مقاماً، ودونه، يتضاءل الباقون رفعة، وإن كان لكل سيد عيوب، فإن علقمة قد خلا من كل عيب، وبعد أن جعله شمساً مشعة وقمراً مضيئاً، عمد الأعشى إلى الاستعطاف والاستغفار وطلب العفو...

وهكذا نرى أن الأعشى حط من قدر «علقمة» حينما كان طليقاً، ووضعه في مرتبة دنيا بالنسبة إلى بعض وجهاء بني عامر. وعندما أمسى أسيراً، ووقع بين يدي «علقمة» وأضحت حياته، مهددة بالخطر، راح يتملق إلى علقمة، يمدح أهله، ويطلب له أن يرقى في العلى غير منقوص. وبعد العفو، يظل وفياً ويتابع مدحه: يا خير بني عامر...

عودة إلى رواية صاحب الأغاني، وما ذكره «شعراء النصرانية» حول أسر الأعشى وآخرين معه، لنعلم أن الكلبي أودعهم عند شريح في حصنه الأبلق، فاستصرخ الأعشى شريحاً:

شُرَيْحُ لا تترُكَنّي بعدَمَا عَلِقتْ ... حِبَالَكَ اليومَ بعد القِدِّ أظْفَارِي

قد جُلْتُ ما بين بانِقْيَا إلى عَدَنٍ ... وطالَ في العُجْمِ تَرْدَادِي وَتَسْيَارِي

---

(1) ابن منظور ـ لسان العرب 7/ 100 و101.

(2) ابن قتيبة ـ الشعر والشعراء 1/ 182.

فـكـانَ أكْـرَمَـهـمْ عَـهْـداً وأوْثَـقَـهـمْ　　مَـجْـداً أبـوكَ بِـعُـرْفٍ غـيـر إنْـكـارِ
كـالـغـيـثِ مـا استَـمْطَرُوهُ جادَ وَابِلُهُ　　وفي الشَّدَائِدِ كـالـمُسْتَأسِدِ الضَّارِي
كُنْ كـالـسّموألِ إذ طافَ الـهُـمَـامُ بـهِ　　فـي جَـحْـفَـلٍ كَـهَـزِيـعِ الـلَّـيـلِ جَـرَّارِ

. . .

فـاخْـتَـارَ أدْرَاعَـهُ كـي لا يُـسَـبُّ بـهَـا　　ولـم يـكـن وعـدُه فـيـهـا بِـخَـتَّـارِ[1]

يحاول الشاعر استدرار عطف شريح، فيصف حاله مقيداً بأسيار جلدية، وخلاصه بيده، ومن كان أبوه أوفى الناس عهداً وحماية للجار، يأبى إلا أن يلبّي نداء الاستغاثة.

ويبالغ الأعشى في تعداد مناقبه بغية إثارة حميته، فيقول:

لقد طفت الآفاق. . . فلم أر كأبيك وفاء بالعهد وحماية للجار، إذا سئل العطاء انهمر كالغيث، وإذا أعطى عهده دافع عنه دفاع الاسد المفترس، ثم يذكره بوفاء السموأل الذي رضي أن يقتل ولده أمامه، وأبى أن يسلم الدروع، لئلا يوسم خائناً للأمانة.

2 ـ بشر بن أبي خازم

هو بشر بن أبي خازم بن عمرو. . . بن أسد. . . بن مضر بن نزار، شاعر، فارس، فحل جاهلي قديم، كان بشر يهجو «أوس بن حارثة بن لأم الطائي» وذكر امه في بعض هجوه، وكان «أوس» نذر لئن ظفر به ليحرقنه، فأسرته بنو نبهان من طيء، فركب «أوس» اليهم فاستوهبه منهم، فجاء به وأوقد له ناراً ليحرقه. ثم دخل على أمه سعدى وقال: قد أتيتك بالشاعر الذي هجاك، وقد آليت لأقتلنه قتلة تحيين بها.

قالت: يا بني، أو خير من ذلك؟

قال: وما هو؟

---

(1) الاصبهاني ـ الأغاني 9/ 119 ـ شعراء النصرانية ص 361 ـ وقارن بالشعر والشعراء 1/ 182 وما بعدها وديوان الأعشى الكبير ص 229 وموسوعة الشعر العربي 2/ 61.

قالت: انه لم يجد له ناصراً منك، ولا مجيراً عليك، وإنا قوم لا نرى في اصطناع المعروف من بأس، . . . فأرجعه إلى أهله سالماً، فإنّهم أيسوا منه، فإنه لا يغسل هجاءه إلا مدحه.

فخرج اليه، وقال: يا بشر، ما تقول أني فاعل بك؟ فقال بشر:

إني لأرجو منك يا أوسُ نعمةً	وإنّي لأُخرى منك يا أوسُ راهبُ
وإنّي لأمحو بالذي أنا صادقٌ	به كلَّ ما قد قلتُ إذ أنا كاذبُ
فهل نافعي في اليوم عندك أنّني	سأشكر ان أنعمتَ والشكرُ واجبُ
فِدىً لابن سعدى اليوم كلُّ عشيرتي	بني أسد أقصاهُم والأقاربُ
تداركَني أوس بن سعدى بِنعمهِ	وقد أمكَنَتْهُ من يدَيَّ العواقِبُ[1]

لا شك في أن الشاعر تملكه الخوف بعد وقوعه أسيراً بيد «أوس بن حارثة» فكان يتوقع الموت في كل لحظة، فهو في عذاب نفسي مرير. وسؤال أوس: ما تقول أني فاعل بك؟ فتح أمام «بشر» باب الأمل والرجاء، فاندفع يستعطف في جوابه، طالباً التكرم بالعفو ولم يكتمه خوفه واضطرابه، وقد وعده بمحو الهجاء الكاذب بمديح صادق، وهذا نوع من الاغراء، ثم تدرّج مع أوس، فوعده بأنه سيقوم بواجب الشكر له، ويتساءل، هل ان ذلك يكون كافياً لاطلاق سراحه. ويبدو أن «بشر» كان ما يزال في جو الرعب من الموت الماثل أمامه، فاندفع معلناً فداء «أوس» بكل قبيلته، بني أسد، أقرب القربى وأبعدهم، وكأن، تلك كانت الصرخة الأخيرة أو السهم الأخير في جعبته. حينها اعتبر نفسه وصل إلى غايته، وأصبح في عداد الاحرار من الأسر. لذلك قال: طوّقني «أوس» بنعمة الحرية، بعد أن مكّنته صروف الدهر من أسري.

على أثر ذلك، قال «أوس» إنّ أمي «سعدى» التي كنت تهجوها قد أمرت فيك بكذا وكذا. . . وأمر بحل كتافه، وحمله على فرس جواد، ورد

(1) جاد المولى - **أيام العرب في الجاهلية** ص 138 وقارن ببلوغ الارب 1/ 83، **وخزانة الأدب** 2/ 262، **والمفضليات** ص 329 - **وتاريخ الأدب العربي**، فروخ ص 163 - **والشعر والشعراء** 1/ 190، **وموسوعة الشعر العربي** 1/ 441.

عليه ما كان أخذ منه، وأعطاه من ماله مئة من الابل، فرفع «بشر» يده إلى السماء، وقال:

اللهم انت الشاهد على ألا أعود إلى شعر الا أن يكون مدحاً في «أوس بن حارثة» وفيما بعد مدحه بأبيات جاء فيها:

إلى أوس بن حارثة بن لام ليقضي حاجتي فيمن قضاها

فما وطئ الثرى مثل ابن سعدى ولا لبس النعال ولا احتذاها[1]

إن «بشراً» نموذج للشعراء الاسرى، لأن مواقفهم جميعاً متشابهة الملامح والنتائج، ترى الشاعر يوعد ويغيظ ويوغر الصدور ويتحدى أعداءه، يسلبهم مناقبهم ويجمع عليهم المثالب، فيتحرقون للأنتقام منه. فإذا ما أسروه وأصبح على مقربة من الموت، خافوا هم أيضاً أن يبقى من بعده سبّة الدهر. لذلك كانوا يصطنعون الحلم ويمنون عليه بالحياة، فيطأطئ رأسه ويغمره فيض من الشعور بالجميل، وينطلق في المدح، بدافع من الخوف والأمل، وقد أنساه الاحسان العداوة فيأخذ في تمجيد أولئك الذين كان ينالهم للامس القريب، بلسانه وسيفه.

3 ـ جويرة بن بدر الدارمي

هو جويرة بن بدر بن عبد الله بن دارم، ودارم بطن من بني حنظلة بن تميم، من العدنانية[2]، أسر يوم الوقيط[3]، أسره أحد بني عجل بن ربيعة، فلم يزل في الوثاق حتى رآهم ذات يوم قد قعدوا شرباً، فأنشأ يتغنى رافعاً عقيرته:

(1) محمد الالوسي البغدادي بلوغ الارب 1/ 84 ـ جاد المولى ـ **أيام العرب** ص 139 **المفضليات** ص 329 ـ ابن قتيبة ـ **الشعر والشعراء** 1/ 191 ـ عبد القادر بغدادي ـ **خزانة الادب** 2/ 263.

(2) القلقشندي ـ **نهاية الارب في معرفة أنساب العرب** ص 249.

(3) يوم الوقيط: لبكر على تميم، والوقيط: المكان الصلب الذي يستنقع فيه الماء، أطلق على موضع. أيام العرب ص 170 الحاشية، والقصة عن هذا اليوم واردة في **نهاية الارب** للنويري 3/ 154 وقارن **بالامالي** للقالي 1/ 6، **وقصص العرب** 1/ 339.

وقـائـلـة مـا غـالـه أن يـزورنـا	وقد كنت عن تلك الزيارة في شغل
وقـد أدركـتـنـي والـحـوادث جـمّـة	مـخـالـب قـوم لاضـعـاف ولا عـزل

. . .

لـعـلـهـم أن يـمـطـروني بـنـعـمـة	كما صاب ماء المزن في البلد المحل
فـقـد يـنـعـش الله الـفـتـى بـعـد عـثـرة	وقد تبتني الحسنى سراة بني عجل

فلمّا سمعوه أطلقوه[1].

من خلال هذه الأبيات التي نظمها «جويرة» في أسره، نتعرف إلى حالته المضطربة، وإلى قلقه على مصيره، فقد كان مشدود الوثاق، مقيّد الحرّية، بينما آسروه يشربون ويلهون.

ويبدو أن «جويرة» لاحظ دبيب النشوة في الشاربين، اغتنمها فرصة لتحريك العواطف، فأنشد بأعلى صوته أبياتاً يتذكر فيها زوجة مضطربة مرتابة على مصير زوجها لأنه تخلف عن العودة اليها. ثم انه يعلل تأخره بسبب الحوادث الكثيرة التي اعترضته والتي انتهت بالقبض عليه من رجال أشداء كالاسود، فهو يمدحهم بمقدرتهم الحربية وقوتهم وشجاعتهم وهذا النوع من المديح، يرتاح اليه العربي، ثم يتمنى أن يغدقوا عليه نعمة الحرية التي تنعشه وتحييه، كما يحيي ماء المطر التربة بعد الجفاف. وينتقل من التمني إلى التحقيق، قد يشفي الله العليل بعد سقمه، وليس ذلك بغريب، كما أنه ليس من العسير على بني عجل من اطلاق سراحه، فهم أهل لذلك، وكان، أن نجحت خطته وأطلق سراحه.

4 ـ عبد يغوث الحارثي

هو عبد يغوث بن صلاءة، وقيل: بل هو عبد يغوث بن الحارث بن وقّاص بن صلاءة بن. . . يعرب بن قحطان، شاعر جاهلي، كان رجلاً عظيم الجسم جميلاً، وكان كريماً وفارساً معدوداً، وسيداً في قومه بني الحرث بن كعب، وكان قائدهم في يوم الكلاَب الثاني إلى بني تميم وأحلافهم، فقتل

(1) معمر بن المثنى ـ **النقائض** 1/ 308 وما بعدها ـ **أيام العرب** ص 173 الحاشية رقم 2.

وأسر من قومه عدد كبير، ثم وقع هو في الأسر، أسره شخص من بني عمير، أراد عبد يغوث أن يفتدي نفسه فرفض طلبه. وقال آسروه: قتل فارسنا «النعمان بن جسّاس» ولم يقتل من بني الحارث فارس معدود، فلا بد من قتلك بالنعمان. ولما عزموا على قتله شدوا لسانه بنسعة، قيل من خوفهم من هجائه، وشدة السبّ عليهم، وتخوّفهم ان يبقى ذكر ذلك في الاعقاب. فلما لم يجد الشاعر الفارس من الموت بدّاً، طلب اطلاق لسانه لينوح على نفسه، وأن يقتلوه قتلة كريمة، فأجابوا طلبه وسقوه الخمر، وقطعوا له عزقاً يقال له «الاكحل»، وتركوه ينزف وينشد ويموت[1]. وحينها قال قصيدة وجدتها تتألف من عشرين بيتاً في بعض المصادر[2]، ومن أقل من ذلك في مصادر أخرى[3]، وهذه القصيدة امتدحها الجاحظ حيث قال: «ما قرأت في الشعر كشعر عبد يغوث بن صلاءة الحارثي، وطرفة بن العبد، وهدبة بن خشرم، فإن شعرهم في الخوف لا يقصّر عن شعرهم في الأمن. وهذا قليل جداً[4]. وإننا نكتفي بذكر مطلعها مع مقتطفات منها مما يساعد موضوع بحثنا، وهي:

ألاَ لا تـلـوماني كَفَى اللوْمَ ما بِيَا ... وما لـكُـمـا في اللّوم خيرٌ ولا لِيَا

فَـيَـا راكـبـاً إمّـا عَـرَضْـتَ فـبـلّـغَـنْ ... نَـدَامَـايَ مـن نـجـرانَ ألاّ تَـلاقِـيَـا

جـزى الله قـومـي بـالـكُـلاب مَـلامَـةً ... صَـرِيـحَـهُـمُ والآخـريـنَ الـمَـوَالِـيَـا

ولـو شـئـتُ نَجّتْنِي من الخيلِ نهدةٌ ... تَرَى، خَلْفَها، الحُوَّ الجيادَ تَوَالِيَا

ولـكـنّـنِـي أحـمِـي ذِمَـارَ أبـيـكُـمُ ... وكان الرِّمَاحُ يَخْتَطِفْنَ الـمُـحَـامِـيَـا

أقـولُ وقـد شَـدّوا لـسـانـي بِـنِـسـعـةٍ ... أمَـعْـشَـرَ تَـيْـم أطْـلِـقُـوا لـي لِـسَـانِـيَـا

أمَـعْـشَـرَ تَـيْـمٍ قد ملكتُمْ فَأسْجِحُوا ... فَـإنَّ أخـاكُـمْ لـم يَـكُـنْ من بَـوَائِـيَـا

---

(1) الأصبهاني - الأغاني 16/ 328 وما بعدها. لويس شيخو - شعراء النصرانية ص 75 - الجاحظ - البيان والتبيين 3/ 580 - تاريخ الادب العربي - فروخ ص 205 - أيام العرب ص 127 وما بعدها... النقائض 1/ 151 وما بعدها.

(2) المفضليات رقم 30 ص 155 وما بعدها. موسوعة الشعر العربي 3/ 230 - أيام العرب ص 129.

(3) الاصبهاني - الأغاني 16/ 233 - لويس شيخو شعراء النصرانية ص 78 - القالي البغدادي - ذيل الامالي ص 132 - النقائض 1/ 152.

(4) الجاحظ - الحيوان 7/ 157.

فَـان تَـقْـتُـلـونـي تَـقْـتُـلـوا بـي سَـيِّـداً وإنْ تُـطْـلِـقـونِـي تَـحْـرُبُـونـي بِـمَـالِـيَـا
أحَـقّـاً عـبـادَ اللهِ ان لَـسْـتُ سَـامِـعـاً نـشـيـدَ الـرِعـاءِ الـمُـعْـزِبـيـنَ الْـمَـتَـالِـيَـا

. . .

كَـأنّـيَ لـم أرْكَـبْ جَـوَاداً ولـم أقُـلْ لِـخَـيْـلِـيَ: كُـرِّي نَـفِّـسِـي عـن رِجَـالِـيَـا

بدأ عبدَ يغوث قصيدته هذه بنهي صاحبيه عن لومه، وربما يقصد قومه بني الحارث، إذ يكفي ما هو عليه من البلاء، واللّوْم لا يعود على أحد بالخير، ورجا من يأتي العروض (مكة والمدينة وما حولهما، وقيل واليمن أيضاً) ان يبلّغ أصحابه من نجران أن لا لقاء بعد الآن، وهذا يدل على اقتناعه أنه سيقتل، ثم انحى على قومه وحلفائهم باللوم لهزيمتهم يوم الكلاب. وانه لو أراد الهرب والهزيمة، لنجّته فرس أصيلة تسير في المقدمة دائماً، وتترك الخيل الجياد وراءها، ولكنه فضّل البقاء ليحمي الذمار، رغم أن الرماح كانت تصيب المُدافع.

لقد ربط آسروه لسانه بسير يضفر من جلد، أو كمّوه بالنسعة، وربما المقصود معنى مجازياً، أي أن تصرفاتهم معه منعته عن مديحهم، فطلب أن يفعلوا به خيراً ليطلق لسانه بشكرهم.

وخاطبهم قائلاً:

أمّا وأنكم قد ملكتم أمري فكونوا متسامحين، وأنا لم أقتل صاحبكم «النعمان بن جساس» حتى أقتل به، فإن قتلتموني فقد قتلتم سيداً، وان تطلقوا سراحي أعطكم كل ما أملك، ثم صرخ مستفسراً مستنكراً: أحقاً سأقتل ولن أسمع بعد الآن غناء الرّعاة المتنحين بابلهم، وكأني لم أكن ذلك الفارس المقدام الذي يكرّ ليبعد الاعداء عن أصحابه.

يتبين لنا مما تقدم أن «عبد يغوث» الشاعر الأسير، المجهز للقتل يبدأ قصيدته بمطلع وجداني، ثم ينتقل إلى تقريع قومه، ويعرض مناقب رجولته، ثم يحاول أن يجد سبيلاً للعفو عنه بما يشبه الرجاء والتمني واثارة النخوة في رؤوس بني تميم، انه حب الحياة، ثم يعبر عن الحنين إلى جمال الحياة (نشيد الرعاء) وإذ به يبدو عليه اليأس، ويدرك أن حياته الماضية ذهبت هباء فيقول:

كـأنـي لـم أركـب جـواداً، ولـم أقـل لـخيـلـي: كـرّى نـفـسـي عـن رجـالـيـا

5 ـ قيس بن العيزارة الهزلي

العيزارة أمه، وبها يعرف، وهو قيس بن خويلد بن. . . هذيل بن مدركة، أسرته فهم، حينها قال قصيدة من عشرين بيتاً منها:

لَعَمْرُكَ أنسَى رَوْعَتِي يوم أَقْتُدِ وهل تَتْرُكَنْ نفسَ الأسيرِ الرَّوائِعُ
غَدَاةَ تَنَاجَوْا ثم قاموا فَأَجْمَعُوا بِقَتْلِيَ سُلْكَى ليس فيها تَنَازُعُ
وقالُوا عَدُوٌّ مُسْرِفٌ في دمائكمْ وهاجٍ لأعراضِ العشيرةِ قاطِعُ
فَسَكَّنْتَهم بالقَوْلِ حتّى كأنّهمْ بَوَاقِرُ جُلْحٌ أسْكَنَتْها المَراتِعُ
وقُلتُ لهم شاءٌ رَغيبٌ وجامِلٌ وكُلُّكُم من ذلك المالِ شابِعُ

. . .

وقد أمَرَتْ بي رَبَّتِي أُمُّ جُنْدَبٍ لأُقْتَلَ لا يَسْمَعُ بذلك سامِعُ[1]

. . .

وعلى الرغم من قيود الاسر المذلة أبى الشاعر إلا أن يبقى رأسه مرفوعاً فاستهل بقوله: لا أنسى روعتي يوم اقتد (ماء) فلا تدع الأسير يصيبه ما يروعه، حين تشاور بنو فهم؛ واستمر أمرهم على قتلي، وقالوا: اقتلوه لأنه قاطع للرحم مسرف في دمائكم وهجائكم، فإني أسكنتهم واصبحوا كبقر لا قرون لها سكنت وطابت نفسها في المراتع بعد أن قلت لهم: خذوا ما لي الكثير الذي سيكفيكم ودعوني. وكانت امرأة آسره قالت:

اقتلوه سراً فلا يسمع به أحد. ثم انه أفلت منهم وهرب.

واللافت هنا أسلوب الحوار الذي أتبعه قيس للافصاح عن خواطره ومشاعره وهذا مظهر من مظاهر الصدق الفنيّ في أدب السجون.

6 ـ قيسبة بن كلثوم السكونيّ

هو أحد ملوك اليمن، أراد الحج (كانت العرب تحج في الجاهلية فلا يعرض بعضها لبعض في موسم الحج). مرَّ ببني عقيل فوثبوا عليه فأسروه،

---

(1) ديوان الهزليين 3/ 76 ـ المرزباني ـ معجم الشعراء ص 326.

وأخذوا ماله وما كان معه، والقوه في القدّ، فمكث فيه ثلاث سنين، وشاع باليمن أن الجن استطارته. فبينما هو في يوم شديد البرد في بيت عجوز منهم، سمحت له العجوز ليتشمس، فتمشى في أغلاله وقيوده، فعرض له راكب يسير متجهاً نحو اليمن، فوعده بمئة ناقة حمراء ان هو أوصل رسالته إلى أخيه، فكتب اليه بالمسند على خشبة الرحل بوساطة سكين، وليس يكتب به غير أهل اليمن:

بَـلِّـغـا كِـنْـدَةَ الـمـلـوكَ جـمـيـعـاً ... حيثُ سارت بـالأكـرمـيـن الـجِـمـالُ

أنْ رِدُوا الـعَـيْـنَ بـالـخـمِـيـسِ عِـجالاً ... واصْـدُروا عـنـه والـرَّوايـا ثِـقَـالُ

هَـزِئَـتْ جـارتـي وقـالـت عـجـيـبـاً ... إذ رَأتْـنِـي فـي جِـيـدِيَ الأغْـلالُ

إنْ تَـرَيْـنِـي عَـارِيَ الـعـظـامِ أسـيـراً ... قـد بَـرَانـي تَـضَـعْـضُـعٌ واخـتـلالُ

فـلـقـد أقْـدُمُ الـكـتـيـبـةَ بـالـسَّـيْـ ... ـفِ عـلـيَّ الـسـلاحُ والـسَّـرْبَـالُ[1]

وكتب تحت الشعر إلى أخيه ليعطي الرجل (أبو الطمحان القيني) مئة ناقة، فأخذها وعرّف أخاه بمكان وجوده. فسار أخوه على رأس قوة كبيرة إلى بني عقيل فقتل منهم مقتلة عظيمة واستنقذ قيسبة[2]. وكانت مساكن عقيل بالبحرين وهاجروا إلى العراق[3].

واللافت من هذه الحادثة هو بقاء قيسبة مدة ثلاث سنين عند بني عقيل، وفي أثنائها هل كان عندهم مساكن ثابتة، من السهل عليهم وضعه في أحدها؟

وأرى أن صاحب الأغاني، أوقعنا في إشكال حيث يقول:

وكتب بالمسند، وليس يكتب به غير أهل اليمن. ثم يورد الأبيات الخمسة التي ذكرناها.

المهم أن بني عقيل لم يجنوا من إبقاء قيسبة عندهم لمدة ثلاث سنوات سوى القتل والخراب.

هذا ما كان من أمر السجن والأسر في العصر الجاهلي، فكيف كانت الحال في العصر الاسلامي.

---

(1) الأصبهاني - الأغاني 13/ 3 وما بعدها.

(2) الأصبهاني - الأغاني 13/ 6.

(3) جواد علي - المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 4/ 522.

الفصل الثاني

العصر الاسلامي

أ ـ أدب السجن

1 ـ أبو محجن الثقفي

أبو محجن عمرو (وقيل مالك، وقيل حبيب، وقيل عبد الله) بن عمير، من ثقيف، من الطائف، شاعر مخضرم، فارس شجاع معدود في أولي البأس والنجدة، لما حاصر المسلمون الطائف سنة 8 هـ / 629 م، دافع أبو محجن عنها، فلما أسلم أهلها في السنة التالية، أسلم أبو محجن معهم. ولم يترك أبو محجن شرب الخمر، بل ظلّ معاقراً لها، ولما كثر شربه، أقام عمر بن الخطاب عليه الحد مراراً وهو لا ينتهي، فنفاه إلى جزيرة في البحر يقال لها «حضوضي»، وبعث معه حرسياً يقال له «ابن جهراء» فهرب منه على ساحل البحر، ولحق بسعد بن أبي وقاص الذي كان يقاتل العجم يوم القادسية[1].

وكان أبو محجن محبوساً مغلولاً في أسفل القصر الذي كان ينزل فيه سعد، وكان يسمع وقع الحديد وشدة البأس بين المسلمين والعجم، فتأسف على ما يفوته من تلك المواقف، فحبا حتى صعد إلى «سلمى بنت أبي حفصة» وقيل زبراء زوجة سعد، وطلب منها أن تفك قيوده وتعيره البلقاء (فرس سعد) وعاهدها، لئن سلم، رجع حتى تضع رجليه في القيد، فرفضت، فرجع يرسف في قيده وهو يقول:

---

(1) بروكلمان ـ تاريخ الادب العربي 1/ 167 ـ ابن قتيبة ـ الشعر والشعراء 1/ 336 ـ المؤتلف والمختلف ص 95 ـ تاريخ الادب العربي ـ بلاشير 2/ 104 ـ فروخ ـ تاريخ الادب العربي ص 294.

كَفَى حَزَناً أن تَرْدِيَ الخيلُ بالْقَنَا وأُتْـرَكَ مَـشْـدُوداً عـلـيّ وِثَـاقِـيَـا
إذا قـمتُ عنّانِي الحديدُ وغُلِّقَتْ مصاريعُ من دُونِي تُصِمُّ المُنَادِيا
وقـد كـنـتُ ذا مـالٍ كـثـيرٍ وإِخْـوةٍ فـقـد تـركـونـي واحـداً لا أخَـا لِـيَـا
وقد شَفَّ جِسْمِي أنني كلَّ شارِقٍ أعالِجُ كَبْلاً مُصْمتاً قد بَرَانِيا
فَـلِـلّـه دَرِّي يـومَ أُتْـرَكُ مُـوثَـقـاً وَتَـذْهَـلُ عَـنّـي أُسْـرَتـي ورِجـالِـيَـا
حَبِيساً عن الحربِ الْعَوَانِ وقد بدت وإعمالُ غَيْرِي يوم ذَاكَ العَوَالِيَا
وَلِـلّـهِ عَـهْـدٌ لا أخِـيـسُ بِـعَـهْـدِهِ لـئـن فُـرِجَـتْ ألاّ أزورَ الْـحَـوَانِـيَـا[1]

يصف أبو محجن حاله في السجن وهو يرسف في قيده، يسمع وقع الحديد وشدة البأس في معركة كبيرة بين المسلمين والعجم. فتحركه نخوته لقتال الاعداء، وترفض زوجة سعد فك قيوده، فيعود مكسور الخاطر، وتزداد مأساته، إذا حاول النهوض والخروج يقعده ثقل الحديد وتوصد في وجهه الأبواب، وقد كان كثير الأهل والمال فأصبح وحيداً هزيلاً مقيداً، وغيره يخوض غمار حرب قاسية، ثم يقسم بالله لئن أفرج عنه لن يعود إلى شرب الخمر فتأثرت زوجة سعد بشعره ورأت فيه صدق الكلام وقالت:

أني استخرت الله ورضيت بعهدك، فأطلقته، فأبلى بلاء حسناً، وانتصر المسلمون على الفرس، ورجع أبو محجن إلى محبسه، فقال له سعد بعد أن عرف أمره: لاضربتك في الخمر أبداً. قال أبو محجن: وأنا والله لا أشربها أبداً[2].

إن أبا محجن نموذج للانسان المفطور على الصلابة والعناد تمرداً أو تحدياً، وربما كان لا يزال يعيش في مفاهيم الجاهلية في الخمر، حيث كانوا يرون فيها سيماء المروءة والكرم. وطريقة تركه لها كانت بدافع المروءة والشهامة أيضاً.

(1) الأصبهاني. **الأغاني** 19/ 3 وما بعدها. وقارن مع **طبقات فحول الشعراء** ـ ابن سلام 1/ 268 **ومروج الذهب** 2/ 314 وما بعدها.

(2) ابن سلام **طبقات فحول الشعراء** 1/ 269 وقارن مع **مروج الذهب** 2/ 317 **والأغاني** 19/ 7 **والشعر والشعراء** 1/ 337.

2 ـ الحكم بن عبدل

هو الحكم بن عبدل بن جبلة بن. . . أسد بن خزيمة، شاعر مجيد، هجّاء خبيث اللسان من شعراء الدولة الاموية، وكان أعرج، أحدب لا تفارقه عصاه، وكان يذهب إلى الخلفاء والامراء بشعره حتى كبر، فترك الوقوف على أبوابهم، وكان يكتب حاجته على عصاه ويبعث بها مع الرسول، فلا يرد رسوله ولا تؤخر حاجته(1).

كان للحكم بن عبدل صديق أعمى يقال له «أبو عليّة» وكان الحكم قد أقعد، فخرجا ليلة من منزلهما لزيارة بعض أخِوانهما، والحكم يحمل لأنه مقعد، وأبو عليّة يقاد لأنه أعمى، فلقيهما صاحب العسس بالكوفة فأخذهما فحبسهما. فلما استقرّا في السجن نظر «الحكم» إلى عصا أبي عليّة موضوعة إلى جانب عصاه، فضحك وقال:

حَبْسِي وحَبْسُ أبي عُلَيَّـ	ـةَ من أعاجيب الزّمانِ
أعمى يُقادُ ومُقْعَدٌ	لا الرِّجْلُ منه ولا اليَدَانِ
هذا بِلاَ بَصَرٍ هنا	كَ وبي يَخُبُّ الحاملانِ
يا مَنْ رأى ضَبُّ الفلا	ةِ قَرِينَ حُوتٍ في مكانِ
طِرْفِي وطِرْفُ أبي عُلَيَّـ	ـة دهرنا متوافقانِ
من يَفْتخز بجوادِهِ	فجيادُنا عُكّازتانِ. .(2) الخ

وكان اسم أبي عليّة، يحيى، فقال فيه الحكم أيضاً، وفي تصوير حالتيهما، من السجن:

أقولُ ليحيى ليلةَ الحبسِ سادِراً	ونَوْمِي به نَوْمُ الأسيرِ الْمُقَيَّدِ
أعِنِّي على رَعْي النّجومِ وَلَحْظِها	أعِنْكَ على تحبيرِ شعرٍ مُقَصَّدِ

---

(1) قال يحيى بن نوفل في عصا «الحكم»:

عصا حكم في الدار أول داخل	ونحن على الابواب نقصي ونحجب
تطاع فلا تعصى ويحذر سخطها	ويرغب في المرضاة منها وترهب

الأغاني 2/ 404.

(2) الأصبهاني ـ الأغاني 2/ 405.

فـفـي حـالَـتَـيْـنَـا عِـبْـرَةٌ وتَـفـكُّـرٌ   وأعْجَبُ شيءٍ حَبْسُ أعمى ومُقْعَدِ
كِـلانَـا إذا الـعُـكَّـازُ فـارقَ كَـفَّـهُ   يُنِيخ صَرِيعاً أو على الوجه يَسْجُدِ
فَعُكَّازَة تَهْدِي إلى السُّبْلِ أكْمَهاً   وأخرى مَقَامَ الرِّجْلِ قامت مع اليَدِ[1]

وعند الصباح خلّي سبيلهما بعد أن قضيا ليلة شاعرية في السجن، لا شك انها تختلف عن ليالي المساجين، التي عرضناها سابقاً، لما فيها من الطرافة والفكاهة، إنما يبقى السجن سجناً يعاني فيه السجين من حجز لحريته، وبعد عن الأهل والخلاّن، وشيء من الرهبة والخوف، فليس غريباً بقاء «الحكم» وصاحبه «يحيى» سادراً ليلة الحبس، مثله مثل الأسير المقيّد، قلقاً أرقاً يلحظ النجوم ويرعاها.

3 ـ الحطيئة

اسمه «جرول بن أوس بن جؤية بن... عبس بن... عدنان» ولكنه كان ينتسب، حسب الحاجة، إلى قبائل مختلفة في أثناء تجواله، كنيته «أبو مليكة» ولقبه «الحطيئة» وذلك لقصره وقربه من الأرض، شاعر مخضرم، كان جوالاً طفيلياً يمدح الاشراف، ويعتصر منهم العطايا والمنح، أو يهجوهم هجاء مراً لاذعاً إذا قبضوا أيديهم عن العطاء. لم يكن يسلم من لسانه أحد، وهجا أمه وأباه ونفسه، وأكثر من هجاء «الزبرقان بن بدر» فشكاه إلى «عمر بن الخطاب» فسجنه عمر بالمدينة[2]. لأنه أقذع في هجائه بقصيدة تتألف من تسعة عشر بيتاً[3]، حيث يقول:

دَعِ الـمـكـارمَ لا تـرحـلْ لِبُغْـيَـتِـهـا   واقعدْ فإنّكَ أنتَ الطاعِمُ الكَاسِي

وقيل أمر به «عمر» فجعل في نقير في بئر، ثم ألقي عليه شيء. وقيل في حفرة اتخذها محبساً، وقال: يا خبيث لاشغلنك عن أعراض المسلمين.

---

(1) الأصبهاني ـ **الأغاني** 2/ 406.

(2) البغدادي ـ **خزانة الأدب** 1/ 409 ـ الزركلي ـ **الاعلام** 2/ 118 ـ **تاريخ الادب العربي** / بروكلمان 1/ 168 ـ **تاريخ الادب العربي** / بلاشير ص 160 . **تاريخ الأدب العربي** / فروخ 1/ 331.

(3) **ديوان الحطيئة** من رواية ابن حبيب ص 105، ذكر منها صاحب **الأغاني** اثني عشر بيتاً 2/ 184.

فقال الحطيئة في حبسه:

أعــوذُ بِــجَــدّك إنّــي امــرؤٌ سَقَتْنِي الأعـادي إليـكَ السِّجَـالاَ

. . .

تَـحَـنَّـنْ عـلـيَّ هَـدَاكَ الـمـلـيـكُ فَـإنَّ لـكـلّ مـقـام مَـقَـالا

ولا تـأخُـذَنِّـي بـقـولِ الـوُشَـاةِ فإنَّ لـكـلِّ زمـانٍ رِجَـالاَ . [1] الـخ

فلم يلتفت اليه عمر حتى قال:

مـاذا تـقـولُ لأفـراخٍ بـذي مَـرَخٍ حُمْرِ الْحَواصلِ، لا ماءٌ ولا شَجَرُ؟

أَلْقَيْتَ كاسِبَهُمْ في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ فَاغفر، عليكَ سلامُ الله يا عُمَرُ

أنتِ الإمامُ الذي من بعد صاحِبِهِ ألقى إليكَ مقاليدَ النُّهَى البَشَرُ

ما آثَرُوكَ بها إذ بايَعُوكَ لها لكنْ لأنفسِهم كانتْ بِكَ الإثَرُ

فخلّى عمر سبيل الحطيئة وأخذ عليه ألا يهجو أحداً من المسلمين بعد أن اشترى منه أعراضهم بثلاثة آلاف درهم يستغني بها عن الهجاء[2].

كان الحطيئة يستخدم الهجاء وسيلة لابتزاز الناس، وكان للزبرقان حظ من هجائه المقذع، فاحتكم إلى عمر الذي أمر بحبسه، ومن الحبس أخذ الحطيئة يستعطف عمر، ويحاول التنصّل من المسؤولية، ملقياً اللوم على الوشاة والحساد، وهذه الظاهرة نلاحظها عند كثير من الشعراء المساجين، لم يأبه عمر لهذا الكلام، فلجأ الحطيئة إلى أسلوب آخر من الاستعطاف، لاطلاق سراحه، يخاطب عمر، الخليفة العادل، الذي يعتبر نفسه مسؤولاً أمام الله عن كل فرد من أفراد رعيته، وعليه أن يوصل إلى كل ذي حق حقه. فكأن الحطيئة يناقشه: ماذا تقول لاطفال صغار تركتهم بأرض لا ماء فيها ولا شجر، وليس

---

(1) الأصبهاني ـ **الأغاني** 2/ 187 حيث ذكر ستة أبيات وقارن مع **ديوان الحطيئة** ص 67، حيث توجد قصيدة مؤلفة من 29 بيتاً وكذلك في **جمهرة أشعار العرب** ص 153 مع شيء من التحريف.

(2) ابن سلام الجمحي ـ **طبقات فحول الشعراء** 1/ 116 وقارن مع **الأغاني** 2/ 186 حيث هناك استبدال بعض الكلمات بمرادفاتها، وكذلك **ديوان الحطيئة** ص 164 **ودائرة المعارف** 7/ 106، **والكامل** للمبرد 1/ 353 ـ أما ابن قتيبة فذكر بيتين فقط، **الشعر والشعراء** 1/ 245.

عندهم ما يقوتهم، وحبست من يسعى لهم بقوتهم في سجن مظلم، وأنت الامام العادل؟ وكأني به يقول: إن لم أكن أستحق العطف والعفو، فليكن ذلك من أجَل أولئك الاطفال البائسين. وهكذا نجح الحطيئة وبلغ غايته إذ رقّ له قلب عمر، فأفرج عنه.

واللافت هنا دور الدولة في الحد من تمادي الشعراء في الهجاء المقذع، فأصبحت نصيراً لمن أصابه حيْف أو عدوان.

4 ـ عبد الله بن عمر (العرجي)

هو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان... لقبه «العرجي» لأنه كان يسكن «عرج الطائف» وكان من شعراء قريش، وممن شهر بالغزل منهم، ونحا نحو عمر بن أبي ربيعة في ذلك وتشبه به فأجاد، وكان مشغوفاً باللهو والصيد، قليل المبالاة والاكتراث بأحد، وكان أشقر جميل الوجه. شبّب بجيداء أم محمد بن هشام المخزومي، ليفضح ابنها لا لمحبة كانت بينهما، ومما قاله فيها:

عُوجي علينا رَبَّةَ الهَوْدَجِ   إنَّكِ إنْ لا تَفْعَلي تَحْرَجي

...

نَقْضِ إليكم حاجةً أو نَقُلْ   هل لِيَ مِمَّا بِيَ من مَخْرَجِ

وشبّب في زوجة محمد بن هشام أيضاً وتدعى جبرة، ومما قاله فيها:

عُوجِي عليَّ فسَلّمي جَبْرُ   فِيمَ الصُّدودُ وأنتمُ سَفْرُ

ما نَلْتَقِي إلاّ ثَلاثَ مِنىً   حتى يُفَرِّقَ بينَنا النَّفْرُ... الخ

ولما ولي محمد بن هشام مكة وكتب اليه هشام بن عبد الملك أن يحج بالناس، هجاه «العرجي» هجاء كثيراً فأحفظه. فلما وجد عليه سبيلاً ضربه ضرباً مبرحاً، ثم أقسم ألا يخرج من السجن ما دام له سلطان، فمكث العرجي في السجن نحواً من تسع سنوات حتى مات.

لما أخذ محمد بن هشام «العرجي»، جلده وصبّ الزيت على رأسه وأقامه في الشمس على البلس في الحناطين بمكة، فجعل «العرجي» ينشد:

سينصُرني الخليفةُ بعد رَبِّي ... ويغضَبُ حين يُخبَرُ عن مَساقِي
عليَّ عباءَةٌ بَلْقاءُ ليست ... مع البَلْوَى تُغَيِّبُ نِصْفَ سَاقِي
وتغضَبُ لي بأجمعِها قُصَيٌّ ... قَطِينُ البيتِ والدُّمْثِ الرِّقَاقِ[1]

وقال العرجي في حبسه:

أضاعُوني وأيَّ فتىً أضَاعُوا ... ليوم كَريهةٍ وسِدَادِ ثَغْرَ
وصبرٍ عندَ مُعْتَرَكِ المنايا ... وقد شُرِعَتْ أسِنَّتُها بِنَحْري
أُجَرَّرُ في الجَوَامِعِ كلَّ يوم ... فَيَا للهِ مَظْلِمَتِي وَصَبْري
كَأنِّي لم أكُنْ فيهم وَسِيطاً ... ولم تَكُ نِسْبَتِي في آلِ عَمْرِو[2]

شعر «العرجي» بألم التعذيب، والذل والهوان في سجن «محمد بن هشام» بعد أن كان قد تعود حياة الترف واللهو والصيد، فأخذ يستعطف الخليفة وهو على يقين من أنه سينصره، بل سيغضب لأجله وينتقم ممن سجنه وأذله، وهو يلجأ إلى الكشف عن أوضاعه وحالته البائسة، عباءته البيضاء، سوداء من الوسخ وهذا يدل على أنها الوحيدة التي يستعملها، ومع ذلك فهي قصيرة جداً، تغطي نصف ساقه، ثم كأنه يلجأ إلى نوع من التهديد، إذا لم يفرج عنه، سيغضب أهله ويثورون وكذلك جميع أفراد قبيلته.

لم يهتم الخليفة، ولم تثر القبيلة، على الرغم من تعرض «العرجي» لأبشع أنواع التنكيل والتعذيب. وتمر الليالي والأيام، وتكاد تنتهي السنوات التسع، فيدب اليأس في نفسه، إلى حد أنه بات يشعر بدنو أجله، فيصرخ قائلاً: أضاعوني وأي فتى أضاعوا...

ويتذكر، ويذكّر ببطولاته وفروسيته، ثم يعرض حالته الحاضرة راسفاً بقيوده، منسياً، مهملاً من الأهل، ويصل اليأس إلى ذروته، ويصل إلى قناعة

---

(1) الأصبهاني ـ **الأغاني** 1/ 413 وما بعدها. وقارن مع: **تاريخ الأدب العربي** بروكلمان ص 198 و**تاريخ الأدب العربي** فروخ 1/ 680.

(2) الأصبهاني ـ **الأغاني** 1/ 413 **تاريخ الأدب العربي** / فروخ 1/ 682 ـ ابن قتيبة **الشعر والشعراء** 2/ 478 ذكر بيتين فقط: البيت الأخير ثم البيت الأول ـ **الوطن في الشعر العربي** ـ 5. وهيب طنوس، كلية الآداب ـ حلب ـ الطبعة الأولى 1975 ـ 1976 ص 348.

هي أن لا ملجأ إلا إلى الله، وهذا ما حصل، وانتقلت روحه إلى بارئها.

لم يكن العرجي الوحيد بين الشعراء، الذين ماتوا في السجن، فكم من شاعر قضى نحبه في الحبوس، في العصر الجاهلي وكذلك في العصر الاسلامي.

5 ـ عبيد الله بن الحر الجعفي[1]

هو من بني مذُحج، ولد ونشأ بالكوفة، وكان في صدر شبابه من أفضل قومه صلاحاً وصلاة واجتهاداً واجتناباً للفواحش، كما كان من شجعانهم وفرسانهم المعدودين. وكان رجلاً لا يعطي للأمراء طاعة، حريصاً على أن يستقل بأمره، لذلك ساءت علاقاته بمعاوية وعليّ وابن زياد، والمختار وكان المختار الثقفي قد هابه، فتعرض له فقاتله ابن الحر. ولما جاء مصعب بن الزبير إلى العراق، انضم اليه ابن الحر، مكايدة للمختار، وعاضده في القضاء عليه، وكتب ذلك على «ابن الحر» أن ينغمس في منافسات السياسة ومتاعبها. على الرغم من المنزلة التي أصابها عند «مصعب» لم يستطع الاحتفاظ بالصفاء بينه وبين الأمير. وكان هو من الرجال الذين لا يحسنون الانتفاع من القصر بالاغضاء عما لا يروقهم من تصرفات الأمير أحياناً، ولذلك استاء ابن الحر من رؤية بعض رجالات البصرة يقدمون عليه في الاذن على مصعب، وهذا ما عبر عنه بقوله:

...

أفِي الْحقِّ أنْ أُجْفَى ويَجْعَلَ مُصْعَبٌ وَزِيـرَيْـهِ مَـنْ قـد كـنـتُ فيـه أُحـارِبُـهْ

...

(1) هو عبيد الله بن الحر بن عمرو الجعفي، من بني سعد العشيرة، من الكوفة، شهد القادسية يافعاً، وكان شجاعاً فاتكاً، صار مع معاوية بن أبي سفيان، فلم يرض فرديته ومنهجيته، فانحاز إلى العراق، ولم يدخل في الصراع بينه وبين علي، سأله الحسين مناصرته قبيل كربلاء فأبى أن يعينه ونصحه بالعودة ثم ندم على تقصيره في القتال معه، رفض مبايعة المختار، وطلبه ابن زياد، فامتنع بمكان على شاطئ الفرات والتف حوله جمع، ثم ساعد مصعب بن الزبير الذي خاف أن ينقلب عليه فحبسه ثم شفع له وأطلقه، فحقدها ابن الحر، وراح يقاتل مصعباً إلى أن قتل سنة 68 هـ. الاعلام 4/ 192.

جَفَا مُصْعَبٌ عَنّي ولو كان غيرَهُ   لأصْبَحَ فيما بيننا لا أُعاتِبُهْ
لقد رابَنِي من مُصعَب أنَّ مُصْعَباً   أرَى كُلَّ ذِي غِشٍّ لنا هو صاحبُهْ

. . .

إذا قمتُ عند البابِ أُدْخِلَ مُسْلِمٌ   ويمنعُني أنْ أَدْخُلَ البابَ حاجبُهْ[1]

هذا الشعور بالاستياء حمل «ابن الحر» على التباعد برجاله والانزواء بعيداً من غير أن يحدث ما يريب. غير أن رحيله اراب «مصعباً» وترك الساحة خالية لأعداء «ابن الحر» ليشككوا في ولائه وليخوفوا من فتكاته.

وكان «مصعب» أميراً قوياً لا يرضى بميوعة الطاعة، ويخشى أية معركة جانبية، وهو يستعد لمحاربة عبد الملك بن مروان، فاحتال على «ابن الحر» الذي ركب إلى زيارته فأمر به إلى السجن، فقال «ابن الحر»:

مَن مُبْلِغُ الفتيانِ أنَّ أخاهُمُ   أتى دونَهُ بابٌ شديدٌ وحاجبُهْ
بمنزلةٍ ما كان يَرْضَى بمثلها   إذا قامَ عَنَّتْهُ كبولٌ تُجاوِبُهْ
على السّاقِ فوقَ الكعبِ أسْوَدُ صامتٌ   شديدٌ يُداني خطوَهُ ويُقارِبُهْ
وما كان ذا من عُظْمِ جُرْمٍ جَنَيْتُهُ   ولكن سَعى السَّاعِي بما هو كاذِبُهْ
وقد كان في الأرضِ العريضةِ مَسْلَكٌ   وأيُّ امرئٍ ضاقَتْ عليه مذاهِبُهْ
وفي الدّهرِ والأيامِ للمرءِ عِبْرَةٌ   وفيما مضى إن نابَ يوماً نَوَائِبُهْ[2]

سبق لابن الحر أن أغار مع فتيانه على سجن الكوفة وكسر باب السجن وقتل الحراس وأطلق سراح المسجونين فيه وأنقذ امرأته التي كان «المختار» حبسها انتقاماً من «ابن الحر». وهو في قصيدته هذه يريد إبلاغ الفتيان بأنه مسجون في حبس بابه غليظ وعليه حارس، فهل يبغي من وراء هذا الابلاغ أن يعمد الفتيان على إنقاذه، كما سبق وأنقذوا زوجته؟

ثم نحس بالمرارة تطفح من شعره حين يقول: بمنزلة ما كان يرضى

---

(1) تاريخ الطبري 6/ 136، وقارن مع الاخبار الطوال ص 297 الشعراء الصعاليك في العصر الاموي - عطوان ص 183 وما بعدها. والخزانة 1/ 297 وما بعدها.

(2) تاريخ الطبري 6/ 131 وقارن بالكامل في التاريخ لابن الأثير 4/ 290 وما بعدها.

بمثلها. وهذا يدل أيضاً على اعتزازه بنفسه، ثم ينتقل إلى وصف القيود والأغلال الثقيلة المشدودة التي كانت تفرض عليه المشي المتقارب، وكل ذلك حصل له، مع أنه لم يرتكب جرماً، وإنما كانت وشاية كاذبة من الحساد والمنافقين. وأخيراً يلوم نفسه لوفودها على «ابن الزبير» حتى حبسه، متخذاً من هذه الحالة عبرة وعظة للمستقبل.

وقال لمصعب وهو في حبسه، وكان قد حبس معه «عطية بن عمرو البكري» فخرج، عطية، فقال «عبيد الله بن الحر»:

أقولُ له صبراً عَطِيُّ فإنّما	هو السّجن حتى يجعلَ اللهُ مَخْرَجا
أرَى الدّهرَ لي يومين يوماً مُطَرّداً	شَريداً ويوماً في المُلوكِ مُتَوَّجا
أتَطْعَنُ في دِيني غَداةَ أتَيْتُكمْ	ولِلدِّين تُدْنِي الباهليّ وَحَشْرَجَا
ألم تَرَ أنَّ المُلْكَ قد شِينَ وجهُهُ	وَنَبْعُ بلادِ اللهِ قد صارَ عَوْسَجَا[1]

على غير ما عهدنا عند المحبوسين لا يستعطف ابن الحر مصعباً وهو في حبسه، لكي يعفو عنه، بل يقيم الحجة عليه، ويستنكر سياسته في أبعاده له، وشكه فيه وتقريبه لسواه، مما أضعف حكومته.

وأخيراً، جاء قوم من «مذحج» فدخلوا على «مصعب» فكلموه بأمر «ابن الحر» فشفعهم به، وأطلقه من سجنه.

وينسب إلى ابن الحر أنه قال حين خرج من الحبس:

لا كُوفَةٌ أُمّي ولا بَصْرَةٌ أبي	ولا أنا يَثْنِينِي عن الرِّحْلَةِ الكَسَلْ
فلا تَحْسَبَنّي ابنَ الزبيرِ كَنَاعِسٍ	إذا حَلَّ أغْفَى أو يُقالُ لهُ ارْتَحِلْ
فَإنْ لم أُزِرْكَ الخيلَ تَرْدِي عَوَابِساً	بِفُرْسَانِها لا أُدْعَ بالحازِمِ البَطَلْ[2]

...

وهي طويلة.

فانطلق ابن الحر يعيث في نواحي العراق فساداً، فتظاهر عليه «مصعب»

(1) تاريخ الطبري 6/ 136.

(2) تاريخ الطبري 6/ 132.

و«المهلّب بن أبي «صفرة» فلم يظفرا به، ثم ان الموت جاءه، إذ بيّته عدوه الكثير، وهو في نفر قليل، فلما لم يجد من الموت بداً، ألقى بنفسه في الماء غير مستسلم وجراحه تشخب دماً[1]. وبذلك طويت صفحة رجل متمرد طبعاً وجبلة، ينفر من أية سلطة، وينفلت من أي نظام، لمنافاته لطبيعته المتعشقة للحرية وللانفلات في الأرض، انها النفس المفطورة على التفرد والاستقلال، وهي نفس بطولية نادرة النظير، لو وضعتها الاقدار على رأس جيش نظامي لكان لصاحبها شأن آخر لما شهر به من البأس والاقدام والنفس الطويل في الحرب.

6 ـ الفرزدق[2]

هو همام بن غالب بن صعصعة من دارم، فمن تميم، كنيته أبو فراس، ولقبه الفرزدق. أبصر الفرزدق النور في البصرة وترعرع في باديتها، لذلك كانت طبائعه طبائع أهل البادية. وكانت ولادته نحو 20 هـ / 642 م ووفاته حوالي سنة 114 هـ / 732 م[3].

كان للفرزدق من أمجاد قومه ومفاخرهم ما ملأ نفسه عجباً وتيهاً، وفسح له في مجال الفخر: فأبوه غالب كان أحد أجواد العرب، وهو من فرع قوي من بني تميم، فكان الفخر أساساً يبني عليه هجاءه، وكان شعره جزلاً فخماً، لكنه صلب الألفاظ خشنها، وعن جرير أنه قال: نبعة الشعر الفرزدق[4].

لما عزل الخليفة هشام، عمر بن هبيرة عن العراق وما كان إليه من عمل المشرق، كلّف بذلك خالد بن عبد الله القسري اليمني، مما أثار بني تميم

(1) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** 4/ 294 وقارن **بتاريخ الطبري** 6/ 135، **والخزانة** 1/ 299.

(2) الفرزدق جمع فرزدقة وهي القطعة من العجين وقيل له ذلك لأنه كان جهم الوجه، وقيل لغلظه وقصره، وشبه بالفتيتة التي تشربها النساء، وهي الفرزدقية، وقيل لغلظ وجهه وشبهه بالرغيف الضخم المجفف للفتوت.

(3) **الشعر والشعراء** 1/ 381 وما بعدها وقارن مع **شرح ديوان الفرزدق** / جيمس د. سايمز ص 5 **وشرح ديوان الحماسة لأبي تمام** 2/ 109 ـ **وتاريخ الادب العربي**، فروخ ص 649.

(4) ابن سلام **طبقات فحول الشعراء** 1/ 299 وقارن مع **ديوان الفرزدق** ـ دار صعب 1/ 5 وما بعدها.

وشاعرهم الفرزدق، وكان للمواجهة التي تمت بين خالد القسري وعمر الاسيدي زعيم تميم في حضرة هشام، حيث أطنب عمر في هجاء اليمن، آثارها البعيدة في علاقة الطرفين، فحين وجد فرصة سانحة قبض خالد على عمر الأسيدي الذي مات تحت الضرب، فانفجر الفرزدق حقداً وانطلق يهجو خالداً مستغلاً ما عرف عن امه من أنها مسيحية من بلاد الروم، قائلا[1]:

ألا قطع الرحمن ظهر مطيّة | أتتنا تهادي من دمشق بخالد
وكيف يؤم الناس من كانت أمه | تدين بأن الله ليس بواحد
بنى بيعة فيها الصليب لأمه | وهدّم من كُفرٍ منار المساجد

ومما قاله أيضاً:

ألم يَكُ قتلُ عبدِ الْقيسِ ظُلْماً | أبَا حَفْصٍ مِنَ الْحُرَمِ العِظَام
قتيلُ عَدَاوَةٍ، لم يَجْنِ ذَنْباً، | يُقَطَّعُ، وهو يَهْتِفُ بالامام[2]

وقد بلغت الامور ذروتها حين حبس خالد القسري، نصراً بن سيار الكناني، فصاح الفرزدق في تحدٍ وضيق:

أخَالِدُ لولا الدِّينُ لم تُعْطَ طاعَةً | ولولا بَنُو مَرْوَانَ لم تُوثِقُوا نَصْرَا[3]

كما أن الفرزدق هجا خالداً القسري وذكر المبارك: النهر الذي حفره بواسط، فبلغه ذلك، وكتب إلى مالك بن المنذر (رئيس شرطة البصرة) أن احبس الفرزدق، فإنه هجا نهر أمير المؤمنين بقوله:

أهلكتَ مَالَ اللهِ في غيرِ حقِّهِ | على نهرِكَ المشؤومِ غير الْمُبَارَكِ[4]

ولما قبض عليه وأدخل على «مالك»، انتفخ وريد مالك غضباً، فقال الفرزدق:

---

(1) **الطبري 7/ 26** وما بعدها وقارن مع **شعر البصرة في العصر الأموي** ـ تأليف د. عون الشريف قاسم ـ دار الثقافة ـ بيروت 1972 ـ ص 191. حيث يوجد بعض التحريف **ورغبة الآمل من كتاب الكامل 2/** 76 الحاشية.

(2) **ديوان الفرزدق 2/** 276 ـ **شعر البصرة** ص 193.

(3) **ديوان الفرزدق 1/** 323 ـ **شعر البصرة** ص 197.

(4) **رغبة الآمل من كتاب الكامل 2/** 76 الحاشية ـ **طبقات فحول الشعراء 1/** 347، **الهجاء والهجاؤون** ص 221.

أقولُ لنفسي حين غَصَّت بريقها ألا ليتَ شِعْرِي ما لَها عندَ مالكِ؟
لها عندَهُ أن يَرْجِعَ اللهُ رُوحَها إليها، وتَنْجُو من جميع المهالِكِ
وأنتَ ابنُ جَبَّارَيْ ربيعةَ أدركتْ بك الشمسُ والخضراءُ ذاتَ الحبائك[1]

يبدو أن الفرزدق كان مغروراً شديد الاعتداد بنفسه وبقومه، مما دفعه للاسراف في الهجاء، لذلك ساءت علاقته بكل ولاة العراق، ولم يسلم من هجائه منهم أحد، إلا أنه كان في الوقت نفسه جباناً، فهو ما ان قبض عليه حتى خارت قواه، وانهار حين رأى الغضب على وجه مالك، فانقبض من الخوف حتى تعذر عليه بلع ريقه، وأحس فوراً بدنو أجله، لذلك راح يستعطف مالكاً، ويغالي بمدحه، وهو الذي كان منذ هنيهة يمطره وأميره وحتى الخليفة بوابل من الهجاء اللاذع.

تمكن الفرزدق من إسكان ثورة الغضب عند مالك بمديحه، لذلك أمر به إلى السجن، وجن جنونه في الحبس فصار يقول القصيدة تلو القصيدة، فمدح مالكاً، وكانت أم مالك هذا بنت مالك بن مسمع، قال:

وقِرْمِ بين أولاد المُعَلَّى وأولاد المسامعَةِ الكرام
تَخَمَّطَ في ربيعة بين بكر وعبد القيس في الحسب اللُّهام[2]

ولما لم تنفعه مديحة مالك، وأصبح شاعرنا المتمرد، في موقف الضعف والمدافعة تحت رحمة من كان يشوى ظهورهم بالهجاء، عاد إلى الاطناب في مدح مالك وقومه، فهو يصوره في صفات تثير المهابة والخوف، يقول:

إذا مالكٌ ألْقَى العِمَامَةَ فاحْذَرُوا بَوَادِرَ كَفَّيْ مالكٍ حين يَغْضَبُ
فإنَّهما إنْ يَظْلِمَاكَ، ففيهما نَكالٌ لِعُرْيانِ العذابِ عَصَبْصَبُ[3]

---

(1) **الأغاني** 21/ 331 وقارن مع **ديوان الفرزدق** 2/ 56 حيث يوجد بعض التحريف.

(2) **الأغاني** 21/ 333، تخمط أصله بمعنى تتكبر وتتعالى، الحسب اللهام: الذي يلتهم كل حسب غيره، ويغطي عليه.

(3) **ديوان الفرزدق** 1/ 30 ـ **شعر البصرة** ص 196 النكال: اسم لما يجعل عبرة لغيره. عصبصب: شديد.

ثم يجسم خوف الناس من مالك في كلمات حية:

رأيتُ أبا غسّانَ علّقَ سيفَهُ على كاهِلٍ شَغْبٍ على منْ يُشَاغِبُهْ
ترى الناسَ كالدَّمْعَى لهُ وقلوبُهم تَنَدَّى، وما فيهم عَريبٌ يُخاطِبُهْ
أَذَلَّ بهِ اللهُ الذي كانَ ظالماً وعزَّ بِهِ المظلومُ واشتدَّ جانِبُهْ... الخ[1]

لم يفده كل ذلك، فأخذ ينفي عن نفسه التهمة، ويلجأ إلى القسم، ويطنب في تصوير سوء حاله في السجن ليستدر عطف مالك، فيقول:

حَلَفْتُ بِرَبِّ الجارياتِ إذا جَرَتْ وحيثُ دَنَتْ من مَرْوَةَ البيتِ زَمْزَمُ
لَمَا زَادَنِي من خَشْيةٍ، إذ حَبَسْتَنِي، على الخَشْيَةِ الأولى التي كنتَ تَعْلَمُ

...

أعوذُ بقبرٍ فيه أكفانُ مُنْذِرٍ، وهنَّ لأيْدِي المُسْتَجيرينَ مَحْرَمُ
ألَمْ تَرَني ناديْتُ بالصَّوْتِ مالِكاً، لِيسمعَ لما غَصَّ بالرِّيقَةِ الفَمُ
ستعلمُ أنَّ الكاذِبينَ، إذا افْتَرَوْا علَيَّ، إذا كُرَّ الْحديثُ المُرَجَّمُ

...

فَهَلْ يُخْرِجَنِّي مُنْذِرٌ من مُخَيِّس، وعُذْرٌ به لي صوتُهُ يَتَكَلَّمُ

...

وكيفَ بمن خمسونَ قيداً وحلقةً عليهِ مع اللَّيلِ الذي هو أدْهَمُ
أبيتُ أُقَاسِي اللَّيلَ والقومُ منهمُ معي سَاهِرٌ لي لا ينامُ ونُوَّمُ
ولو أنَّها صُمُّ الجبالِ تَحَمَّلَتْ كما حَمَلَتْ رِجْلايَ كادَتْ تُحَطَّمُ

...

وَعَلَّمنِي مَشْيَ المُقَيَّدِ خالدٌ، وما كنتُ أدنَى خَطْوِهِ أتَعَلَّمُ
أقولُ لِرِجْليَّ اللَّتَيْنِ عليهما عُرىً وحديدٌ يَحْبِسُ الْخَطْوَ أبْهَمُ:
أما في بَنِي الجارودِ مِنْ رَائِحٍ لنا كما راحَ دُفَّاعُ الفُراتِ المُثَلَّمُ

...

(1) عون الشريف قاسم ـ شعر البصرة ص 196 ـ ديوان الفرزدق 1/ 70.

عَسى اللهُ أن يَرْتاحَ لي، فَيَكُفَّنِي   بِرَحْمَةِ مَنْ هو مِنْ أبي هو أرْحَمُ[1]

...

لم ييأس الفرزدق ولم يقنط، بل ظل مثابراً، سالكاً مختلف الطرق، لعله يصل إلى مبتغاه، وهو إطلاق سراحه، وسيلته لسانه وقصائده، وهو في هذه القصيدة يجدد محاولته ويلجأ إلى القسم معلناً تقديره لمالك وهذا التقدير ليس جديداً لأنه محبوس، وإنما كان قبل الحبس.

ولما بحّ صوته، وجف ريقه، من دون جدوى، لجأ إلى أسلوب جديد، طرق أبواب الأموات مستعيذاً بقبر «منذر» أبي مالك، ممسكاً بأكفانه، مستجيراً بها، ثم عاد يلقي اللوم على الوشاة الكاذبين، شأنه في ذلك شأن معظم الشعراء المساجين، وهو بذلك كأنما ينكر ما نسب اليه، وينفي عن نفسه التهمة.

وبعدها يتساءل إن كان «منذر» سيطلق سراحه، ويعد مالك بأنه سيكون لسانه الناطق باسمه، فهو يحاول إغراءه بشعره ومدائحه.

ويعود إلى الاطناب في تصوير سوء حاله في السجن ليستدر عطف مالك، فيخبرنا انه يعاني من خمسين قيد وحلقة، يبيت ساهراً من الألم والعذاب، وأحياناً يسهر معه بعض السجناء رأفة به، بينما ينام البعض الآخر، إن مأساته كبيرة خصوصاً فيما تعانيه رجلاه من القيود والاغلال التي لو كانت على الجبال الصمِّ لتحطمت.

ثم يتحرش بالأمير «خالد» الذي أمر «مالكاً» بسجنه، قائلاً انه هو السبب في تعليمه مشي المقيد، أي الخطى المتثاقلة الوئيدة المتقاربة، وهذا دليل على كثرة القيود والاغلال وعظم وزنها، مما يمنعه من رفع قدمه كما هي العادة في الحالة الطبيعية. لا شك في أن معظم المساجين يقيدون، ويربطون بالاغلال، وقد تحدث عنها الشعراء وأفاضوا إنما لم يذكر واحد منهم تعليم مشي المقيد، لذلك كان الفرزدق سباقاً في هذا المضمار.

---

(1) **ديوان الفرزدق** 2/ 249 وقارن مع **شعر البصرة** ص 197 حيث اقتطف أحد عشر بيتاً من أصل سبعة وثلاثين بيتاً في الديوان. ومع **الأغاني** 21/ 379 حيث ذكر بيتين فقط هما الثالث والرابع حيث قدم الرابع وأخر الثالث.

ثم يستنجد ببني الجارود[1]، ويلجأ إلى الله أخيراً، يسأله العفو، وان يمن عليه فهو أرحم من الوالد على ولده.

ويقول الفرزدق في قصيدة أخرى يمدح فيها مالكاً ويستعطفه:

...

إنّي بِذِمَّةِ مالكٍ وبمنذرٍ   بِألاكَ مُخْتَرِسٌ لكلّ مَحُولِ

وإذا حُمِلْتُ إلى الصَّلاةِ كأنّني   عِبءٌ يَمِيلُ بِعَدْلِهِ المعدولِ

يمشي الرّجالُ به على أيديهم،   للهِ دَرُّ مُقَيَّدٍ مَحْمُولِ

...

ثم يوجه كلامه إلى مالك فيقول:

فَتَجُزُّ ناصيتي، وتُفْرِجَ كُرْبَتِي   عَنِّي، وَتُطْلِقَ لي يداكَ كُبُولِي[2]

...

إن جزّ الناصية، يعني قص الشعر للاسير في مقدمة الرأس، وهذه العادة كانت متبعة خصوصاً في الجاهلية، والاسير هذا يصبح عتيقاً للآسر ومذلولاً له حتى يموت، ان الفرزدق يجهد فكره ونفسه، مفتشاً عن أية وسيلة تساعده على فك قيوده وإخراجه من السجن، إن كان ذلك بجز ناصيته أو بغير ذلك.

ومن سجنه المظلم، من وراء القضبان، تتفجر شاعرية الفرزدق، وهو يعاني من الآلام المبرحة من القيود التي يرسف بها، وهي تعييه عن الوقوف والمشي، فيقذف إلى الخارج القصيدة تلو القصيدة، منها ما ذكرناه إلى مالك بن المنذر عامل الشرطة على البصرة، ولما لم يصل إلى غايته توجه إلى أميره «خالد القسري» بقوله:

ألِكْنِي إلى رَاعي الْخليفةِ والّذي   له الأُفُقُ والأرضُ العريضةُ نَوَّرَا

---

(1) الجارود هو بشر بن حنش أو بشر بن عمرو بن حنش كان سيد بني عبد القيس. ومالك (أمير الشرطة) هو مالك بن المنذر بن الجارود. عن **رغبة الآمل من كتاب الكامل** 2/ 76 الحاشية.

(2) **ديوان الفرزدق** 2/ 121 وقارن مع **الأغاني** 21/ 333 حيث ذكر ستة أبيات فقط من أصل واحد وثلاثين بيتاً في الديوان.

. . .

لقد زعموا أنّي هَجَوْتُ لخالدٍ   لهُ كلُّ نهرٍ للمُبَارَكِ أكْدَرَا

. . .

إذا قالَ رَاوٍ من مَعَدٍّ قصيدةً   بها جَرَبٌ كانتْ عليَّ بِزَوْبَرَا
أيَنطِقُها غيري وأُرمى بِعَيْبِها   فكيف ألومُ الدَّهرَ أنْ يتغيَّرَا[1]

. . .

إن الفرزدق يوجه رسالته إلى راعي الخليفة، خالد بن عبد الله القسري، الذي شق نهر المبارك، ويتنصل مما نسب اليه من هجائه وهجاء النهر، ومعلناً أن غيره هو الذي نطق بذاك الشعر الهجائي، ولا يجوز أن يتحمل هو مسؤوليته.

ثم لا يفتأ يذكر الفوائد التي تعود على الناس من حفر النهر حيث يقول في قصيدة أخرى:

. . .

أُعْطِي خليفَتُنَا، بِقُوَّةِ خالدٍ،   نهراً يفيضُ له على الأنهارِ
إنَّ المبارَكَ كَاسْمِهِ يُسْقَى بهِ   حَرْثُ الطعامِ ولا جِقُّ الجَبّارِ[2]

. . .

لمَّا تَدَارَكَ للمُبَارَكِ مَدُّهُ   رَخُصَ الطعامُ لِمَايِحٍ وَتِجَارِ

. . .

يا دِجْلَ إنَّكِ لو عَصَيْتِ لخالدٍ   أمْراً سُقِيتِ بأمْلَحِ الأمْرَارِ[3]

. . .

يمدح الفرزدق الخليفة، ويثني على الأمير خالد، ويعدد منافع النهر المبارك، وهو الذي سبق وقال: أهلكت مال الله في غير حقه: على نهرك المشؤوم غير المبارك.

---

(1) ديوان الفرزدق 1/ 296.

(2) الجبار: النخلة الطويلة ـ المايح: من يغترف الماء بكفه.

(3) ديوان الفرزدق 1/ 269 ـ شعر البصرة ص 198.

وقد أشرنا اليه في حينه. وعليه يجدر بنا أن نتساءل: هل حقاً تغيّرت نظرة الفرزدق إلى النهر المبارك؟ أو أن للسجن تأثيره على مشاعر المرء وأحاسيسه، فيقلبها رأساً على عقب؟ أو الآلام والقيود والاغلال وحجز الحرية، كل ذلك دفع الفرزدق للنفاق، فيعلن عكس ما تنطوي عليه سرائره، عسى أن يحصل على حريته؟

وقال أيضاً، وهو محبوس، يمدح خالداً:

وما الشمسُ ضوءَ المشرقينِ إذا بدتْ، ولكنَّ ضَوْءَ المشرِقينِ بخالدِ

. . .

وإنّي لأرجُو خالداً أنْ يَفُكَّنِي، وَيُطْلِقَ عَنّي مُثْقَلاتِ الحدَائِدِ

. . .

يقولُ لِيَ الحَدَّادُ: هلْ أنتَ قائِمٌ، وَهلْ أنا إلاّ مثلُ آخَرَ قاعِدِ

كأنّي حَرُورِيٌّ لهُ فوقَ كَعْبِهِ ثلاثونَ قَيْداً من قُرُوصٍ مُلاكِدِ

. . .

وَرَاوٍ عليَّ الشِّعْرَ ما أنا قُلْتُهُ كَمُعْتَرِضٍ للرُّمْحِ دونَ الطَّرائِدِ[1]

أطنب الفرزدق بمدح الأمير «خالد» وبين سبب الاطناب، فهو يأمل إطلاق سراحه، وتخليصه مما يعانيه من آلام القيود الكثيرة والاغلال، وهو يطنب في ذلك أيضاً استدراراً لعطف الأمير، ثم يعود أخيراً للشكوى من الوشاة والحسّاد.

وإذ لم يلق الفرزدق تجاوباً من عامل الشرطة، ولا من الأمير خالد، توجه إلى الخليفة هشام بن عبد الملك يمدحه ويستعطفه ويستثيره ويذكره بمآثره ومآثر قومه بني تميم بقوله:

. . .

ذَكَرْتُكِ يا أمَّ العلاءِ، ودُونَنَا مَصَارِيعُ أبوابِ السّجونِ الصَّوارِفِ

. . .

(1) ديوان الفرزدق 1/ 132.

فإنْ يُطْلِقِ الرّحمنُ قَيْدِي فَألْقَها، نُحَلِّلْ نُذُوراً بالشِّفاهِ الرّوَاشِفِ

. . .

. . .

إليكَ أميرَ المؤمنينَ، تَعَسّفَتْ بنا الصُّهبُ أجْوَازَ الفَلاةِ التّنَائِفِ

. . .

دعوتُ أمينَ اللهِ في الأرضِ دعوةً لِيَفْرِجَ عن سَاقَيّ، خيرُ الخَلائِفِ
فَيَا خيرَ أهْلِ الأرضِ، إنّكَ لو تَرَى بِساقَيّ آثَارَ القُيُودِ النّوَاسِفِ
إذاً لرجَوْتُ العفْوَ منكَ ورحمةً وعَدْلَ إمامٍ بالرّعِيّةِ رَائِفِ
هشامَ ابنَ خَيْرِ النّاسِ، إلاّ محمّداً وأصحابَهُ، إنّي لكمْ لمْ أُقَارِفِ

. . .

وما سَجَنُوني غيرَ أنّي ابنُ غالبٍ، وأنّي مِنَ الأثْرَيْنِ غيرِ الزّعانِفِ
وأنّي الذي كانتْ تَعُدّ لِثَغْرِها تَميمٌ لأبياتِ العَدُوّ المقاذِفِ

. . .

وإنْ غِبْتُ كانوا بينَ راوٍ ومُختَبٍ، وبينَ مُعِيبٍ، قَلْبُهُ بالشّنَائِفِ

. . .

أرى شُعَرَاءَ الناسِ غَيْرِي كأنّهمْ بِمكّةَ قُطّانُ الحَمامِ الأوَالِفِ[1]

هذه الأبيات من قصيدة طويلة وردت في ديوان الفرزدق، بلغت أربعة وخمسين بيتاً، أجهد الشاعر نفسه بتصوير حالته، بدأ بمطلع غزلي، إذ تذكر حبيبته ولكن أنّى له الاجتماع بها وتحجز بينهما أبواب السجن السميكة التي تصوت عند فتحها وإغلاقها، ويعدها بالتعويض عما فات، إذا أطلق سراحه، ثم ينتقل إلى الاطناب في مدح الخليفة فهو يلقبه: أمين الله، ويناديه يا خير أهل الأرض، هشام ابن خير الناس بعد الرسول وخلفائه، ويصور له ما يلاقيه من آلام القيود التي نزعت الشعر والجلد من أصلهما، ثم يتذلل اليه ويستعطفه للعمل على اطلاق سراحه، بقوله: أرجو العفو والرحمة، والعدل، وينتقل إلى تذكيره بمآثره ومآثر قومه «تميم» ويشتكي من الوشاة والمبغضين ويعبر أخيراً

(1) ديوان الفرزدق 2/ 7.

عن أساه، إذ أن غيره من الشعراء لا يخافون السجن مثلهم كمثل حمام مكة لا يخاف أن يصاد.

إن الفرزدق حينما يتحدث عن نفسه وعن قومه نحس بغروره وشعوره بالعظمة والكبرياء وحين يتذلل ويستعطف نحس بضعفه وجبنه وخوفه من سوء العاقبة.

ويتبين أن قبيلته كانت عاجزة عن التصدي للسلطة الحاكمة، فبقي الفرزدق في الحبس على الرغم من قصائده المتتالية، إلى أن توجه أخيراً إلى سعيد بن الوليد (الابرش) يتوسل اليه، فكلّم سعيد، الخليفة هشام، الذي أمر بتخليته[1]. بعد أن قدم لنا صوراً واضحة للسجون في ذلك العصر.

7 ـ هدبة بن خشرم العذري[2]

هو هدبة بن خشرم بن كرز بن أبي حية... من عذرة (بن قضاعة)، شاعر إسلامي فصيح، من بادية الحجاز ويكنى أبا سليمان، وكان شاعراً وراوية، كان يروي للحطيئة، لم يحفظ إلا جزء يسير من شعره، وذلك ربما لأنه قتل شاباً، والشعر الذي وصلنا أكثره قاله في السجن وعند الموت[3].

إتفق في حديث طويل، إن هدبة بن خشرم قتل صهره (زوج أخته سلمى) زيادة بن زيد العذري، في أيام معاوية، وتنحى مخافة السلطان، وعلى المدينة يومئذٍ سعيد بن العاص، فأرسَل إلى عم هدبة وأهله فحبسهم في المدينة، فلما بلغ ذلك هدبة أقبل، حتى أمكن من نفسه، وتخلص عمه وأهله، فلم يزل محبوساً حتى شخص «عبد الرحمن» أخو «زيادة» إلى «معاوية»، وأرسل «هدبة» إلى معاوية، فلما صار الفريقان بين يديه، قال عبد الرحمن: «يا أمير المؤمنين، أشكو إليك مظلمتي وقتل أخي وترويع نسوتي». فقال معاوية: يا هدبة قل. فقال: إن هذا رجل سجّاعة، فإن شئت أن أقصّ

(1) الأصبهاني ـ **الأغاني** 21/ 336 وقارن مع ابن سلام الجمحي ـ **طبقات فحول الشعراء** 1/ 350 رقم 456.

(2) معنى هدبة: اسم طائر، والخشرم: جماعة النحل وأميرها. **اللسان** 1/ 782 **واللسان** 12/ 179.

(3) **معجم الشعراء** / المرزباني ص 483 وقارن مع **شرح ديوان الحماسة** / للتبريزي 2/ 13 **والأغاني** 21/ 254، **وتاريخ الأدب العربي** / بلاشير ص 133.

عليك قصتنا كلاماً أو شعراً فعلت، قال: لا بل شعراً، فقال هدبة مرتجلاً:

ألا يا لَقَوْمِي لِلنَّوائِبِ والدَّهرِ ... وللمرء يُردي نفسه وهو لا يدري
وللأرض كم من صالحٍ قد تأكّمتْ ... عليه فَوَارَتْهُ بِلَمَّاعةٍ قَفْرِ

...

فيا قلبُ، لم يألفْ كإلْفِكَ آلِفٌ ... ويا حبّها لم يُغْرِ شيءٌ كما تُغْري

...

فلا تتّقي ذا هَيْبَةٍ لِجلالِهِ ... ولا ذا ضياعٍ هنّ يتركن للفقرِ

...

رُمِينا فَرَامَيْنَا فصادف رَمْيُنَا ... مَنَايَا رجالٍ في كتاب وفي قَدْرِ
وأنتَ أميرُ المؤمنين، فمالَنَا ... وراءك من مَعْدىً ولا عنك من قَصْرِ
فإنْ تَكُ في أموالنا لم نَضِقْ بها ... ذِراعاً، وإنْ صَبْرٌ فنصبرُ للصَّبْرِ[1]

بدأ هدبة قصيدته بمطلع حكمي، وكأني به يقول: لا أمان للدهر وللمصائب، وقد يلقي المرء نفسه في التهلكة وهو لا يدري، وكم من رجال صالحين دفنوا فوارتهم الأرض وكأنه ليس تحتها شيء. ثم انتقل إلى التعبير الوجداني عما يكنّه قلبه من حب لمحبوبة هي الأكثر إغراء. وعاد للحكمة والنصح وبعدها أخذ يعرض قضيته، قائلاً: اعتدى علينا، فرددنا فكان أن أصبنا رجلاً كان قد انتهى أجله المسطور. وأنت القاضي والحكم فإن حكمت بالدّية دفعناها مهما بلغت، وإن حكمت بقتلي صبراً، قبلت أيضاً هذا الحكم.

استنتج معاوية من أقوال هدبة، اعترافه بالقتل، ويبدو أنه رقّ لحاله، وبما أن عبد الرحمن رفض الديّة، وأراد معاوية تأخير تنفيذ قتل هدبة، قال معاوية: هل لزيادة ولد؟ قال: نعم، غلام صغير. فأمر معاوية بحبس هدبة إلى أن يحتلم الغلام، فإن شاء قتل، وإن شاء أخذ العقل[2]. وقد أراد معاوية من

(1) الأصبهاني - الأغاني 21/ 264 وقارن مع ابن قتيبة الشعر والشعراء 2/ 581 والتبريزي شرح ديوان الحماسة 2/ 16 وتاريخ الادب العربي / فروخ 398.

(2) التبريزي - شرح ديوان الحماسة 2/ 16 وقارن مع شعر هدبة / الجبوري ص 95.

وراء ذلك، المماطلة، عسى مع مرور الزمن، أن تهدأ ثورة أهل القتيل، ويقبلون بالدية، وبذلك ينقذ هدبة من الهلاك.

مكث هدبة في السجن عند سعيد بن العاص في المدينة ما شاء الله أن يمكث حتى أدرك «المسوّر» (ابن زيادة) وذلك ثلاث سنين وقيل خمس سنين وقيل ست سنين، وجعل عبد الرحمن يقدم المدينة فيكلمه القرشيون وغيرهم وكان أهل المدينة قد رقّوا لهدبة لوفائه وشعره، وانه أول مصبور رأوه في المدينة بعد زمن النبي ﷺ وأضعفوا له الدية حتى بلغت عشراً، وجعل يردد عليهم الاباء، فلما احتلم «المسور» وتقرر إخراج «هدبة» للقود، بعث إليه أخوانه بكفن وحنوط، فقال:

ألا عَلِّلانِي قبلَ نَوْحِ النَّوَائِحِ	وقبلَ اطِّلاعِ النَّفْسِ بينَ الْجَوَانِحِ
وقبلَ غدٍ يا لهفَ نفسي على غدٍ	إذا راحَ أصْحابِي وَلَسْتُ بِرائحِ
إذا راحَ أصحابي تفيضُ عيونُهم	وغُودِرْتُ في لحدٍ عليَّ صَفَائِحي
يقولونَ هلْ أصْلحتُمُ لأخِيكُمُ	وما القبرُ في الأرضِ الفضاءِ بصالحِ[1]

ولما كان في الليلة التي قتل في صباحها أرسل إلى امرأته، وكان يحبها، فأتته في اللباس والطيب، فصارت إلى رجل قد طال حبسه، وانتنت في الحديد رائحته، فحادثها، وبكى وبكت، ثم راودها عن نفسها، وطاوعته، فلما علاها سمعت قعقعة الحديد فاضطربت تحته، فتنحى عنها وأنشأ يقول:

وأدْنَيْتِني حتى إذا ما جعلتني	لَدَى الْخَصْرِ أو أدنَى اسْتَقَلَّكِ راجفُ
فإن شئْتُ والله انتهيتُ وإنّني	لئلا تَرَيْنِي آخرَ الدَّهْرِ خائفُ[2]

ومن قوله في الحبس:

عسى الكربُ الذي أمسيتُ فيه	يكونُ وراءَهُ فرجٌ قريبُ

---

(1) التبريزي - شرح ديوان الحماسة 2/ 17 وقارن مع الشعر والشعراء 2/ 583 ومع شعر هدبة بن الخشرم العذري جمع وتحقيق الدكتور يحيى الجبوري - دمشق - إحياء التراث العربي - وزارة الثقافة والارشاد القومي 1976 ص 83.

(2) الأصبهاني - الأغاني 21/ 266 وقارن مع شعر هدبة / الجبوري ص 118.

فيأمنُ خائفٌ ويفكُّ عانٍ ويأتي أهلَه النّائِي الغريبُ[1]

هذا الكلام تعوّدنا سماعه من الشعراء المساجين، يعيشون في كرب ويأملون الفرج، إلا أنه في البيت الثاني يعبر عما يخالج نفسه من اضطراب وخوف على مصيره، ويرجو العودة إلى أهله.

وينسب اليه قوله في السجن:

ألا ليتَ الرّياحَ مسخَّراتٍ بحاجتنا تباكرُ أو تؤوبُ
فتخبُرنا الشّمالُ إذا أتَتْنَا وتخبرُ أهْلَنا عنّا الجنوبُ[2]

يصوّر هدبة في سجن المدينة قساوة العيش فيه، إذ المنيّة متوقعة، ويشتاق لأهله، متمنياً أن تكون الرياح الواسطة بينه وبينهم، تذهب إلى أهله تخبرهم عنه، وتأتي بأخبارهم اليه.

ومن قوله في السجن أيضاً:

إنّي عَدَانِي أن أزورَكِ مُحْكَمٌ متى ما أحرِّكْ فيه ساقيَ يصخَبِ
حديدٌ ومرصوصٌ بشَيْدٍ وجَنْدلٍ له شُرُفاتٌ مرقبٌ فوقَ مَرْقَبِ
يُخَبِّرُني تُرّاعُهُ بين حَلقَةٍ أزُومٍ، إذا عضّتْ، وكَبْلٍ مُضَبَّبِ[3]

تذكر هدبة حبيبته وهو في غياهب السجن، وتمنى لقاءها، ولكن أنّى له ذلك وهو مسجون مربوط بالسلاسل، والقيود الثقيلة المشدودة على ساقه، والتي ثبت طرفها الآخر بجدران السجن، وهناك أبواب السجن الموصدة، والسجّان خفير أمام الباب، والسجن يقع في مكان مرتفع و الحرس على شرفاته.

يبدو أن تلك الحبيبة على قدر كبير من الجمال لأنه قال فيها:

---

(1) الشعر والشعراء ص 2/ 583، وقارن مع شعر هدبة جمع وتحقيق د. يحيى الجبوري ص 31 دمشق واخبار النساء ص 129 ومعجم الشعراء ص 483.

(2) الوطن في الشعر العربي ص 348 وقارن مع شعر هدبة / الجبوري ص 54 حيث ورد هذان البيتان مع البيتين السابقين في قصيدة واحدة تتضمن أربعة وعشرين بيتاً.

(3) هدبة / الجبوري ص 71 والبيت الثالث في اللسان 8/ 33 حيث ورد يخبّرني بدلاً عن يخبرني.

وَجـدْتُ بـهـا مـا لـم تَـجِـدْ أمٌ واحـدٍ ولا وَجْـدُ حُـبَّـى بـابـنِ أمّ كِـلابِ
رأتـهُ طـويـلَ الـسّـاعـديـنَ شَـمَـرْدَلاً كـمـا تَـشْـتَـهِـي مـن قـوةٍ وشـبـابِ[1]

واتفق صاحب الأغاني واخبار النساء على أن لهذين البيتين قصة وهي أن هدبة لما أخرج من السجن ليقاد منه فمر بـ «حبّي» وهو ينشد الاشعار. فقالت له: ما رأيت أقسى قلباً منك، ولا أنكر أن يصبر الرجال على الموت، ولكن كيف تصبر عن هذه؟ يعني امرأته الجميلة التي كانت خلفه تولول. فوقف وأنشد البيتين السابقين فولّت «حبّى» هاربة.

وفي رواية أخرى: مرّ «هدبة» على «حبّى»[2] في طريقه إلى القود، فقالت: في سبيل الله شبابك وجلدك وشعرك وكرمك، فقال هدبة:

تَـعَـجَّـبُ حُـبَّـى مـن أسـيـر مُـكَـبَّـلٍ صَـليـبِ الـعَـصـا بـاقٍ عـلـى الـرّسَـفَـانِ
فـلا تَـعْـجَـبِـي مِـنّـي حَـلـيـلَـةَ مـالـكٍ كـذلـك يـأتـي الـدّهـرُ بـالـحـدَثـانِ[3]

اننا نحسّ، ونحن نقرأ هذا الشعر، بالقوة والفخر والاباء عند «هدبة»، كذلك برباطة الجأش في أحلك الأوقات وأصعب الظروف، وكأني به، لم يكن بحاجة إلى من يصبّره ويهدّئ من روعه، وفي مكان آخر يقول:

لعمري لَئِنْ أمسيتُ في السّجنِ عانياً عـلـيَّ رقـيـبٌ حـارِسٌ مـتـقـوِّفُ
إذا سَـبّـنـي أغْـضَـيْـتُ بـعـدَ حـمـيّـةٍ وقد يَصْبِرُ المرءُ الكريمُ فيغرفُ[4]

هذا دليل على ما يقاسيه «هدبة» من آلام نفسية، وشعور بالمهانة والذل، في السجن، انه مرغم على كبت أحاسيسه ومشاعره لأنه عاجز عن الثأر لكرامته. وهو الذي لجأ إلى قتل ابن عمه، لما داس على كرامته، مما أدى إلى سجنه، والآن ممن يثأر؟ وكيف؟ ليس أمامه إلا الاستسلام والخنوع.

---

(1) الأصبهاني ـ **الأغاني** 21/ 271 وقارن مع **شعر هدبة** / الجبوري ص 73 **وأخبار النساء** تأليف ابن القيم الجوزية / تحقيق نزار رضا ـ مكتبة الحياة بيروت 1982 ص 128 وما بعدها.

(2) حبّى: اسم امرأة كانت تحت رجل اسمه مالك.

(3) **الأغاني** 21/ 268، وشعر هدبة / الجبوري ص 135.

(4) **شعر هدبة بن خشرم** / الجبوري ص 113.

تحدث الشعراء المساجين وأسهبوا عن السجن وآلامه، ولكن أحداً منهم لم يذكر عبارة: إذا سبّني أغضيت. . . لذلك كان لهدبة شرف السبق، فهل يعني ذلك أنه كان الأكثر عزة وإباء؟

رفض «عبد الرحمن» أخو «زيادة» (القتيل)، كل وساطة أو دية، وبلغ ابن القتيل (المسور) الحلم، وجاء وقت القود ولا مناص فاتجه هدبة إلى الله قائلاً:

أَذَا الْعَرْشِ إنِّي مسلمٌ بِكَ عائِذٌ ... مِنَ النَّارِ ذو بثٍّ إليكَ فقيرُ
بغيضٌ إليّ الظّلمُ ما لم أُصَبْ بِهِ ... من الظُّلم مَشْغُوفُ الفؤادِ نَفِيرُ
وإنّي وإن قالوا أميرٌ وتابعٌ ... وحُرّاسُ أبوابٍ لهنّ صريرُ
لأعلمُ أنَّ الأمرَ أمرُكَ إنْ تدِنْ ... فَرَبٌّ، وإنْ تَغْفِرْ فأنت غَفُورُ[1]

ولما خرج به صاحب الشرطة لقيه عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، فقال له أنشدني يا هدبة، فقال: أعلى هذه الحال. قال: نعم، فأنشده:

ولستُ بِمِفراحٍ إذا الدّهرُ سَرَّنِي ... ولا جازعٍ من صرفهِ المتقلّبِ
ولا أتمنّى الشرَّ، والشرُّ تاركي، ... ولكن متى أُحْمَل على الشرِّ أركبِ[2]

يدل هذا على تمالك الاعصاب ورباطة الجأش، إنسان يقاد إلى القتل، في اللحظات الأخيرة التي يودع فيها الحياة، ينطق بالحكمة المنوحية بالقوة والفخر، وليس هذا فحسب، فقد ورد أنه في طريقه ليقتل، انقطع قبال نعله، فجلس يصلحه، فقيل له: أوتصلحه وأنت على ما أنت، فقال:

أشدُّ قِبَالَ نَعْلي أن يَراني ... عدوّي للحوادثِ مُسْتَكِينا[3]

---

(1) شرح ديوان الحماسة 2/ 17 وقارن مع شعر هدبة / الجبوري ص / 85 / وقارن مع علم الجريمة ـ تأليف الدكتور حسن شحاتة سعفان ـ الطبعة الثانية 61 ـ 1962 مكتبة المصرية.

(2) ابن القيم الجوزية ـ أخبار النساء ص 130 وقارن مع شرح ديوان الحماسة ص 2/ 17 ومع الشعر والشعراء 2/ 584 حيث ذكر البيت الأول فقط. والمؤتلف والمختلف ص 483 (معجم الشعراء ـ المرزباني).

(3) شعر هدبة / الجبوري ص 136.

والتفت «هدبة» فإذا بأبويه يتوقعان الثكل، فهما بسوء حال، فأقبل عليهما وقال:

أبليَاني اليومَ صبراً منكما   إنَّ حُزناً إن بدا بادئُ شَرّ
لا أراني اليومَ إلا مَيِّتاً   إنَّ بعدَ الموتِ دارَ المستَقَرّ
أصبِرا اليومَ فإني صابرٌ   كلُّ حيٍّ لقضاءٍ وقَدَرْ[1]

ويقال: ان الذي تولى قتله «المسور» ابن زيادة، دفع اليه عمه السيف وقال له: قم فاقتل قاتل أبيك، فقام، فضربه ضربتين قتله فيهما.

وقد ورد أن مروان بن أبي حفصة قال: كان هدبة أشعر الناس منذ يوم دخل السجن إلى أن أقيد منه[2].

وورد في كتاب الحيوان: «وكان هدبة من شياطين عذرة، . . . وقليلاً ما ترى مثل شعره عند مثل حاله، وان امرأ مجتمع القلب، صحيح الفكر. . . عضب اللسان في مثل هذه الحال، لناهيك به مطلقاً غير موثق، وادعاً غير خائف، ونعوذ بالله من امتحان الأخيار. . . وما قرأت في الشعر كشعر «عبد يغوث، وطرفة، وهدبة هذا، فإن شعرهم في الخوف لا يقصر عن شعرهم في الأمن، وهذا قليل جداً[3]».

8 ـ يزيد بن مفرّغ الحميري

هو يزيد بن ربيعة بن مفرغ[4] الحميري، يكنى أبا عثمان، وقد طعن النسّابون في انتسابه إلى حمير، كان يزيد شاعراً محسناً فصيح الالفاظ، سهل التراكيب يجيد القول في الغزل والحماسة، ولكن الهجاء غلب عليه، وقد كان هجّاء خبيثاً شريراً، قال معظم هجائه في آل زياد بن أبيه.

---

(1) **الأغاني** 21/ 270 وقارن مع **شعر هدبة** / الجبوري ص 100 حيث هناك تحريف في البيت الثاني.

(2) **الأغاني** 21/ 273.

(3) الجاحظ ـ كتاب الحيوان وما بعدها. وقارن مع **العمدة** لابن رشيق 1/ 193.

(4) هكذا في **الأغاني**، 18/ 254 وفي **طبقات ابن سلام** 2/ 681 أضاف بن مصعب الحميري. وفي **الشعر والشعراء** 1/ 276 يطابق **الأغاني**، أما في **معجم الادباء** / لياقوت 20/ 42 فإنه يقول يزيد بن زياد بن ربيعة. **وبروكلمان** 1/ 231.

اصطحب ابن المفرغ عبّاد بن زياد، فجرت بينهما وحشة، فحبسه عبّاد، فكان يهجوه وهو في السجن، فزاد ذلك في غيظ عبّاد، فترك هجوه وأخذ يتلطف له فكان يقول للناس إذا سألوه عن سبب حبسه: رجل أدبه أميره ليقيم من أوده، فرقّ له عبّاد، وخلّى سبيله. فخرج هارباً ينتقل من بلد إلى بلد، ناحية البصرة، وقرى الشام ويغلغل في نواحيها ويهجو زياداً وبنيه، ألح عبيد الله بن زياد في طلبه حتى تمكن منه، فحذره الخليفة يزيد بن معاوية من قتل ابن المفرّغ خوفاً من اليمنيين، وأشار إليه بحبسه وتنكيله بما يؤدبه، فأمر عبيد الله أن يسقى نبيذاً خلط بشبرم حتى سلح على ثيابه، فأمر أن يطاف به في أسواق البصرة تزفه الصبيان ثم ردّ إلى السجن وبقي فيه مدة طويلة إلى أن أطلق بشفاعة قومه، اليمنيين عند يزيد[1].

عندما حبس «عبّاد» ابن المفرّغ، كان عنده قينة تدعى «الاراكة»، وغلام يدعى «بردا» فباعهما «عبّاد» بدين عليه، مما أثار ابن المفرغ لأنه كان يحبهما حباً جماً. فقال من حبسه:

شَرَيْتَ بُرداً ولو مُلِّكْتَ صَفْقَتَهُ ... لما تَطَلَّبْتَ في بيعٍ له رَشَدا

لولا الدّعِيُّ[2] ولولا ما تَعَرَّض لي ... مِنَ الْحَوادِثِ ما فارقْتُه أبَدَا

. . .

أمّا الأراكُ فكانتْ من مَحَارِمِنَا ... عَيْشاً لذيذاً وكانت جَنَّةً رَغَدَا

. . .

قد خانَنَا زَمَنٌ لم نَخْشَ عَثْرَتَهُ ... مَنْ يَأمَنِ الْيَوْمَ أمْ منْ ذا يعيشُ غَدَا[3]

يسام يزيد بن المفرّغ في حبس «عبّاد بن زياد» مختلف أنواع العذاب، ومع ذلك يتطرف في هجائه، غير عابئ بما سيحصل له، فهل كان ذلك بسبب

---

(1) ياقوت ـ معجم الادباء 20/ 42 وقارن مع الأغاني 18/ 254 وما بعدها. وتاريخ الادب العربي / فروخ ص 427.

(2) تعريض بنسب والد عبّاد و(زياد بن أبيه ـ أو زياد بن سميّة).

(3) الأغاني 18/ 259 وقارن مع ديوان يزيد بن مفرّغ الحميري / جمع وتحقيق د. عبد القدوس ابو صالح ص 96 وما بعدها، حيث هناك تقديم وتأخير في الأبيات، وبدأ بشربت بالضم بدلاً عن الفتح وهكذا. . .

نزوة عابرة، أو ردة فعل لبيع الاراكة وبرد؟ أم هي قوة الارادة عند ابن المفرّغ وصلابة عوده؟ أو الاعتزاز بقومه، وقناعته بأن عبّاد لن يتجرأ على قتله؟ ورباطة الجأش هذه عند ابن المفرغ جعلت شعره ينضح بالقوة ويعبر عن الحكمة: «من يأمن اليوم أم من ذا يعيش غدا»؟ وهذا ما يذكرنا بشعر «هدبة بن الخشرم» الذي سبق وتحدثنا عنه.

يبدو أن «ابن المفرغ» لم ينفس عن حقده وغضبه بقصيدة واحدة لذلك نجده يتبعها بقصيدة ثانية من السجن يقول فيها:

. . .

قُلْ لِقَوْمِي لَدَى الأبَاطِحِ مِنْ آ ... لِ لُؤَيٍّ بنِ غَالِبٍ ذي الجُودِ

سَامَنِي بَعْدَكُم دَعِيُّ زِيادٍ ... خُطَّةَ الغَادِرِ اللَّئِيمِ الزَّهِيدِ

كَانَ مَا كَانَ فِي الأَرَاكَةِ وَاجْتَـ ... ـبَّ بِبُرْدٍ سَنَامَ عَيْشِي وجِيدِي

أوْغَلَ العبدُ في العُقوبَةِ والشَّتْـ ... ـمِ وَأَوْدَى بِطَارِفِي وَتَلِيدِي

فَارْحلُوا في حَلِيفِكُمْ وأخيكُمْ ... نَحوَ غَوْثِ الْمُسْتَصْرِخينَ يَزِيدِ

فَاطْلُبوا النِّصْفَ مِنْ دَعِيِّ زِيادٍ ... وَسَلُوني بما ادَّعَيْتُ شُهودِي[1]

يستحث «ابن المفرغ قومه وأحلافهم للتوسّط له لدى الخليفة «يزيد بن معاوية» للعمل على إطلاق سراحه بعد أن استفحل أمر تعذيبه، عن طريق «عباد» وهو لم يأل جهداً أيضاً في هجائه وتحقيره.

فلما طال حبس «ابن المفرغ» بعث رجلاً أنشد على باب معاوية واليمن أجمع كانت بباب معاوية، قوله:

أَبْلِغْ لَدَيْكَ بني قَحْطَانَ قَاطِبَةً ... عَضَّتْ بأ[2]. . . أبيها سادَةُ اليَمَنِ

أَمْسَى دَعِيُّ زِيادٍ فَقْعَ قَرْقَرَةٍ[3] ... يا لَلْعجائِبِ، يلهو بابْنِ ذي يَزَنِ

---

(1) الأصبهاني - الأغاني 18/ 273 وقارن مع ديوان يزيد بن المفرغ / أبو صالح ص 111 في البيت الثالث في الأغاني (عيسي وجيدي).

(2) كلمة نابية.

(3) نقع قرقرة: الفقع: البيضاء الرخوة من الكمأة وهو أردؤها. ويقال لمن لا أصل له، هو فقعة بقاع، والقرقرة: الأرض المطمئنة اللينة.

والحِمْيَرِيُّ طَرِيحٌ وَسْطَ مَزْبَلَةٍ   هذا لَعَمْرُكُمُ غَبْنٌ مِنَ الْغَبَنِ

. . .

قوموا فَقولوا: أميرَ المؤمنينَ لَنا   حقٌّ عليكَ، ومَنٌّ ليسَ كالمِنَنِ
فَاكْفُفْ دَعِيٌّ زيادٍ عَنْ أكارِمِنَا   ماذا تُريدُ إلى الأحقادِ والإحَنِ[1]

فدخل أهلُ اليمن إلى معاوية فكلموه، فوجه رجلاً على البريد في إطلاقه، فأطلقه، فلما خرج ابن المفرغ من الحبس قربت اليه بغلة من بغال البريد فركبها، فلما استوى على ظهرها قال:

عَدَسْ[2] ما لِعَبَّادٍ عليكِ إمارةٌ   نَجَوْتِ وهذا تَحْمِلِينَ طَلِيقُ

. . .

لَعَمْرِي لقد أنجاكِ من هُوَّةِ الرَّدَى   إمامٌ وحبلٌ للامامِ وثيقُ
سَأَشْكُرُ ما أوليتُ مِنْ حُسْنِ نِعْمَةٍ   ومِثْلي بِشُكْرِ المُنْعِمينَ حَقِيقُ[3]

ثم ان «ابن المفرغ» أخذ يجوب الامصار ويهجو زياداً وبنيه، وأخيراً قبض عليه «عبيد الله بن زياد» أخو «عباد» وكان أمير العراقين، وكتب إلى الخليفة «يزيد» يستأذنه في قتله، فحذره يزيد وأشار عليه بحبسه وتنكيله بما يؤدبه، فأمر عبيد الله أن يسقي نبيذاً خلط بشبرم حتى سلح على ثيابه فأمر أن يطاف به في أسواق البصرة تزفّه الصبيانُ ثم ردّ إلى السجن وهناك قال:

حيِّ ذا الزَّوْرَ وانْهَهُ أنْ يَعودا   إنَّ بالبابِ حارِسَيْنِ قُعُودَا
مِن أساويرَ لا يَنُونَ قياماً   وخلاخيلَ تُسْهِرُ المَوْلُودَا
وَطَماطيمَ من سَبَابِيبجَ غُتْمٍ   يُلْبِسُونِي مَعَ الصَّبَاحِ القُيودا

. . .

---

(1) البغدادي ـ الخزانة 2/ 216 وقارن مع الأغاني 18/ 275 حيث هناك تغيير بسيط: أضحى دعيّ، بدلاً عن أمسى دعيّ. وفي البيت الأخير: تزيد بدلاً عن تريد. وورد البيتان الأولان فقط في الشعر والشعراء 1/ 280.

(2) عدس: إسم البغلة، أو كلمة زجر للبغال.

(3) الأغاني 18/ 270 وقارن مع الحماسة البصيرية 1/ 173 حيث وردت هذه الأبيات مع تبديل في: حبل للأنام بدلاً عن الامام. ومع الشعر والشعراء 1/ 280 وديوان يزيد بن المفرغ ص 170 وما بعدها والخزانة 2/ 216 حيث ورد البيت الأول فقط.

فَصَبْرنا على مَواطِنِ ضيقٍ وخُطوبٍ تُصَيِّرُ البيضَ سودا

. . .

أَفَإِنسٌ؟ ما هكذا صَبْرُ إنسٍ أمْ من الجِنِّ أمْ خُلِقْتُ حديدا[1]

واللافت هنا، خلافاً للشعراء الذين سبق وتحدثنا عنهم، خلط بعض الألفاظ الأعجمية في شعره أمثال: أساوير، جمع أسوار وهو القائد من الفرس، وطماطيم، يقال الأعاجم في لسانهم طمطمة، وسبابيج، قوم من السند كانوا بالبصرة جلاوزة وحراس السجن، والغتمة، عجمة في المنطق[2]. وهذا يذكرنا بما أشار اليه «بروكلمان» حيث قال: وهو ممّن خلط الشعر العربي بألفاظ أعجمية[3].

كما أن هناك ملاحظة لا بد من الاشارة اليها وهي اختلاف المصادر فيمن أطلق سراحه أول مرة: معاوية أو ابنه يزيد، وكذلك عند عودته إلى السجن هل أبقي في البصرة عند عبيد الله أو أرسل إلى عبّاد في سجستان[4]. لم نعول على ذلك كثيراً إلا من الوجهة التي تخدم موضوع بحثنا.

ومما قاله أيضاً «ابن المفرغ» في الحبس وذكر ما فعل به ابن زياد:

دَارَ سَلْمى بالْخَبْتِ ذي الأطْلالِ كيف نَوْمُ الأسيرِ في الأغلالِ

. . .

أيُها المالك المُرَهِّبُ بالْقَتْـ ـلِ بَلَغْتَ النَّكالَ كلَّ النَّكالِ

فاخشَ ناراً تَشْوي الوجوهَ ويَوْماً يَقْذِفُ النّاسَ بالدَّواهي الثِّقالِ

. . .

وكسرتَ السِنَّ الصَّحِيحَةَ مِنّي لا تُذِلَّنْ فَمُنْكَرٌ إذْلالي

---

(1) ديوان يزيد بن المفرغ / أبو صالح ص 100 وقارن مع الأغاني 18/ 279 ومع الشعر والشعراء 1/ 279 وحيث ذكر خمسة أبيات من أصل إحدى عشر في الديوان وفي الأغاني عشرة.

(2) راجع اللسان 12/ 433 مادة غتم. واللسان 12/ 371 مادة طمم. وديوان ابن المفرغ ص 100 الحاشية.

(3) كارل بروكلمان ـ تاريخ الأدب العربي 1/ 231.

(4) الشعر والشعراء 1/ 279، معجم الادباء / ياقوت 20/ 45، الأغاني 18/ 265 وما بعدها. الخزانة 2/ 216.

وَقَرَنْتُمْ مع الخنازير هرّاً ... ويَمِينِي مغلولةٌ وشِمالِي
وكلاباً يَنْهَشْنَنِي مِنْ وَرَائِي ... عَجِبَ النَّاسُ ما لَهُنَّ ومالِي!
وأطَلْتُمْ مع العُقوبَةِ سِجْناً ... فكم السِّجْنُ أو متى إرْسَالِي!
يَغْسِلُ الماءُ ما صَنَعْتَ وَقَوْلِي ... راسخٌ منكَ في العِظَامِ الْبَوَالِي
لو قَبِلْتَ الفِدَاءَ أوْ رُمْتَ مَالِي ... قلتُ: خُذْهُ فِداءُ نَفسِيَ مَالِي
لو بِغَيْرِي مِنْ مَعْشَرِي لَعِبَ الدَّهْـ ... ـرُ لَمَا ذَمَّ نُصْرَتِي واحْتِيَالِي

. . .

خَذَلُونِي وَهُمْ لِذَاكَ دَعُونِي ... ليس حامِي الذِّمَارِ بالخَذَّالِ[1]

يعرض ابن المفرغ ما يلاقيه من الام القيود والاغلال والكبت والحرمان والبعد عن الأهل والخلان. ثم يعرض لمختلف أنواع التنكيل والتعذيب والاذلال والترهيب والوعيد بالقتل ويتساءل بعد أن طال حبسه، عن الفترة التي سيقضيها في السجن وعما إذا كان سيفرج عنه. ويحذر ابن زياد من يوم الحساب وعذاب النار، ثم يقول له: ان العذاب الذي أوقعته بي سرعان ما يزول وينسى، ولكن هجائي لك سيلاحقك حتى القبر، وأخيراً يعرّض بقومه إذ تأخروا عن نصرته، وكأن اليأس يدبّ في نفسه فيتحسر ويقول: خذلوني. . .

لما طال حبس «ابن المفرغ» وعظم بلاؤه وانتشرت أشعاره في مختلف الأصقاع، تنادى القرشيون، وكان ابن المفرغ حليفاً لبني أمية، وكذلك قومه اليمنيون واختار كل فريق وفداً من أعيانهم، فدخلوا على الخليفة «يزيد بن معاوية» يشفعون لابن المفرّغ، فقال لهم يزيد: «مرحباً بكم وأهلاً» وكتب: ببناء داره، ورد ماله وتخلية سبيله، وألا إمْرَةَ لاحد من بني زياد عليه. وبعد فترة توفي وذلك سنة تسع وستين هجرية[2].

---

(1) **الأغاني** 18/ 266 وما بعدها وقارن مع **ديوان ابن المفرّغ** / أبو صالح ص 185 حيث هناك اختلاف بسيط في البيت السابع سجني بدلاً عن سجنا، والبيت قبل الأخير معشر بدلاً عن معشري. **والشعر والشعراء** 1/ 278 حيث ورد بيت واحد فقط: يغسل الماء. . . وكذلك في **الخزانة** 2/ 215.

(2) الأصبهاني ـ **الأغاني** 18/ 272 وما بعدها ـ ياقوت الحموي ـ **معجم الادباء** 20/ 45 وديوان ابن المفرغ / أبو صالح.

بما تقدم نكون قد انتهينا من أدب السجن في العصر الاسلامي والآن لنتعرف بأدب الأسر في العصر الاسلامي.

ب ـ أدب الأسر والنفي

بعد أن فرضت الدولة الاسلامية نفوذها على شبه الجزيرة العربية وما جاورها، ضعفت الشحناء والبغضاء بين القبائل العربية، ووضعت حداً للغزو فيما بين تلك القبائل، لذلك أضحت عملية الاسر نادرة.

أما عملية النفي والحبس في المنفى، فهي إحدى العقوبات التعزيرية التي فرضها التشريع الاسلامي وذلك تنفيذاً لمضمون الآية الكريمة: **﴿أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض...﴾**[1] فلا غرابة إذاً، إذا وجدنا بعض الشعراء قد تعرض لمثل تلك العقوبة. وهذا ما سنعرضه في هذا القسم:

1 ـ الأحوص

هو عبد الله بن محمد بن عاصم بن... الأنصاري.. من الأوس، يكنّى أبا محمد ويلقب بالاحوص[2]. ولد في المدينة نحو عام 35 هـ / 655 م ونشأ فيها، ثم انه كان دنيء الطبع، قليل المروءة والدين، هجاء للناس مخنثاً، تغزّل بنساء بعض اشراف المدينة، وكان غزله صريحاً، وهو سمح الطبع سهل الكلام، صحيح المعنى، متين التركيب، وقد حط من منزلته الشعرية دناءة طبعه وتعرضه للحرمات[3]. جعله ابن سلام في الطبقة السادسة من الاسلاميين مع ابن قيس الرّقيات، ونصيب، وجميل بن معمر، حيث جعله الثاني في هذه المجموعة أي بعد ابن قيس الرقيات[4].

---

(1) سورة المائدة رقم 5 / الآية 33.

(2) الحوص: ضيق في مؤخر العينين أو في إحداهما حتى كأنها خيطت، وقيل: هو ضيق مشقها، **اللسان** 7/ 18 (حوص).

(3) **الأغاني** 4/ 224 وقارن مع **تاريخ الأدب العربي** / بروكلمان 1/ 196، **ومعجم الشعراء** للمرزباني ص 48 وتاريخ الأدب العربي / فروخ ص 638 **وتاريخ آداب اللغة العربية** زيدان 1/ 289.

(4) **طبقات فحول الشعراء** 2/ 647.

جاء في الأغاني: أن السبب في جلد سليمان بن عبد الملك، أو الوليد بن عبد الملك، إياه (أي الأحوص) ونفيه له، أن شهوداً شهدوا عليه عنده أنه قال: إذا أخذت جريري لم أبال أي الثلاثة لقيت ناكحاً أو منكوحاً أو زانياً. قالوا وانضاف إلى ذلك أن سكينة بنت الحسين (رضي الله عنهما) فخرت يوماً برسول الله ﷺ ففاخرها بقوله:

فَخَرَتْ وَانْتَمَتْ فقلتُ ذَرِيني	ليس جهلٌ أتَيْتِهِ ببديعِ
فأنا ابنُ الَّذي حَمَتْ لَحْمَهُ الدَّبْـ	رُ قتيلِ اللَّحيانِ يومَ الرَّجيعِ
غَسَّلَتْ خاليَ الملائكةُ الأبْـ	رارُ مَيْتاً طُوبى له من صريعِ[1]

ويقول الجمحي: شبّب الأحوص بنساء أهل المدينة، فتأذوا به... فبلغ ذلك سليمان بن عبد الملك، فكتب إلى عامله بالمدينة أن يضربه مئة سوط، ويقيمه على البلس للناس، ويسيّره إلى دهلك، ففعل به[2].

قيل، بينما كان عامل المدينة «ابن حزم» يجلد «الاحوص» ويصب عليه زيتاً ويقيمه على البلس أخذ يصيح ويقول:

ما من مُصيبةِ نَكْبَةٍ أُمْنَى بها	إلاّ تُعَظِّمُني وترفعُ شَانِي
وتزولُ حين تزولُ عن مُتَخَمِّطٍ	تُخْشَى بَوَادِرُهُ على الأقْرَانِ
إنِّي إذا خَفِيَ اللِّئامُ رأيتني	كالشمس لا تَخْفَى بكلِّ مكانِ
إنِّي على ما قد ترونَ محسَّدٌ	أنمى على البغضاءِ والشَّنآنِ
أصبحتُ للأنصارِ فيما نابَهم	خَلفاً وفي الشُّعراءِ من حسّانِ[3]

هذه الأبيات للاحوص يُسْتَدَلُّ منها على قوة الارادة عنده ومتانة أعصابه، فهو في هذا الموقف العصيب، المهين، يرفع صوته مفتخراً بنفسه، ومهدداً بشعره، ويعبر عن حسد الآخرين له، كما أنه يحاول إثارة الأنصار على خصومه وفي الوقت نفسه يؤلبهم للالتفاف حوله.

---

(1) **الأغاني** 4/ 233 وقارن مع **الخزانة** 1/ 233.

(2) ابن سلام - **طبقات فحول الشعراء** 2/ 656.

(3) **معجم الشعراء** / المرزباني ص 48 وقارن مع **الأغاني** 4/ 236 ثلاثة أبيات فقط، **والخزانة** 1/ 233 أربعة أبيات **وطبقات فحول الشعراء** 1/ 663 ثلاثة أبيات، حيث تقديم وتأخير في الأبيات فيما بينها وتغيير في بعض الكلمات.

ويقول ابن قتيبة: «وكان «الاحوص» يرمي بالأبنة والزّنا، وشي إلى عمر بن عبد العزيز فنفاه من المدينة إلى قرية من قرى اليمن على ساحل البحر، فدخل إليه عدة من الأنصار فكلّموه فيه، وسألوه أن يرده إلى المدينة، فرفض[1]. وقال الاحوص يعاتب عمر بن عبد العزيز:

ألستَ أبا حَفْصٍ هُدِيتَ مُخَبّري ... أفي اللهِ أنْ أُقْصَى ويُدْنَى ٱبْنُ أسْلَمَا

وكنّا ذوِي قُرْبَى إليكَ فأصبحتْ ... قرابَتُنا ثَدْياً أجَدَّ مُصَرَّمَا

وكنتَ وما أمَّلْتُ منكَ كبارقٍ ... لَوَى قَطْرَهُ من بعد ما كان غَيَّمَا

وقد كنتَ أرْجَى النّاسِ عندي مَوَدّةً ... ليالِيَ كانَ العِلْمُ ظَنّاً مُرَجَّمَا

أعُدُّكَ حِرزاً إنْ خشيتُ ظلامةً ... ومالاً ثَرِيّاً حين أحمِلُ مَغْرَمَا

تَدَارَكْ بِعُتْبَى عاتباً ذا قَرَابَةٍ ... طَوَى الغَيْظَ لم يَفْتَحْ بِسُخْطٍ لكم فَمَا[2]

يعاتبُ الاحوص عمر بن عبد العزيز، ويتودد اليه بصلة الرحم، كما يستدل من البيتين المذكورين في الأغاني والمشار اليهما في الحاشية أدناه ويبدي تأثره، لتقريب «عمر» يزيد ابن أسلم وجفاء الاحوص، ثم يعرض لما يكنّه من تقدير وثقة بـ «عمر» وعن آماله به وأمانيه ويطلب منه أخيراً العمل على إطلاق سراحه.

والملاحظ أن الأحوص لم يتذلل في شعر إلى عمر بن عبد العزيز، إنما ينطوي على شيء من التهديد في حال لم يستجب عمر لدعوته، إذ يقول له:

تدارك، وربما المقصود: قبل أن يفوت الأوان.

وقوله طوى الغيظ: يعبر عن غيظ ينطوي عليه، ولم يفتح بسخط لكم فما. يمكن تحليلها: حتى الآن. أليس هذا تهديد مبطن؟

ويقول الأحوص في قصيدة أخرى يمدح بها «عمر بن عبد العزيز»:

---

(1) ابن قتيبة ـ الشعر والشعراء 1/ 424.

(2) ابن قتيبة ـ الشعر والشعراء 1/ 425 وقارن مع **الأغاني** 4/ 248 وما بعدها حيث يوجد بيتان زيادة واختلاف في بعض الكلمات وهي: في البيت الأول: الحق بدلاً عن الله، والثاني؟ لديك / اليك، والرابع: كان الظن غيباً / كان العلم ظناً، والخامس؟ جنيت/ خشيت.

أقـولُ بِـعَـمَّـانَ، وهـلْ طَـرَبِـي بـهِ إلى أهْلِ سَلْعٍ، إنْ تَشَوَّفْتَ نَافِعُ؟

. . .

نَظَرْتُ على فَوْتٍ، وأوْفَى عَشِيَّةً بَنا مَنْظَرٌ منْ حِصْنِ عَمَّانَ يافِعُ

ولـلـعيـنِ أسرابٌ تفيضُ، كـأنّـما تُعَلُّ بِكُحْلِ الصَّابِ منها المَدامِعُ

لأبْـصِـرَ أحْـيَـاءً بِـخَـاخٍ، تَـضَـمَّـنَـتْ مَـنَـازِلَـهُـمْ مـنـهـا الـتِّـلاعُ الـدَّوَافِـعُ

. . .

وإنّـا عـدانـا عـن بـلادٍ نُـحِـبُّـهـا إمـامٌ دَعَـانَـا نَـفْـعُـهُ الـمُـتَـتَـابِـعُ

أغَـرُّ لِـمَـرْوانٍ ولـيـلـى، كـأنَّـه حُسامٌ جَلَتْ عنه الصَّيَاقِلُ قاطِعُ[1]

. . .

تجمع المصادر التي أشرنا إليها في الحواشي أن الأحوص لم يزل مقيماً في منفاه حتى مات عمر بن عبد العزيز، ونتأكد من البيت الأخير أن هذه القصيدة موجهة إلى عمر بن عبد العزيز، لأن عبد العزيز يعرف بابن ليلى، وهي أمه[2]. وعليه فإن الأحوص قالها في منفاه، فهو يذكر البعد ما بين عمان والمدينة التي بها أحبابه، مع أن البصر لا يبلغها لبعدها وما يحول بينه وبينها من تلال، فهو يتوجه بنظره نحوها، والدموع تنهمر من عينيه، والذي يمنعه عن زيارة تلك البلاد التي يحبها، ذلك الامام الكثير الخير والعطايا ابن الحسب الصافي الكريم. ومن رسائله التي وجهها إلى عمر بن عبد العزيز قوله:

أيـا راكـبـاً إمّـا عـرضـتَ فـبـلِّـغـنْ هُـديـتَ أمـيـر الـمـؤمـنـيـن رسـائـلـي

وقـل لأبـي حـفـص إذا مـا لـقـيـتَـهُ لـقـد كـنـتَ نَـفّـاعـاً قـلـيـلَ الـغـوائـلِ

وكـيـفَ تَـرى لـلـعَـيْـشِ طـيـبـاً وَلَـذَّةً وخالُك أمْسَى مُوثَقاً في الحبائِلِ![3]

في هذه الأبيات يكلف الأحوص، المسافرين المتوجهين إلى العروض

---

(1) **طبقات فحول الشعراء** 2/ 659 وما بعدها. وقارن مع **معجم ما استعجم** / من أسماء البلاد والمواضع تأليف عبد الله ابن. . . الاندلسي ـ حققه مصطفى السقّا ـ عالم الكتب ـ بيروت 2/ 482 حيث ورد البيت الثاني والرابع.

(2) ابن سلام ـ **طبقات فحول الشعراء** 2/ 662 الحاشية رقم 2.

(3) الأصبهاني ـ **الأغاني** 4/ 247.

(مكة والمدينة وما حولها) إبلاغ «عمر بن عبد العزيز» رسائله التي تمدحه وتستعطفه للافراج عنه، والملاحظ هنا أن صدر البيت الأول متكرر عند شعراء كثيرين[1] ومنهم عبد يغوث الذي سبق أن تحدثنا عنه في «أدب الأسر» حيث ذكرنا صدر البيت المشابه في البيت الثاني من القصيدة التي مطلعها: ألا لا تلوماني...

تلك الرسائل جميعها لم تلاق من «عمر» أذناً صاغية، فمكث «الأحوص» في منفاه بقية ولاية «عمر» وصدراً من ولاية يزيد بن عبد الملك.

قيل: فبينا يزيد وجاريته حبابة ذات ليلة على سطح تغنّيه بشعر الأحوص، قال لها: من يقول هذا الشعر؟ قالت: لا وعينيك ما أدري! فسئل «الزُّهريّ» فقال: الأحوص. وأخبره أنّه قد طال حبسه بدهلك. فأمر يزيد بتخلية سبيله... وقيل إنّ الأبيات التي غنّتها حبابة يزيد بن عبد الملك هي:

أيّها المُخَبِّري عن يزيدٍ بِصَلاحٍ فِدَاكَ أهلي ومالي
ما أُبالي إذا يزيدُ بَقي لي مَنْ تَوَلَّتْ به صُروفُ الليالي[2]

لقد كان يزيد أهلاً لثقة «الأحوص»، فعاد من جديد إلى الحياة ينعم بالحرّيّة والعيش الكريم إلى جانب الخليفة الذي أغدق عليه الأموال والهبات وبادله الأحوص بأجود مدائحه.

2 ـ سراقة بن مرداس البارقي (الأصغر)

هو سراقة بن مرداس الأصغر[3]، شاعر كوفي ظريف، لا نعلم من حياته إلا قصته الطويلة مع المختار بن أبي عبيد الثقفي. كان المختار يدعو لمحمد بن الحنفية، ويقاتل عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان، استولى على

(1) أنظر في **المفضليات** القصيدة رقم / 30/ ص / 156 / الحاشية حيث ذكر اسم عشر شعراء ورد في شعرهم صدر بيت يشبه: فيا راكباً إما عرضت فبلّغن. وذكر أسماء المصادر والمراجع.

(2) الأصبهاني **الأغاني** 4/ 248 وما بعدها.

(3) ذكر صاحب **معجم الشعراء** / المرزباني ص 134 ثلاثة اشخاص يدعون سراقة بن مرداس، الاول اضاف اليه البارقي، والثاني الاصغر البارقي والثالث بدون اضافة، وكل واحد منهم يختلف عن الآخر، والذي يهمنا منهم الاصغر البارقي. وبارق اسم جبل.

الكوفة زمناً، وفي سنة 66 هجرية ثار أهل الكوفة بالمختار ولكنه تغلب عليهم، ووقع في يده أسرى منهم كثيرون، وكان لا يؤتى بأسير إلا قتله[1] فجيئ إليه بسراقة الذي أخذ ينادي المختار بأعلى صوته:

أمننْ عليَّ اليومَ يا خَيْرَ مَعَدّ   وخيرَ من حلَّ بِشِحْرٍ والْجَنَدْ
وخير من حيّا ولبّى وسَجَدْ[2]

فبعث به المختار إلى السجن، فحبسه ليلة، ثم أرسل اليه من الغد فأخرجه، فدعا سراقة، فأقبل إلى المختار وهو يقول:

ألا أبلغ أبا إسحاقَ أنّا   نَزَوْنا نَزْوَةً كانت علينا
خَرَجْنا لا نَرى الضُّعفاءَ شيئاً   وكانَ خُرُوجُنا بَطَراً وحَيْنا
نَراهُمْ في مصافِّهم قليلاً   وهم مثلُ الدَّبَى حين التَقَيْنَا
لقينا منهم ضرباً طِلَخْفاً   وَطَعْناً صائباً حتى انْثَنَيْنَا
نُصِرْتُ على عَدُوِّكَ كلَّ يومٍ   بكل كتيبةٍ تَنْعَى حُسَيْنَا
كنصرِ محمدٍ في يوم بَدْرٍ   ويوم الشِّعْبِ إذْ لاقَى حُنَيْنَا
فَاسْجَحْ إذْ مَلَكْتَ فلو مَلَكْنَا   لَجُرْنَا في الحكومة واعْتَدَيْنَا
تَقَبَّلْ تَوْبَةً منّي فإنّي   سأشْكُرُ إنْ جعلتَ النَّقْدَ دَيْنَا[3]

ثم تابع قائلاً: «أصلحك الله أيها الأمير، سراقة ابن مرداس يحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد رأى الملائكة تقاتل على الخيول البلق بين السماء والأرض، فقال له المختار: فاصعد المنبر، فأعلم ذلك المسلمين، فصعد فأخبرهم بذلك ثم نزل، فخلا به المختار، فقال: إنّي قد علمت أنكَ لم تر الملائكة، وإنما أردت ما قد عرفت ألا أقتلك، فاذهب عني حيث أحببت، لا تفسد عليّ أصحابي.

(1) **تاريخ الادب العربي** / بروكلمان 1/ 248 ـ **تاريخ الادب العربي** / فروخ ص 469.
(2) **تاريخ الطبري** 6/ 54 **الكامل في التاريخ** / لابن الاثير 4/ 238.
(3) **تاريخ الطبري** 6/ 54 وقارن مع **الأخبار الطوال** ص 303 حيث ذكر البيتين الأولين مع اختلاف في الصدر. وقارن **بالكامل في التاريخ** لابن الأثير 4/ 238 حيث سقط عنده بيتان: الثالث والرابع.

فخرج هارباً، وبعد أن اطمأن سراقة بن مرداس، قال: ما كنت في أيمان حلفت بها قط أشد اجتهاداً ولا مبالغة في الكذب، مني في أيماني هذه التي حلفت لهم بها إني قد رأيت الملائكة معهم تقاتل. ثم قال:

ألا أبْـلِـغْ أبـا إسـحـاقَ أنـي رأيـتُ الـبُـلْـقَ دَهْـماً مُـصْـمَـتـاتِ
كَـفَـرْتُ بِـوَحْـيِـكـمْ وجـعـلـت نَـذْراً عـلـيَّ قِـتَـالَـكـمْ حـتـى الْـمـمـاتِ
أُري عَـيْـنَـيَّ مـا لـم تُـبْـصِـراهُ كـلانـا عـالـمٌ بـالـتُّـرَّهَـاتِ
إذا قـالـوا أقـول لـهـم: كَـذَبْـتُـمْ وإنْ خَـرَجُـوا لَـبِـسْـتُ لـهـم أداتـي[1]

لما وقع «سراقة» في الأسر، أيقن أنه لا محالة مقتول، فطار صوابه، وأخذ ينادي «المختار» مستجيراً ومادحاً، فاستبقاه «المختار» ليلة في السجن، لا شك أنها كانت طويلة جداً عند سراقة، قضاها يشحذ فكره، كيف السبيل إلى الخلاص؟

يبدو أنه توصل إلى عدة مقررات، أولاها تلك القصيدة التي سلك فيها سبيل الاستعطاف والاعتراف بالخطأ محاولاً التأثير في أحاسيس المختار ومشاعره، ثم انتقل إلى المقارنة بين انتصاره وجماعته، وانتصار النبي «محمد» ﷺ في غزوة بدر وحنين، فهو يرفع من قدر ممدوحه إلى أعلى رتبة بنظره، وهي مقام النبي، وأخيراً أعلن توبته عما اقترفه من ذنوب، أي عن معارضته «المختار» مبيناً أنه سيعمل على مدحه وشكره.

ويبدو أيضاً أن سراقة، بفراسته ونظرته إلى المختار، استنتج أن ما قاله، لم يكن كافياً لارضاء المختار، فاندفع يقسم بالله أنّه لم يقع أسيراً، إلا لأن الملائكة كانت تقاتل في جيش «المختار» وأن الملائكة هي التي أسرته، إنها حيلة بارعة ذكية، لقيت استحساناً من المختار الذي ـ مع عدم اقتناعه بهذا الكلام ـ طلب من سراقة، صعود المنبر واعلام الناس بما رآه. وهكذا استطاع «سراقة» بدهائه وظرفه أن ينفذ إلى الغرور السياسي في المختار، وان ينجو من القتل.

---

(1) **الطبري** 6/ 55 وقارن **بالكامل في التاريخ** لابن الأثير 4/ 238 وما بعدها، والأخبار الطوال ص 303 حيث قدّم البيت الثالث على الثاني ولم يذكر البيت الرابع، وهناك تغيير في بعض الكلمات.

إن هذه الحادثة تدلنا على مدى تعلق الانسان بالحياة، فهو حينما يرى أنها مهددة بالخطر يلجأ إلى مختلف الوسائل لانقاذها: حيل ودهاء وأيمان غلاظ.

وتدلنا على الطريقة التي يتبعها رجل السياسة، إنها التجارة الرابحة، إنه يستغل وضع الاسير لمصلحته الشخصية، فهو يعلم أنه حريص على حياته، ومستعد للقيام بأي عمل يطلب منه، لذلك يطلب من أسيره أن يكون داعية له، وعلى رؤوس الاشهاد، ثم يطلق سراحه.

3 ـ خبيب بن عدي الانصاري[1]

كان «خبيب» واحداً من ستة أشخاص أرسلهم الرسول ﷺ ليفقهوا بني «عضل والقارة»[2] بالدين، حتى إذا كانوا على الرجيع (ماء لهذيل بنا حية من الحجاز من صدور الهدأة)، غدروا بهم، فقتل أربعة من الصحابة وبقي «خبيب بن عدي» وزيد بن الدثنة، فأسروهما، ثم خرجوا بهما إلى مكة فباعوهما. فأخذ «خبيباً» بنو الحارث بن عامر، وكان «خبيب» هو الذي قتل «الحارث» بأحد، أخذوه ليقتلوه بالحارث. فمكث «خبيب» عندهم، ولما خرجوا به من الحرم ليقتلوه قال: ذروني أصلّ ركعتين. فتركوه فصلّى سجدتين، فجرت سنّة لمن قتل صبراً أن يصلي ركعتين. ثم قال خبيب: لولا أن يقولوا جزع لزدت، وما أبالي ثم قال:

ولستُ أُبالي حين أُقْتَلُ مُسْلِماً ... على أيِّ شيءٍ كان في اللهِ مَصْرَعِي

وذلك في ذاتِ الإله وان يشأْ ... يبارِكْ على أوصالِ شلو مُمَزَّعِ

لقد جمعَ الأحزابُ حولي وَأَلَّبُوا ... قبائِلَهمْ واسْتَجْمَعُوا كلَّ مجمَّعِ

وقد قرَّبُوا أبناءَهُمْ ونِساءَهُمْ ... وقُرِّبْتُ من جذع طويلٍ مُمَنَّعِ

---

(1) هو خبيب بن عدي الأنصاري الأوسي من بني جحجبي بن كلفة بن عمرو بن عوف، شهد «بدراً» وأسر يوم الرجيع سنة ثلاث للهجرة وقيل أربع، وكان «خبيب» قد قتل «الحرث بن عامر» يوم «بدر» وقيل «أحد» **الاصابة في تمييز الصحابة** (الهامش؟ الاستيعاب في معرفة الاصحاب) 1/ 479 وقارن **بالطبري** 2/ 538.

(2) قال ابن هشام: «عضل والقارة: من الهون بن خزيمة بن مدركة» **الطبري** 2/ 538 الهامش 1.

وكـلّـهُـمُ يُـبْـدِي الْـعَـدَاوَةَ جـاهـداً   عـلـيَّ لأنّـي فـي وثـاقٍ مُـضَـيَّـعِ
إلى الله أشكو غُرْبَتِي بَعْدَ كُرْبَتِي   وما جمعَ الأحزابُ لي عندَ مَصْرَعِي

. . .

وما بي حذار الموتِ إنّي لميّت   ولكن حذاري حرّ نار تلفع
فلست بمبدٍ للعدوّ تخشّعاً   ولا جَزَعاً إنّي إلى الله مرجعي

. . .

وصلب بالتنعيم وكان الذي تولّى صلبه «عقبة بن الحرث» وقيل ثم خرج به أبو سروعة ابن الحارث فضربه فقتله[1].

وإذا صحت نسبة هذه القصيدة إلى «خبيب»، نكون أمام شعر ينم على رباطة الجأش وقوة الارادة في وقت عصيب، وموقف عسير، يذكرنا بشعر هدبة بن خشرم، وقت الموت. وهذا بدافع الايمان بالله، والعقيدة الدينية. فهو يعبّر عن عدم خوفه من الموت، بل يعتبر نفسه بأنه مقبل على حياة أفضل، فلا يخاف من البشر والاعداء وإنما يخاف من حر نار جهنم. لذلك فهو لا يتذلل إلى آسريه، ولا يشكو اليهم كآبته، فإن شكواه فقط إلى بارئه الذي هو مرجعه.

ويتبين لنا من خلال هذه القصيدة، أن بني الحارث، دعوا الأحزاب والمشركين في مكة لحضور عملية الانتقام من «خبيب» وفي الوقت الذي كان يقدم فيه للقتل، كان النسوة والصبية أيضاً يتدافعون ويتجمعون ليكحلوا عيونهم بمرأى هذا المشهد المثير.

وهكذا طويت صفحة أسير بقتله ثأراً لاحداث جرت في مطلع العصر الاسلامي بين الداخلين الجدد في الاسلام وبين المشركين.

---

(1) **الأغاني** 4/ 228 وما بعدها. وقارن **بالاصابة** (الاستيعاب) 1/ 430 وما بعدها **والطبري** 2/ 538 وما بعدها. **والكامل في التاريخ** لابن الأثير 2/ 169 وما بعدها، **والسيرة** لابن هشام 1/ 260 الحاشية (3).

الفصل الثالث

الصعاليك واللصوص وأدبهم

أ ـ في العصر الجاهلي

تعتبر الصعلكة نمطاً من أنماط العيش، مارسته فئة من الناس في العصر الجاهلي والعصر الاسلامي، مما أدى بفئة من شعرائهم إلى السجن، والصعاليك طائفة قديمة في جزيرة العرب، كان لها خطرها وأدبها قبل الاسلام وبعده، وهم يمتازون بتحللهم من الالتزامات القبلية، وبمسؤوليتهم وحدهم عن جرائرهم، وبتخلي قبائلهم عنهم. والصفة العامة لهم هي الفقر والتشرد والاعتماد على الذات في طلب الرزق، وانتهاج الغارة والنهب سبيلاً إلى ذلك، فكان طابعهم عدوانياً سيء الأثر في نفوس العرب لما في أعمال الصعاليك من الفتك والسلب والضراوة، وإذا كانت أهداف بعض الصعاليك على جانب من النبل فإن الغالبية منهم كانت نفوسهم تنطوي على شر عظيم إذ كانوا لصوصاً وقطاع طرق، يباغتون الناس يسلبون ويعتدون وأحياناً يقتلون ويهربون، لذلك اقترنت في حياة بعض الشعراء الجاهليين والأمويين الصعلكة باللصوصية حتى لا تفريق بينهما[1].

وبما أنه لدينا مصادر جمة تتحدث عن الصعاليك[2] لذلك لا نجد ضرورة للاستفاضة بالتحدث عنهم، إلا من الناحية التي تخدم موضوعنا، ونظراً لكثرة أعدادهم نكتفي بذكر نماذج معينة ممّن تعرّض للحبس أو للأسر وترك لنا أثراً أدبياً.

---

(1) عبد الحليم حفني ـ **شعر الصعاليك** ص 20 ـ **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** / دكتور يوسف خليف ص 20 وما بعدها. **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** / دكتور حسين عطوان ص 11 وما بعدها. لسان العرب / ابن منظور 10/ 455 مادة صعلك.

وقارن مع : A Miquel- Que soi-je? La littérature Arabe- p. 20.

(2) أشرنا إليها في الحاشية السابقة.

1 ـ الشنفرى[1]

الشنفرى شاعر جاهلي قحطاني، لم يعرف تاريخ ولادته، أسره بنو «شبابة بن فهم» منذ كان صغيراً، فانتمى اليهم، ولم يزل فيهم حتى أسر بنو «سلامان» رجلاً من «بني شبابة» ففدت بنو شبابة هذا الرجل بالشنفرى. فعاش في بني سلامان لا تحسبه إلا واحداً منهم، إلى أن تعلق بفتاة هي بنت الرجل الذي يعيش عنده، وأراد أن يتزوجها، فأنفت من ذلك: فذهب مغاضباً حتى أتى الذي اشتراه من «فهم». فقال له الشنفري: أصدقني ممن أنا؟ قال: أنت من الأواس بن الحجر، فقال: لن أدعكم حتى أقتل منكم مائة بما استعبدتموني. ثم نفّذ وعده فيهم[2]. ولجأ إلى الصعلكة، وكان من أشهر عدّائي الصعاليك، وأكثرهم جرأة، وأشدهم دهاء.

فلم يزل «الشنفري» يغير على بني «سلامان» حتى قتل منهم تسعة وتسعين رجلاً، ثم قعد له «أسيد بن جابر السلامي» ومعه بعض الفرسان، فأسروا «الشنفري» وأدوه إلى أهلهم، وقالوا له: أنشدنا، فقال: إنما النشيد على المسرة، ثم ضربوا يده فتعرضت أي اضطربت فقال الشنفري في ذلك:

لا تَبْعَدِي إمَّا ذَهَبْتِ شامَةْ   فَرُبَّ وادٍ نَفَرَتْ حَمَامَهْ

وَرُبَّ قِرْنٍ فَصَلَتْ عِظَامَهْ[3]

ثم قال له السلامي: أأطرفك؟ ثم رماه في عينه، فقال الشنفري له، كذلك كنّا نفعل، وكان الشنفري، إذا رمى رجلاً منهم قال له: أأطرفك؟ ثم يرمي عينه، ثم قالوا له حين أرادوا قتله: أين نقبرك؟ فقال:

---

(1)(2) هو ثابت من بني الحرث بن ربيعة بن الأواس بن الحجر... بن الأزد بن الغوث، وقيل: اسمه الشنفري، وقال البعض: الشنفري، لقبه ومعناه عظيم الشفة. **موسوعة الشعر العربي** 1/ 61 وقارن بشرح ديوان الحماسة 2/ 25 والخزانة 2/ 16. وقيل بل لجأ إلى بني فهم وكان يغير على بني سلامان ويقتل منهم. الخزانة 2/ 18 وقارن بالأغاني 21/ 178 وبروكلمان 1/ 105 **وشعر الصعاليك**، حفني ص 112 **والمفضليات** ص 108 الحاشية. **تاريخ الأدب العربي** فروخ ص 102.

(3) **الأغاني** 21/ 182 وقارن **بشرح ديوان الحماسة** 2/ 26 حيث ذكر في البيت الثاني الصدر وهو: ورب خرق قطعت قتامة.

لا تَـقْـبُـرونـي إنَّ قَـبْـرِي مُـحَـرَّمٌ عـلـيكـم ولـكـن أبشـرِي أمَّ عـامـرِ
إذا احْتَمَلَتْ رأسي وفي الرأس أكثري وغُـودِرَ عـنـد الْـمُـلْـتَـقَـى ثَـمَّ سائِـرِي
هـنـالـك لا أرجـو حـيـاةً تَـسُـرُّنـي سجيسَ اللّيالي مُبْسَلاً بالجَرَائِرِ[1]

ورد في «شرح ديوان الحماسة» تفسير البيت الأول ما خلاصته: أبشري أم عامر بأكلي إذا تركت ولم أدفن، ويحتمل أن يكون البيت على كلامين كأنه قال لا تدفنوني مخاطباً أصحابه وليس يريد نهيهم عن ذلك، ولكن يريد كشف حاله لهم، وبيان عاقبة أمره فيهم، ثم أقبل على الضبع، فقال: أبشري يا أم عامر بأكلي. وقال أبو هلال: أراد أن مثلي في كثرة ما نال من الناس، يصير مصيره إلى أن يقتل ويطرح للسباع تأكله ولا يدفن، لأن العدو الفاحش العداوة، يفعل ذلك به طلباً للتشفي منه... وقيل إذا قتل ولم يقبر كان أشد على قومه وأحض لهم على طلب الثأر، فكأنه مكر بهم، وقيل يجوز أن يكون أراد أن يخالفوه، فيقبروه بإيثارهم مخالفته[2].

ثم يتابع قائلاً، إذا قتلت، وقطع رأسي وغودر جسمي، فما حاجتي إلى قبر أحيا فيه حياة أخرى، مثقلاً بجرائمي إلى الأبد؟ وفي الرأس أكثري، يريد أن الرأس وحده يرجح باقي جسمه لما يحتويه من الحواس. فهو لا يطمع بعد الموت في حياة سارة لأنه مسلّم بجرائمه، وكأنه مقرّ بالبعث.

وقيل: لما قتل الشنفري وطرح رأسه مرّ به رجل منهم فضرب جمجمة الشنفري بقدمه، فعقرت قدمه فمات منها، فتمّت به المائة[3]. وهكذا يكون قد وفى بوعده السابق لبني سلامان.

استكثر الشنفري «الأزدي» من القتل، وقد يكون ذلك الاسراف عائداً لأسباب نفسية قاهرة، مما دفعه للتصعلك واللجوء إلى القتل، بعد أن كان يعيش حياة هادئة، ولم يكن الداعي إلى هذا الاسراف، الفقر وحده، بل

---

(1) البغدادي - خزانة الأدب 2/ 18 وقارن بشرح ديوان الحماسة 2/ 24 وتاريخ الادب العربي - فروخ ص 103 وبالأغاني 21/ 182 حيث هناك إختلاف بكلمة واحدة من البيت الثالث. أول الشطر الثاني حيث ورد: سمير الليالي بدلاً عن سجيس الليالي.

(2) شرح ديوان الحماسة / التبريزي 2/ 24.

(3) الأغاني 21/ 186.

الحقد على القوم الذين ترعرع فيهم حتى أصبح رجلاً، وكان يظنهم رهطه وعشيرته ثم اكتشف أنه فيهم عبدٌ قن. ففر منهم يترصد لهم ويغير عليهم ويسفك من دمائهم، وكأن الحقد والجريمة صيغتا نفسه ظلاماً، فلما أسر وقدّم للموت لم ير غير الظلام، وشعر أن ماضيه مليء بالجرائم، وان مستقبله بعد الموت لن يكون خيراً، فأوصى ألاّ يدفن في أرض، وأن يلقى إلى الضبع ليضيع إلى الابد.

واننا نحس من خلال شعر «الشنفري» في الأسر، بشيء من رباطة الجأش إذ ينطوي شعره على شيء من الحكم «وفي الرأس اكثرى»، وعلى إيمان بالبعث والحساب، فهو ينتظر العقاب عمّا اقترفته يداه من جرائم «هنالك لا أرجو حياة تسرّني». وعليه يمكننا القول أن «الشنفري» عندما قدّم للموت، كان قد ارتوى من سفك الدماء، وأصبح حقده في نهايته، فلم يعد متعلقاً بالحياة وراغباً في القتل، كما أنه لم يكن راغباً في الموت لكثرة جرائره، فالحياة عنده والموت سيّان.

وهكذا انتهت حياة صعلوك جاهلي نشر الرعب والخوف في ربوع الصحراء وجاب الفيافي والقفار على رجلين تسابقان الريح. وقد ترك لنا شعراً هو جزء من التراث الأدبي الذي يساعدنا كثيراً على تعرّف أحوال تلك المجتمعات من الناحية الاجتماعية والتاريخية وغيرها.

2 ـ قيس بن الحدادية[1]

شاعر من شعراء الجاهلية، وكان ذا بأس شديد، فاتكاً شجاعاً صعلوكاً خليعاً، وقد كثرت غاراته، وثقلت جناياته على قومه فخلعوه، خلعته «خزاعة» في سوق عكاظ، وأشهدت على أنفسها بخلعها إياه، على ألا تحتمل جريرة له، ولا تطالب أحداً بجريرة يجرها على قيس.

ولكن ذلك لم يفتّ من عزمه، ولم يصرفه عن غاراته وجناياته، بل ازداد ضراوة وشراسة، وجعل قومه هدفاً من أهداف غاراته، وأصبح مأوى

(1) هو قيس بن منقذ بن عمرو بن عبيد. . . بن حبشة بن سلول. . . بن ربيعة. . . بن خزاعة. . . بن الأزد. والحدادية أمه، وهي إمرأة من محارب بن. . . مضر ثم من قبيلة منهم يقال لهم: بنو حداد. **الأغاني** 14/ 144 وقارن **معجم الشعراء** ص 325.

الصعاليك والشذاذ والخلعاء، يغير بهم ويعتمد عليهم وعلى شدة بأسهم[1].

ولما خلعت خزاعة قيساً، تحوّل عن قومه، ونزل عند بطن من خزاعة، يقال لهم بنو عدي بن عمرو بن خالد، فآووه وأحسنوا إليه، وقال يمدحهم:

جزى الله خيراً عن خليع مطرَّدٍ   رجالاً حَمَوْهُ آل عمرو بن خالدِ

. . .

أولئكَ إخواني وجُلُّ عشيرتي   وثروتُهم والنصرُ غيرُ الْمُحَارِدِ[2]

ثم ان «خزاعة» أغارت على «اليمامة» فلم يظفروا منها بشيء، فهزموا وأسر منهم أسرى. وبعدها أخرج أهل اليمامة أسراهم من خزاعة، أوان الحج، إلى مكة في الاشهر الحرم، ليبتاعهم قومهم، فغدوا جميعاً إلى «الخلصاء» (بلد بالدهناء)، وفيهم قيس بن الحداديّة، فأخرجوهم وحملوهم، وجعلوهم في حظيرة ليحرقوهم، فمرّ بهم عدى بن نوفل، فاستجاروا به، فابتاعهم واعتقهم، فقال قيس يمدحه:

دعوت عديّاً والكُبُولُ تَكُبني   ألا يا عديُّ يا عديّ بن نوفلِ

دعوت عدياً والمنايا شوارعٌ   ألا يا عديُّ للأسير المكبّلِ

فما البحر يجري بالسُّفينِ إذا غدَا   بأجودَ سَيْباً منه في كلّ مَحْفِلِ

تداركت أصحاب الحظيرة بعدما   أصابهمُ منّا حريقُ المحلّلِ

وأتبعت بين الْمُشْعَرِين سِقايةً   لحجّاج بيت الله أكرمَ مَنْهَلِ[3]

يبين لنا «قيس» في هذه الأبيات عن حالته في الأسر حين استنجد بعدي، وكيف كان يعاني من وطأة الكبول والاقياد التي تكاد تقلبه وتصرعه، في الوقت الذي يرى فيه سهام الموت موجهة نحوه، فهو يتوقع الموت لحظة بلحظة، حينها أدركه «عدي» وانقذه، لذلك يتوجه إليه بمديحه، فهو يصفه بالكريم الجواد الذي لا تنقطع عطاياه الزاخرة.

وقوله: تداركت أصحاب الحظيرة. . . يدل على أنه ورفاقه كانوا مقيدين

(1) **الأغاني** 14/ 144، **شعر الصعاليك** - د. عبد الحليم حفني ص 116.

(2) الثروة: كثرة العدد، المال غير المحارد: أي غير المنقطع. **الأغاني** 14/ 152 وما بعدها.

(3) **الأغاني** 14/ 153.

داخل حظيرة والحظيرة عادة المكان الذي تجمع فيه الماشية، وكان آسروهم على وشك إحراقهم والقضاء عليهم في الأشهر الحرم.

ثم لقي «قيس بن الحدادية» جمعاً من «مزينة» فقالوا له: استأسر، فقال: وما ينفعكم مني إذا استأسرت وأنا خليع؟ والله لو أسرتموني ثم طلبتم بي من قومي عنزاً جرباء جدماء (مقطوعة اليد) ما أعطيتموها، فقالوا له استأسر لا أم لك. فقال: نفسي عليّ أكرم من ذاك، وقاتلهم حتى قتل، وهو يرتجز ويقول:

أنـا الـذي تَـخْـلَـعـه مـوالـيـهْ ... وكـلُّـهـم بـعـد الـصَّـفـاءِ قـالـيـهْ

وكـلّـهـم يُـقْـسـم لا يـبـالـيـهْ ... أنـا إذا الـمـوت يـنـوب غـالـيـهْ

مـخـتـلـطٌ أسـفـلُـه بـعـالـيـه ... قـد يـعـلـم الـفـتـيـان أنـي صـالـيـه

إذا الـحـديـد رفـعـتْ عَـوَالِـيـهْ[1]

هكذا كانت حياة «قيس بن الحدادية» الذي خلعته قبيلته «خزاعة» فلقد سحبت منه الجنسية القبلية، ورفعت عنه حمايتها، فلم يعد أمامه إلا أن يفرّ إلى الصحراء ليلاقي مصيره في البادية القاسية فقيراً مفرداً، يفتش في فلواتها لعله يجد قريناً له يتعاون وإياه على صروف الحياة.

ويصادف «قيساً» بريق من أمل في الحياة إذ وجد من يؤويه ويجيره، فأخذ يلهج بالشكر والثناء لأنه وجد من ينظر إليه بعين العطف، قال: جزى الله خيراً عن خليع مطرذ... أولئك أخواني وجل عشيرتي... هؤلاء أصبحوا أهله وعشيرته يتحسس بأحاسيسهم ويذود عن حياضهم، فهم أهله الحقيقيون الذين هبوا لنصرته بكل ما يملكون.

إن شعوره بالوحدة والذل من جراءالخلع، لازمه حتى الموت، فلن يثأر له أحد إذا مات، وإذا وقع في الأسر، فلن تفتديه قبيلته بعنز جرباء جدماء، لذلك واجه أموره مع جمع من «مزينة» وحيداً معبراً عما يجيش في نفسه من ألم وحسرة قائلاً: أنا الذي تخلعه مواليه....

هذا شيء من مظاهر الصعلكة في العصر الجاهلي عند بعض الشعراء الصعاليك الذين تعرضوا للأسر أو السجن، وكان لهم نتاج أدبي ساهم في إغناء التراث الأدبي عند العرب. وحركة الصعلكة هذه، هل استمرت في

(1) الأغاني 14/ 16.

العصر الاسلامي؟ وهل تعرّض أحد من شعرائها إلى تجربة الاسر أو السجن؟ وهل ترك لنا أولئك الشعراء تراثاً أدبياً؟ نحاول الإجابة عن جميع هذه التساؤلات في القسم التالي.

ب ـ في العصر الاسلامي

تمهيد

كانت حركة الصعلكة ناشطة في العصر الجاهلي، إنما كان حظ الصعاليك يسيراً في السجن والأسر، وهذا ما حدانا على ذكر اثنين فقط، على الرغم من وفرة الصعاليك، وعلى الرغم من شهرة بعضهم، نخص بالذكر عروة بن الورد، إنما هذا لم يؤثر عنه أنه سجن أو أسر.

وقد ظلت هذه الحركة ناشطة في العصر الاسلامي، خلافاً لما ذكره الدكتور حسين عطوان[1]. وقد ذكر منهم الدكتور عبد الحليم حفني[2] من المخضرمين أربعة، ومن الاسلاميين أربعة عشر، يضاف إليهم ستة إكتفى بذكر أسمائهم لأنه لم يرد الاستشهاد بشعر أحد منهم في بحثه، وقال: «ومع ذلك لا نستطيع أن نقطع بأن من سبق ذكرهم هم كل شعراء الصعاليك»[3]. والدكتور عطوان نفسه ذكر أسماء ما يزيد على خمسة عشر صعلوكاً في العصر الأموي في كتابه المشار اليه آنفاً، زيادة عما ذكره الدكتور حفني، يضاف إليهم أكثر من عشرة اعتبروا من اللصوص[4]، وفي كتاب أشعار اللصوص وأخبارهم، ورد ذكر شعراء لم ترد أسماؤهم في المصدرين السابقين[5].

ونحن أمام هذا العدد الكبير من الصعاليك واللصوص، نكتفي بالتحدث

---

(1) يقول: «واتضح لي أنها (حركة الصعلكة) ضعفت في هذه الفترة لاسباب عديدة أهمها أن الاسلام حل المشاكل التي ثار الصعاليك الجاهليون بسببها، إذ سوى بين الناس، وكفل لهم الحياة الكريمة، وأحاط المجتمع بالحدود التي تحافظ على النظام... الخ الشعراء الصعاليك في العصر الأموي / المقدمة ص 7.

(2) **شعر الصعاليك منهجه وخصائصه** ص 121 وما بعدها.

(3) المصدر السابق ص 138.

(4) **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ص 98 وما بعدها.

(5) **أشعار اللصوص وأخبارهم**. جمع وتحقيق عبد المعين الملوحي ـ دار أسامة ص 135.

عن نماذج منهم ممن سجنوا أو أسروا، وأكثروا من الانتاج الأدبي، مهملين المقلين، نظراً إلى وفرة عدد المسجونين أيضاً.

وهنا قد يتبادر إلى الذهن السؤال: لماذا إرتفع عدد السجناء والأسرى من الصعاليك في العصر الاسلامي، بينما قلّ عدد السجناء في الجاهلية؟

والجواب هو أن الدولة الجديدة فرضت وجودها على جميع أرجاء البلاد الاسلامية، فكانت تحاسب الخارجين على القوانين، مما لم يكن متوفراً في العصر الجاهلي. أما الذين وجدنا في شعرهم ما يساعدنا في بحثنا هُم:

1 ـ جحدر بن معاوية العكلي[1]

كان جحدر لصاً يقطع الطريق وحده وينهب الأموال ما بين «حجر واليمامة» فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف، فبعث إلى عامله إبراهيم بن عربي باليمامة، يشدد عليه في طلبه، فلم يزل يجد في أمره حتى ظفر به وأودعه في سجن دوّار (سجن باليمامة) فقال جحدر:

إنــي دعــوتــك يــا الــهَ مــحــمّــد ... دَعْـوَى، فَـأوّلُـهـا لـنـي اسـتـغـفـارُ
لـتـجـيـرنـي مـن شرّ مـا أنـا خـائـفٌ ... ربُّ الـبـريّـةِ، لـيـس مـثـلـك جـارُ
تـقـضـي ولا يـقـضـى عـلـيـك، وإنّـمـا ... ربّـي، بِـعِـلْـمِـكَ تـنـزل الاقـدارُ
كـانـت مـنـازلـنـا الـتـي كـنّـا بـهـا ... شـتّـى، وألّـفَ بـيـنـنـا دَوّارُ
سـجـنٌ يـلاقـي أهـلـه مـن خـوفـهِ ... أزلاً، ويُـمـنـع مـنـهـم الـزوّارُ
يـغـشـون مـقـطـرة كـأنَّ عـمـودهـا ... عُـنُـقٌ يـعـرّق لـحـمـهـا الـجـزّارُ[2]

لقد ضاقت به الحياة بحيث لم يجد أحداً يلجأ إليه، ويعوذ به الا الله، لعله يعفو عنه، وينقذه مما ينتظره من النهاية السيئة. ثم تحدث عن رفاقه المسجونين الذين سيقوا إلى دوّار، من مناطق مختلفة، فأصبحوا متآلفين وكأنهم أسرة واحدة.

ووصف لنا كيف كانوا يعذبون، إذ كانت أرجلهم توضع في مقطرة (نوع

---

(1) العكلي: نسبة إلى أمة يقال لها عكل حضنت الحرث وجشم وسعداً وعلياً أبناء عوف بن وائل بن قيس بن عوف بن عبد مناة بن أدّ بن طابخة، فغلبت عليهم رغبة الآمل من كتاب الكامل 2/ 135.

(2) ياقوت ـ معجم البلدان 2/ 222 و479 وقارن برغبة الآمل من كتاب الكامل 2/ 135 الحاشية.

من الفلق) ثم يضربون على أقدامهم، ويشبّه أرجلهم والدماء تسيل منها بالعنق (أنثى الماعز)، أخذ الجزّار يجرد لحمها والدماء تسيل منها.

ولما اشتد عليه العذاب وطال حبسه في دوار صرخ قائلاً:

يـا ربَّ دوَّارَ أنـقـذ أهـلَـهُ عَـجِـلا   وانـقـض مـرائـرهُ مـن بـعـد إبـرام
ربِّ ازمِـهِ بِـخَـرَابِ، وازمِ بـانِـيَـهُ   بصولةٍ من أبي شِبْلَيْن[1] ضرغَامِ[2]

إنه يستغيث بالله أن يخرجه ورفاقه من سجن دوار عجلاً، وان يقوض أركانه ويمحق من شاد بنيانه.

ثم أخرجه ابن عربي من سجنه، وأرسله إلى الحجاج، مكبّلاً بالحديد، ولما قدم على الحجاج، قال له: أنت جحدر؟ قال: نعم، قال: ما حملك على ما بلغني عنك؟ قال: كلب الزمان وجرأة الجنان، فأمر بحبسه فحبس، فحنّ إلى بلاده وقال:

لـقـد صـدع الـفـؤادَ، وقـد شـجـانـي   بـكـاءُ حـمـامـتـيـن تـجـاوبـانِ
تـجـاوبـتـا بـصـوت أعـجـمـيّ   عـلـى غـصـنـيـن: مـن غَـرب وبـان
فـأسـبـلـتُ الـدُّمـوع بـلا احـتـشـام   ولـم أكُ بـالـلـئـيـم ولا الـجـبـان
فـقـلـت لـصـاحـبـيّ: دعـا مَـلامـي   وكـفّـا الـلـوْمَ عـنّـي واعـذرانـي

...

ألـيـس الله يـجـمـع أم عـمـرو   وإيـانـا، فـذاك بـنـا تَـدَان[3]؟

...

هذه الأبيات تمتلئ حزناً وحنيناً، وتعبر عن أسى «جحدر» وحزنه وهو

(1) أبو الشبلين عامر بن عمرو بن الحرث كان له إبنان توأمان يدعيان الشبلين. **القاموس المحيط** 3/ 410.

(2) ياقوت - **معجم البلدان** 2/ 479.

(3) معجم البلدان 2/ 222 وقارن **بالأمالي للقالي** 1/ 281 حيث هناك اختلاف في الأبيات الأربعة الأولى وزيادة في بعض الأبيات، وتبديل في بعض الكلمات. أما في **الكامل** للمبرد 1/ 85 فقد ذكر ثلاثة أبيات فقط، أحدهما: فكان البان... ورد في الأمالي ولم يرد في معجم البلدان مع شيء من التحريف وهكذا في **رغبة الآمل من كتاب الكامل** 2/ 135، والقصيدة في الحاشية وراجع ما ذكرناه ص 49.

في سجن الحجاج في واسط، وهو ينتظر الموت، فأخذت دموعه تتساقط بغزارة، وهو الذي تعوّد الاقدام والشجاعة تذكر وزوجته وأهله ورفاقه فأخذ يبكي بكاء حاراً ويحن حنيناً مراً إلى زوجته ويرسل في النهاية رسالة إلى ذويه ومعارفه الذين سيذرفون الدموع عليه بغزارة حينما يعرفون انه قد قتل.

بلغ هذا الشعر، الحجاج وأثر في نفسه، على الرغم من اقتناعه بضرورة الحكم على جحدر بالموت، ففتح له نافذة ضيقة من الأمل إن أخرجته منها بطولته إستحق الحياة. إذ أحضره بين يديه ثم تركه يصارع أسداً فانتصر جحدر عليه. فأكرمه الحجاج واستنابه وخلع عليه وفرض له في العطاء وجعله من أصحابه[1].

وقد ورد أن «جحدراً» لما التقى بالأسد يستعد للانقضاض عليه، والحجاج وجلساؤه يراقبونهما، أخذ جحدر يرتجز:

ليث وليث في مجال ضنك ... كلاهما ذو أُنف ومحك

وبطشة وصولة وفتك ... إن يكشف الله قناع الشك

يظفر في حاجتي ودرك ... فهو أحق منزل بترك

الذئب يعوي والغراب يبكي[2]

إنه الموقف الحاسم، اما الحياة واما الموت، فهي الفرصة الأخيرة، وقف جحدر للسبع بين مخافة المعجبين وشماتة الجبناء، وتشبث بالحياة، واستبسل فقتل خصمه. وبعدما هدأ روعه، أخذ يصف لنا مشاعره عند قتله الأسد، قال:

يا جُمل إنك لو شهدت كريهتي ... في يوم هول مسدف وعجاج

وتقدمي لليث أرسف موثقاً ... كيما أكابره على الأحراج

...

أقبلت أرسف في الحديد مكبّلاً ... للموت نفسي عند ذاك أناجي

...

(1) ياقوت ـ معجم البلدان 2/ 223، راجع ما ذكرناه ص 49.

(2) الحماسة البصرية 2/ 338.

نـازلـتـه إنّ الـنـزال سـجـيّـتـي إنّي لـمـن سـلـفـي عـلـى مـنـهـاج
وعـلـمـت أنّـي لـو أبـيـت نـزالـه إنّـي مـن الـحـجـاج لـسـت بـنـاج
فـفـلـقـت هـامـتـه فـخـرّ كـأنـه أطـم هـوى مـتـقـوّض الابـراج
...
ولـئـن قـذفـت بـي الـمـنـيـة عـامـداً إنّـي لـخـيـرك بـعـد ذاك لـراج
عـلـم الـنـسـاء بـأنـنـي ذو صـولـة فـي سـاعـة الإلـجـام والإسـراج[1]

من حقه أن يفتخر بشجاعته، كيف لا؟ وقد انتصر على الأسد المفترس، وهو مقيد تثقل كواهله الأغلال والكبول، ومن حقه أن يطالب الحجاج بالبر بالوعد فيطلقه، وهذا ما حصل فعلاً.

2 ـ السمهري بن بشر العكلي[2]

السمهري، من شعراء الدولة الاموية، ومن لصوص العرب الفتاكين، فر من العدالة لاشتراكه في قتل عون بن جعدة... بن مخزوم... بن غالب، الذي كان يريد الحج من الكوفة، اعترضه السمهري ورفاقه وقتلوه، وأخذوا ما كان معه من المال. بلغ الخبر الخليفة عبد الملك بن مروان، فكتب إلى الحجاج بن يوسف، وهو عامله على العراق، وإلى هشام بن إسماعيل وهو عامله على المدينة، وإلى عامل اليمامة: ان يبالغوا في طلب قتلة عون، وان يجعلوا لمن دل عليهم مكافأة. فقبض على السمهري عند بني فزارة، وسلّم إلى والي المدينة، فجحد ولم يعترف باشتراكه في عملية القتل وأنكر أي علم له بهذا الموضوع. لذلك أودع السجن، وضيّق عليه، فأيقن أنه غير ناج وجعل يلتمس الخروج من السجن حتى سنحت له الفرصة، يوم جمعة، والامام يخطب، وقد شغل الناس بالصلاة، كسر إحدى حلقتي القيد، ثم رمى بنفسه من فوق السجن، وهرب، ولما بعد عن البلد، كسر الحلقة الثانية، وانطلق متوغلاً في الصحراء حتى بلغ منازل «عكل». وكان الوالي قد أكثر الجعل،

(1) **الحماسة البصرية** 2/ 337.

(2) السمهري بن بشر بن أقيش (أويس) بن مالك بن الحارث بن أقيش العكلي، ويكنى أبا الديل. **الأغاني** 21/ 233.

فمر بابني فائد بن حبيب من بني أسد، فوثبا عليه وأوثقاه وانطلقا به إلى عامل المدينة، فدفعه إلى السجن حيث بقي فيه مدة من الزمن، حتى أتاه فيه أمر الخليفة، فدفعه إلى ابن أخي «عون»، فقضى على السمهري[1].

وللسمهري في سجن المدينة قصائد رائعة، وشعر جميل ومنه قوله:

ألا أيها البيتُ الذي أنا هاجِرُهْ　　فلا البيتُ منسيٌّ ولا أنا زائرُهْ

ألا طرقت ليلى وساقي رهينةٌ　　بأشهبَ مشدودٍ عليّ مَسَامِرُهْ

فإنْ أنجُ يا ليلى فربَّ فتىً نجا　　وإنْ تكنِ الأخرى فشيءٌ أحاذِرُهْ[2]

يخاطب السمهري بيت حبيبته الذي هجره، فهو يتذكره دائماً ولم يزره، وذلك رغماً عنه لأنه في غياهب السجن حيث يثقل عليه بالقيود والاغلال المثبتة إلى الجدران، ثم يخاطب طيف حبيبته ليلى، وقد زاره في سجنه، قائلاً له، فاما أن أنجو، وقد ينجو الفتى من المهالك واما أن أموت، وهذا ما أخافه وان كان لا مفر منه.

يبدو أن السمهري كان يقضي وقتاً طويلاً في سجنه مع طيف ليلى، إذ يقول:

ألا حيِّ ليلى إذ ألَمَّ لِمَامُهَا　　وكان مع القوم الأعادي كلامُها

تعلّلْ بليلَى إنما أنتَ هامةٌ　　من الغد يدنو كلَّ يومٍ حِمَامُها

...

لقد طرقتْ ليلَى ورِجْلِي رهينةٌ　　فما راعني في السجن إلاّ لِمامُها

فلمّا انتبهتُ للخيال الذي سرى　　إذا الأرضُ قفر قد علا قَتَامُها

...

ألا ليتَنا نَحيَا جميعاً بِغِبْطَةٍ　　وَتَبْلَى عظامِي حينَ تَبْلَى عِظامُها[3]

وفي مكان آخر، ومع ليلى أيضاً وطيفها يقول:

---

(1) الاصبهاني - الأغاني 21/ 233 وما بعدها.

(2) الأصبهاني - الأغاني 21/ 238.

(3) الأصبهاني - الأغاني 21/ 241.

ألا طرقتْ لَيْلى وساقي رَهينةٌ   بأسمَرَ مشدودٍ عليّ ثقيلُ

. . .

فإن أنْجُ منها أنْجُ من ذي عظيمةٍ   وإن تكن الأخرى فتلك سبيلُ[1]

إنها الصورة نفسها تتكرر في شعر السمهري، يبدل الألفاظ ويبقى المعنى في الإطار نفسه، وثمة سؤال: هل كان السمهري عاشقاً حقاً؟ وهل ليلاه هذه امرأة لها وجودها الحقيقي؟ وهذا اللص الفاتك المتشرد، الذي تطارده السلطات والاعداء معاً ولا ملجأ له الا شعاف الجبال والمغاور والأودية، ولا معاش له إلا من سلب وفتك، هل كانت عنده تلك العواطف والاحاسيس من حب وعشق وهوى؟

يفرض واقع السجن على الانسان، التعطش إلى العطف والحنان، والتوق إلى الانطلاق والحرية، فيحس بالحرمان، ويشعر بالحاجة إلى من يبثه شكواه، ويفضي إليه بنجواه، فتتفاعل تلك الاحاسيس في داخله وينتج عنها الصورة الطبيعية ـ صورة المرأة ـ شريكة الحياة، النصف الثاني، المتمم للرجل، حيث الانس والحنان والعطف، وهذا ما كان من أمر السمهري في وحدته، حيث تراءى له طيف المرأة التي أطلق عليها اسم ليلى.

وكان السمهري وهو في سجنه يحرض أهله على الانتقام من الذين قبضوا عليه حيث يقول:

فمن مُبْلِغٌ عنّي خليلِيَ مالكاً   رسالة مشدود الوَثَاقِ غريبِ

. . .

لِيُبْكوا التي قالت بصحراءِ مَنْعِجٍ   لِيَ الشّرك يا بَني فائدِ بنِ حبيبِ
أتضرب في لحمي بسهم ولم يكنْ   لها في سهام المسلمين نصيب[2]

إنه يحرض أهله على الانتقام ممن قبضوا عليه ومن بينهم إمرأة اشترطت أن يكون لها حصة من المكافأة وهو يتعجب من طلبها، مع أن المرأة ليست بذاتَ نصيب في الجهاد وغيره من الحروب، وهو في الوقت نفسه يذكر أهله ويستعطفهم بأنه مكبّل بالقيود، مشدود الوثاق.

---

(1) المصدر نفسه 21/ 242.

(2) الأصبهاني ـ الأغاني 21/ 239.

ويبدو، أن السمهري لم يصل إلى مبتغاه عن طريق أهله وعشيرته، فلجأ إلى أسلوب آخر، طرق باب خصومه، وأخذ يرقّق بني أسد، قائلاً:

تَمَنّتْ سليمى أن أَقِيلَ بأرضها ... وأنى لِسَلْمى وَيْحَها ما تَمَنّتِ
ألا ليتَ شعري هل أزورَنَّ ساجِراً ... وقد رَوِيَتْ ماءَ الغوادي وعلتِ؟
بني أسدٍ هل فيكُمُ من هَوَادَةٍ ... فَتَغْفَرَ إن كانتْ بي النّعلُ زلّتِ[1]

لم تهبّ قبيلته إلى نصرته، ولم ينفعه إستجداء بني أسد، فانطلق يذمّ قومه ويصف لنا حالته في السجن وحالة رفاقه، قائلاً:

لقد جمع الحدادُ بين عِصابة ... تسائل في الأقياد ماذا ذُنوبُها؟
بمنزلة أمّا اللئيمُ فَشَامِتٌ ... بها، وكرامُ القومِ بادٍ شحوبُها
إذا حَرَسِيٌّ قَعْقَعَ البابَ أُرْعِدَتْ ... فرائصُ أقوام وطارت قلوبُها
ألا ليتني من غير عُكْلٍ قبيلتي ... ولم أدرِ ما شُبّانُ عُكلٍ وشِيبُها؟
قَبيلة «مَنْ» لا يقرع البابَ وفدُها ... لخيرٍ ولا يهدي الصوابَ خطيبُها
نرى الباب لا نَسطيع شيئاً وراءه ... كأنّا قُنِيٌّ أسلَمَتْها كُعُوبُها
وإن تكُ عُكلٌ سرَّها ما أصابني ... فقد كنتُ مصبوباً على ما يَريبُها[2]

يصف السمهري السجن الذي ضم بين جدرانه أخلاطاً من المساجين الذين تباينت جرائمهم، وكيف أن السجان قيدهم فيه بالاغلال واغلق الباب عليهم. وامتلأت قلوبهم خوفاً، وكيف أنهم كانوا، إذا فتح الحارس باب سجنهم، يشتد بهم الفزع والهلع، وتخور قواهم، وتنهار أعصابهم. وهذا الوصف صادر عن ذاتية تنضح شقاء يبين جانباً من واقع الحبس وأهله وأحوالهم النفسية، إذ أن فتح باب السجن، بدلاً من أن يكون فال خير، يتوقع منه المحبوسون الفرج والحرية، كان فتحه أحياناً ينم عن مفاجآت غريبة، فيستدعى قوم إلى القتل والتعذيب.

كما ينحي باللائمة على عشيرته «عكل» التي أبت احتمال جنايته،

(1) الأصبهاني - **الأغاني** 21/ 240 وقارن **بمعجم البلدان** 3/ 169 (ساجر) حيث ذكر البيتين الأولين.

(2) **الأغاني** 21/ 240 وقارن **بالشعراء الصعاليك في العصر الأموي** - عطوان ص 59.

وقعدت عن نصرته في تشرده وسجنه قعوداً أغضبه، فانفجر غضبه هجاء مراً، مقذعاً يقذفه في وجوه شيبها وشبانها. وما زال إحساسه بتقصيرها وسخطه عليها يتضخمان في نفسه حتى يود لو أنه لم ينتسب إليها.

وهذا الشعور عند هذا الصعلوك إن هو إلا نموذج لشعور عامة الصعاليك، إذا انقطعت الروابط بينهم وبين قبائلهم، وأصبحت رابطة الصعلكة هي الأقوى.

هكذا كانت حياة السمهري، فكيف كانت حياة صعلوك آخر، «أبو الطمحان القيني» وماذا قدّم لنا من أدب السجون؟.

3 ـ أبو الطمحان القيني[1]

شاعر محسن مشهور، كان فارساً خارباً (سارق الابل خاصة) صعلوكاً. وهو من المخضرمين، أدرك الجاهلية والاسلام، فكان خبيث الدين فيهما كما يذكر، وهو أحد المعمرين عاش مئتي سنة وفي ذلك يقول:

حَنَتْنِي حادِثَاتُ الدَّهْرِ حتى   كَأَنِّي خاتِلٌ يَدْنُو لِصَيْدِ
قَرِيبُ الْخَطْوِ يَحْسَبُ مَنْ رَآنِي   وَلَسْتُ مُقَيَّداً أَنِّي بِقَيْدِ

وينسب إليه قوله:

...

وإنّي من القوْم الذين هُمُ هُمُ   إذا مات مِنهُم سيِّدٌ قام صاحِبُهْ

...

أضاءتْ لهم أحسابُهُمْ ووجوهُهُمْ   دُجى اللَّيلِ حتى نَظَّمَ الجِزْعَ ثَاقِبُهْ

(1) إسمه حنظلة بن الشرقي أحد بني القين بن جسر بن شيع الله من قضاعة وقيل ربيعة بن عوف ابن غنم بن كنانة بن القين بن جسر. والطمحان من طمح بأنفه إذا تكبّر، والقين: الحداد وكل صانع أيضاً. مولده نحو سنة 7 بعد الميلاد النبوي بوادي عمد وكان يعرف بوادي قضاعة بحضرموت ووفاته نحو 30 هجرية كان نديماً للزبير بن عبد المطلب في الجاهلية ثم أدرك الاسلام. **شرح ديوان الحماسة** 3/ 132 وقارن **بالمؤتلف والمختلف** / للمرزباني ص 149 رقم 484، **وبالاعلام** 2/ 286.

ويقال هو أمدح بيت قيل في الجاهلية[1].

كان أبو الطمحان من الخلعاء الشذاذ، ولم تحدثنا أخباره عن سبب خلعه، والأرجح أنه خلع لسوء أخلاقه، وقد سئل عن أدنى ذنوبه لأنه كان معروفاً بارتكابه الكبائر، فاندفع يقص في استهتار ليلة ارتكب فيها أربع موبقات[2].

وقد تقلبت الايام بأبي الطمحان تقلباً عنيفاً، فقضى حياة مضطربة، شأنه في ذلك شأن معظم الصعاليك، لم يكد يعرف طعم الاستقرار إلا في فترات متقطعة، متنقلاً بين أحياء العرب، مستجيراً بها، ويبدو أنه كان سيء الحظ مع جيرانه، إذ ورد أنه كان مجاوراً لبطن من طيء يقال لهم بنو جديلة، فنظح تيس له، غلاماً منهم، فقتله، فتعلّقوا أبا الطمحان وأسروه حتى أدى ديته مئة من الابل، وجاءهم نزيله، وكان يدعى هشاماً، ليدفع عنه، فلم يقبلوا قوله، فقال له أبو الطّمحان:

أتاني هشامٌ يدفعُ الضَّيْمَ جَاهِداً ... يقولُ ألا ماذا تَرى وتَقولُ

فقلت له قُمْ يا لَكَ الْخَيْرَ أدّها ... مُذَلَّلَةً إنّ العزيزَ ذَلِيلُ

فإن يكُ دونَ الْقَيْنِ أغبرُ شامخٌ ... فليس إلى الْقَيْنِ الْغَدَاةَ سبيلُ[3]

من هذا القول يتبين لنا أن «أبو الطمحان»، كان يحس بالألم والمرارة لبعده عن أهله وعشيرته، ويعتبر طلب بني جديلة غير محقّ لأن البهيمة العجماء هي التي قتلت الغلام، وليس هو قاتله، وهم يطلبون منه أداء ديته كاملة وكأنه هو القاتل، لذلك شعر بالذل والمهانة، وأن العزيز يذل إذا وقع في مثل ما وقع فيه أبو الطمحان.

وكان أبو الطمحان مجاوراً في جديلة من طيء، وكانت قد اقتتلت بينها وتحاربت الحرب التي يقال لها «حرب الفساد» وتحزبت حزبين: حزب جديلة

---

(1) الاصابة في تمييز الصحابة 1/ 382، وقارن بالشعر والشعراء لابن قتيبة 1/ 304 وما بعدها. وبالكامل / للمبرد 1/ 30 وما بعدها. وخزانة الادب 1/ 567 (الهامش)، وبالامالي 1/ 110، وبشعر الصعاليك / حفني ص 125.

(2) الأغاني 13/ 7 وقارن بالشعر والشعراء 1/ 304.

(3) الأصبهاني ـ الأغاني 13/ 11.

وحزب الغوث، فانهزمت جديلة وأسر أبو الطمحان في هذه الحرب، أسره رجلان من طيء واشتركا فيه، فاشتراه منهما «بجير بن أوس بن حارثة» لما بلغه قوله:

أرِقْتُ وآبَتْنِي الهمومُ الطَّوارِقُ ... ولم يَلْقَ ما لاقيتُ قبليَ عاشِقُ

إليكم بني لأمٍ تَخُبُّ هِجَانُها ... بكلِّ طريقٍ صَادَفَتْهُ شَبَارِقُ

لكم نائِلٌ غَمْرٌ وأحلامُ سادةٍ ... وألْسِنَةٌ يومَ الْخِطابِ مَسَالِقُ

ولم يَدْعُ داعٍ مثلَكم لِعظيمةٍ ... إذا وَزَمَتْ بالسَّاعِدِيْنِ السَّوَارِقُ[1]

فلما بلغ هذا الشعر «بجير بن أوس» اشتراه من آسريه وجزّ ناصيته واعتقه. في هذا الشعر يصوّر لنا «أبو الطمحان» حالته في الأسر، إذ هو كثير الهموم، تتوالى على مخيلته، فيقضي ليله أرقاً، وهو يقاسي من ألم القيود والجوامع التي تشد بها ساعديه. لذلك يتوجه إلى بني لأم مادحاً ومستنجداً بهم على إنقاذه، فكان أن تمكن من الوصول إلى غايته عن طريق شعره، وأطلق سراحه.

وورد أن «أبا الطمحان» جنى جناية، فطلبه السلطان، فلجأ إلى بني «فزارة» فنزل على رجل منهم يقال له «مالك بن سعد» فآواه وأجاره وخلطه بنفسه، وممّا قاله في مدحه:

سأمدَحُ مالكاً في كلِّ ركبٍ ... لَقِيتُهُمُ وأتْرُكُ كلَّ رَذْلِ

. . .

نَمَتْ بِكَ من بني شَمْخٍ زِنَادٌ ... لها ما شئتَ من فَرْعٍ وَأصْلِ

فقال له مالك: مرحباً، فإنك حبيب إزداد حباً، فأقم على الرّحب والسّعة، فلم يزل مقيماً عندهم حتى هلك في دارهم[2].

وذكر أيضاً أبو الفرج الاصبهاني، البيتين التاليين لأبي الطمحان:

ألاَ عَلِّلانِي قبلَ نَوْحِ النَّوَائِحِ ... وقبلَ نُشوزِ النفس بين الْجَوَانِحِ

(1) الأصبهاني - **الأغاني** 13/ 10.

(2) الأصبهاني - **الأغاني** 13/ 8.

وقَبل غدٍ، يا لَهْفَ نفسي على غدٍ   إذا راحَ أصحابي ولستُ بِرَائِحِ[1]

على الرغم من أنَّ أبا الطمحان عاش حوالي مئتي سنة، فإنه يبدو عليه خوفه من الموت وتعلقه بالحياة، وأكثر ما يخشاه الشاعر من الموت، وحدته، حيث سيودعه أصحابه اللحد ويتركوه وحيداً.

وهكذا قضى، هذا الصعلوك، السيء الحظ، حياته الطويلة مشرّداً، حتى تداركته يد هذا السيد النبيل «مالك» في أخريات أيامه، ومات عنده بعيداً عن الأهل والخلاّن.

4 ـ القتّال الكلابي[2]

كان القتّال شاعراً، شجاعاً، ولصاً فاتكاً كثير الجرائم، وكان في دناءة النفس كالحطيئة، وكان شديد حمرة اللون، وكانت عشيرته تبغضه لكثرة جناياته وما يلحقها من أذاه، فأهملته وتقاعست عن مساندته، حتى ذلّ فيها، وهان عليها، وشاع خبر تخلّيها عنه، وأخذ أفرادها يعيرونه بذلك، مرددين أنه كلٌّ عليهم، خامل فيهم، ضعيف أمام خصمه بينهم، مما أثاره فتمنى ان لو كان من غير قبيلته وأخذ يندد بها قائلاً:

يا لَيْتَنِي والمُنَى ليستْ بِنَافِعَةٍ   لِمالِكٍ أو لِحِصْنٍ أو لِسَيَّارِ

. . .

لا يَتْرُكونَ أخاهُم في مُوَدَّأةٍ   يَسْفِي عليه دليلُ الذُّلِّ والعارِ[3]

وعلى ما سيطر على نفس القتال من حب للبطش، واستخفاف بالحياة، وعلى ما غلب على حياته من التشرد والتخفي، فإن ذلك لم يشغله عن التفكير في المرأة والتعلق بها. فقد ورد أنه كان يحب ابنة عمه «عالية» ويذكرها في

---

(1) الأصبهاني ـ **الأغاني** 13/ 12 وقارن **بالحماسة** 3/ 132.

(2) إختلف في إسمه فقيل عبد الله بن محبب وقيل عبد الله بن مجيب، وقيل عبد الله بن المضرجي وقيل عبادة وقيل عبيد، من بني كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. يكنى أبا المسيب ويلقب القتال، لتمرده وفتكه بالناس. أنظر **المؤتلف والمختلف** ص 167 **والكامل** للمبرد 1/ 34، **والأمالي** 2/ 225 **وخزانة الأدب** 3/ 668.

(3) **الشعر والشعراء** 2/ 594 البغدادي ـ **الخزانة** 3/ 668 ـ القالي ـ **الأمالي** 2/ 226.

شعره، فاشتكى أهلها إلى السلطة التي قبضت عليه وأودعته السجن، وبعد مدة من الزمن، أتاه «الاخرم بن مالك» مع نفر من أبناء العشيرة، فشرطوا على «القتال» وهو محبوس، الاّ يذكر «عالية» في شعره، فضمن ذلك لهم، فأخرجوه من السجن عشاء. ثم راح القوم من السجن وراح القتال معهم حتى إذا كان في بعض الليل، إنحدر يسوق بهم، ويقول:

قــلــتُ لــه يــا أخــرمُ بــنَ مــالِ

...

فــارفــعْ لــنــا مــن قُــلُــصٍ عِــجــالِ

...

لــعــلّــنــا نــطــرُقُ أمْ عــالِ

فنزل القوم فربطوه، ثم آلوا ألاّ يحلّوه حتى يوثق لهم بيمين ألا يذكرها أبداً ففعل وحلّوه[1].

يبدو أن «القتال» لم يبرّ بوعده، ولم يبتعد عن «العالية»، فقد ورد أنه كان مرة يتحدث إليها، فرآهما أخوها «زياد» فأخذ السيف، فخرج «القتّال» هارباً، وخرج زياد في أثره، فلما دنا منه ناشده «القتّال» بالله والرحم، فلم يلتفت اليه، فعطف عليه وقتله وفي ذلك يقول:

نَـهـيـتُ زيـاداً والـمَـقـامـةُ بـيـنـنـا وذكّـرتُـه بـالله حـولاً مُـجَـرَّمـا

فـلـمّـا رأيـتُ أنّـهُ غـيـرُ مُـنْـتَـهٍ ومـولايَ لا يـزدادُ إلاّ تـقـدُّمـا

أمَـلْـتُ لـه كـفّـي بـأبـيـضَ صـارمٍ حُسامٍ إذا ما صادَفَ الْعَظْمَ صَمَّمَا

ثم خرج هارباً، وأصحاب القتيل يطلبونه، فلحق بجبل «عماية» فاستتر فيه. وقال:

جَـزَى اللهُ عَـنّـا والـجـزاءُ بـكـفّـهِ عَـمَـايَـةَ خـيـراً أمّ كـلّ طَـريـدِ

فـمـا يـزدهِـيـهـا الـقـومُ إن نـزلُـوا بـهـا وإن أرسـل الـسُّـلـطـانُ كـلَّ بَـريـدِ[2]

---

(1) الأغاني 24/ 190.

(2) الأغاني 24/ 170 وما بعدها. وقارن بشرح ديوان الحماسة / لأبي تمام 1/ 105 وما بعدها.

يتحدث «القتّال» في هذه الأبيات عن شكره ووفائه لجبل «عماية» وتعظيمه إياه، لأنه يقوم مقام الأم الحنون، لكل شريد، فقد وجد في شعابه الملجأ الأمين.

لم يستطع «القتّال» مبارحة الجبل، حتى صالح أخوه عنه، ومع ذلك لم يقدر على العودة إلى قبيلته لازورارها عنه، فانحدر إلى البوادي، ورافق اللصوص، وكان يخيف السبيل حول المدينة في ولاية مروان بن الحكم، ولعل مروان أراد استصلاحه فاستدعاه، فلم يطمئن القتّال إليه وتباعد عن يده، وفي ذلك يقول:

أيُـرْسِـلُ مـروانُ الأمـيـرُ رِسـالـةً　　لآتـيـهِ إنّـي إذاً لـمُـضَـلَّـلُ
ومـا بِـي عِـصـيـانٌ ولا بُـعْـدَ مـنـزلٍ　　ولكنَّني من خَوْفِ مَروانَ أوْجَلُ[1]

يسيطر الرعب والذعر على «القتّال» من مروان وسجنه وعقابه، لذلك لا يستجيب لرغبته، وفضّل الاختفاء في مجاهل الأرض، وهذا شأن الصعاليك.

ولكن أنّى له العيش الكريم، فعشيرته تخلت عنه، والسلطان يطلبه، ومن أين يحصل على قوته وقوت عياله، ليس أمامه سوى اللصوصية والاغارة وقطع الطريق.

ورد في الأغاني: «خرج ابن هبّار القرشي» إلى الشام، في تجارة، فاعترضه جماعة فيهم القتّال الكلابي وغيره، فقتلوه وأخذوا ماله. وشاع خبره، فاتّهم به جماعة من بني كلاب وغيرهم من فتّاك العرب، فأخذوا وحبسوا، أخذهم عامل مروان بن الحكم، فوجههم إليه وهو بالمدينة، فحبسهم ليبحث عن الأمر، ثم يقتل، قتلة ابن هبّار، فلما خشي «القتّال» أن يعلم أمره... اغتال السجان فقتله، وخرج هو ومن كان معه من السجن فهربوا» وذكر ذلك في قصيدة منها:

وإنّـي وذكـرِي أمَّ حسّـانَ كـالـفـتـى　　متى ما يَذُقْ طعم المُدامة يَجْهَلِ

---

(1) الحيوان 6/ 452 وقارن بشرح ديوان الحماسة 1/ 106 حيث يوجد اختلاف في بعض الكلمات وخاصة صدر البيت الأول. وبالشعر والشعراء 2/ 594 حيث لم يذكر البيت الثاني بل ذكر أبياتاً أخرى.

ألا حبّذا تلك البلادُ وأهلُها | لَوَ انَّ عَذَابِي بالمدينة يَنْجَلِي
برزتُ لها من سجنِ مروانَ غُدْوَةً | فآنستُها بالأيم لم تتحوَّلِ

...

ولما رأيتُ البابَ قد حيلَ دونَهُ | وخِفْتُ لِحاقاً من كتابٍ مُؤَجَّلِ
حملتُ على المكروهِ نفساً شريفةً | إذا وُطِّئَتْ لم تستقِدْ للتذلُّلِ
وكالِئُ باب السجنِ ليس بِمُنْتَهٍ | وكان فِراري منه ليس بِمُؤْتَلِي
إذا قلتُ رَفِّهْنِي مِنَ السِّجنِ ساعةً | وتَمِّمْ بها النُّعْمَى عليَّ وأفْضِلِ
يَشُدّ وَثاقاً عابِساً وَيَغُلُّنِي | إلى حَلَقاتٍ من عمودٍ مُوَصَّلِ
فقلتُ له والسّيفُ يَغْضِبُ رأسَهُ | أنا ابنُ أبي التيْمَاءِ غيرُ الْمُنَحَّلِ[1]

...

يبدو لنا من هذه الابيات التي اجتزأناها من قصيدة «القتال الكلابي» ان شاعرنا هذا انفرد بالقصيدة الطويلة إذ أن شعراء الصعاليك عودونا على المقطوعات.

أما من حيث المضمون، فإننا نحس تعلقه بالمرأة وحبه للاستقرار، وحنينه إلى الوطن، وعندما خاف أن يعدم، وضاقت عليه وسائل النجاة من السجن والقصاص، إغتال السجان وهرب من السجن، وبذلك تخلص مما كان يعانيه من عذاب السجان وآلام القيود والاغلال ليقضي بقية حياته مشرداً لصاً فاتكاً.

هذا ما كان من أمر «القتّال الكلابي» ولنتعرف الآن على صعلوك آخر هو: يعلى الأحول الأزدي.

5 ـ يعلى الاحول الأزدي[2]

هو شاعر إسلامي لص من شعراء الدولة الاموية، كان فاتكاً خارجاً،

(1) الأصبهاني ـ الأغاني 24/ 178 وما بعدها.
(2) هو ابن مسلم بن أبي قيس، أحد بني يشكر بن عمرو... بن عمرو... بن ثعلبة بن عمرو بن عامر.

وكان خليعاً يجمع صعاليك الأزد وخلعاءهم، فيغير بهم على أحياء العرب، ويقطع الطريق على السابلة، فشكي إلى «نافع بن علقمة الكناني»، وهو خال مروان بن الحكم، وكان والي «مكة» فأخذ نافع به عشيرته الأزديين (الادنين)، فلم ينفعه ذلك، واجتمع إلى «نافع» شيوخ الحي فعرّفوه أنه خليع قد تبرأوا منه ومن جرائره إلى العرب، وانه لو أخذ به سائر الأزد ما وضع يده في أيديهم، فلم يقبل «نافع» ذلك منهم، وألزمهم أحضاره، وضم اليهم شرطاً يطلبونه إذا طرق الحي حتى يجيئوه به[1].

فلما اشتد عليهم في أمره طلبوه، فوجدوه، فأتوا به إلى نافع، فقيده وأودعه الحبس. ولا جرم أن يضيق بهذا السجن ذرعاً، وتطول لياليه، وتهزه الذكريات، ذكريات الصحارى والقفار، ودنيا الصعلكة والاهوال والمخاطرات فيقول في سجنه:

أرقتُ لبرقٍ دونه شَذَوَانِ ... يَمَانٍ وأهوى البرقَ كلَّ يَمَانِ
فَبِتُّ لدى البيت الحرام أشِيمُهُ ... ومِطْوايَ من شوقٍ له أرِقَانِ
إذا قلتُ: شِيماهُ يقولان والهوى ... يصادف منّا بعض ما تريانِ

. . .

هنالك لو طَوَّفْتُما لوجدتما ... صديقاً من اخوانٍ بها وغوانِ
وعزفُ الحمامِ الْوُرْقِ في ظلِّ أيكةٍ ... وبالحيِّ ذي الرَّوْدَيْنِ عزفُ قيانِ
ألا ليت حاجاتي اللّواتي حَبَسْنَنِي ... لدى نافع قُضِّينَ منذُ زمانِ
وما بِيَ بُغْضٌ للبلادِ ولا قِلىً ... ولكنَّ شوقاً في سواه دعاني
فليتَ القِلاص الأُدْمَ قد وخَدت بنا ... بوادٍ يمانٍ ذي رُباً ومجاني

. . .

وليتَ لنا بالجوزِ واللّوزِ غِيلَةً ... جناها لنا من بطنِ حَلْيَةَ جانِي
وليتَ لنا بالدِّيك مُكَّاءَ روضةٍ ... على فَنَنٍ من بطنِ حَلْيَةَ دانِي
وليتَ لنا مِنْ ماءِ حزنة شَرْبَةً ... مُبَرَّدَةً باتتْ على طَهَمَانِ[2]

---

(1) البغدادي ـ خزانة الأدب 2/ 405 وقارن مع الأغاني 22/ 147.

(2) الأصبهاني ـ الأغاني 22/ 148.

أما البغدادي فقد ذكر هذه القصيدة، ونقل عن رواية أبي عمر الشيباني، أن مطلعها هو:

أوَيْحَكُما يا واشِيَيْ امِّ مَعْمَرٍ بِمَنْ وإلى مَنْ جِئْتُما تَشِيَانِ
بِمَنْ لو أراهُ عَانِياً لَفَدَيْتُهُ وَمَنْ لو رآني عَانِياً لَفَدَانِي[1]

يفيض «يعلى الاحول» في الحديث عن تشوقه إلى موطنه، وهو محبوس في سجن من سجون مكة، ويعدد أغلب مواضعه، ويتشوق إلى طبيعته الجميلة، وما يلوح في سمائها من بروق وسحب، وما يصدح على أشجارها من أطيار. . . ويفضل الحياة فيها على الحياة في مكة وحيوانها وثمارها ويحن كذلك إلى أصحابه ومجالس سمرهم ولهوهم، فهل هذا الحنين إلى الوطن كان بسبب البعد عنه؟ أو هو توق إلى الحرية وإلى الطبيعة التي افتقدها بعد الحجر عليه داخل السجن؟

كان المظنون أن تختفي حركة الصعلكة، بعد تحول العرب من عهد القبائل المتناصرة، التي لا تخضع لهيئة حاكمة موحدة، إلى عهد الدولة المنظمة، إنما الواقع أثبت استمرارية هذه الحركة مع توافق كبير بين ما اتصف به الصعاليك في العصر الجاهلي، وأولئك في العصر الاسلامي، إذ أنهم جميعاً كانوا فقراء مشردين في الصحراء، كما كانوا أيضاً أقوياء أولي بأس شديد لا يرهبهم الموت. فقد آمنوا بالقوة شريعة، وبالغزو وسيلة، وبالنهب غاية.

إن الصعلكة في المجتمع الاسلامي لم يتغير مفهومها ومعناها عما كانا عليه في المجتمع الجاهلي، وكل ما هناك من فرق أن بعض طوائف الصعاليك الجاهليين قلّت في المجتمع الاموي، مثل طائفة الاغربة السود، وأن بعضهم أخذه الخوف، واستبد به الذعر مما كان يتوعده به الخلفاء والعمال من العقاب، فتوغل في المناطق النائية من الفيافي والقفار، فاشتد به الحنين إلى الأهل والوطن والأصحاب.

(1) البغدادي ـ **خزانة الأدب** 2/ 404 وقارن **بالأغاني** 22/ 148 ـ **وبمعجم البلدان** 3/ 329 حيث ورد ثلاثة أبيات مع اختلاف في ترتيبها المتسلسل.

وقد كان التركيز في بحثنا على من سجن أو أسر من الصعاليك، وكان له نتاج أدبي.

وبعد أن انتهينا من هذا القسم، وتعرفنا إلى الشعراء المساجين والأسرى وذكرنا لهم شيئاً من شعر السجن والاسر. يجدر بنا أن نتعرف إلى النثر الأدبي في السجن أو الاسر، وهذا ما سنعالجه في القسم التالي.

الفصل الرابع

النثر في أدب السجون

تحدثنا فيما سبق عن الشعراء الذين تعرضوا لتجربة الحبس أو الأسر، وذكرنا بعض المقطوعات والقصائد التي نظموها في أثناء سجنهم.

ومن أجل إحاطة الموضوع من جوانبه كافة، يجدر بنا أن نتعرف إلى ناحية مهمة من أدب السجون، وهي أثر السجن في النثر.

لقد تعرضت فئة من الناس إلى عملية السجن، من غير الشعراء، ومن هؤلاء من ترك أثراً أدبياً في النثر، وهذه الآثار مبثوثة هنا وهناك في ثنايا كتب الادب والتاريخ، حاولنا، قدر المستطاع، جمعها وترتيبها.

1 ـ آمنة بنت الشريد[1]

لما قتل «علي بن أبي طالب» بعث «معاوية» في طلب شيعته، فكان في من طلب «عمرو بن الحمق الخزاعي»، فهرب منه، فأرسل إلى امرأته «آمنة بنت الشريد» فحبسها في سجن دمشق سنتين، فلما قتل زوجها وحمل رأسه إلى معاوية، بعث به إلى آمنة في السجن، وطلب من الحرسي أن يطرح الرأس في حجرها، وأن يحفظ ما تقوله. ففعل، فارتاعت له ساعة، ثم وضعت يدها على رأسها وقالت: واحزنا لصغره في دار هوان، نفيتموه عني طويلاً وأهديتموه إليّ قتيلاً، فأهلاً وسهلاً بمن كنت له غير قالية، وأنا له اليوم غير ناسية، ارجع به أيها الرسول إلى معاوية فقل له: أيتم الله

---

(1) آمنة بنت الشريد، زوجة عمرو بن الحمق الخزاعي، فصيحة من أهل الكوفة، اشتهرت بخبر لها مع معاوية بن أبي سفيان الذي حبسها سنتين في سجن دمشق وبعدها رحلت تريد الكوفة فماتت بالطاعون بحمص الاعلام 1/ 26.

ولدك، وأوحش منك أهلك ولا غفر لك ذنبك»[1].

فرجع الرسول إلى معاوية وأخبره بما تكلمت به، فأرسل اليها، فأتته، وعنده نفر، فيهم «إياس بن حسل» وكان في شدقيه نتوء عن فيه، فقال لها معاوية: أأنت يا عدوة الله صاحبة الكلام الذي بلغني؟ قالت: نعم، غير نازعة عنه ولا معتذرة منه، ولا منكرة له، فلعمري لقد اجتهدت في الدعاء أن نفع الاجتهاد، وان الحقّ لمن وراء العباد، وما بلغت شيئاً من جزائك، وان الله بالنقمة من ورائك، فأعرض عنها معاوية، فقال اياس: اقتل هذه يا أمير المؤمنين، فوالله ما كان زوجها أحق بالقتل منها. فالتفتت اليه، فلما رأته ناتئ الشدقين ثقيل اللسان، قالت: تبا لك، ويلك بين لحيتك كجثمان الضفدع، ثم أنت تدعوه إلى قتلي، كما قتل زوجي بالأمس، إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين. فضحك معاوية ثم قال: لله درك، أخرجي، ثم لا أسمع بك في شيء من الشام. قالت: وأبي لأخرجن، ثم لا تسمع لي في شيء من الشام، فما الشام لي بحبيب، ولا أعوج فيها على حميم، وما هي لي بوطن، ولا أخرج فيها إلى سكن، ولقد عظم فيها ديتي، وما قرّت فيها عيني، وما أنا فيها اليك بعائدة ولا حيث كنت بحامدة. فأشار اليها ببنانه،-اخرجي، فخرجت وهي تقول: واعجبي لمعاوية، يكف عني لسانه، ويشير إليّ الخروج ببنانه، أما والله ليعارضنه «عمرو» (زوجها) بكلام مؤيد سديد أوجع من نوافذ الحديد، أو ما أنا بابنة الشريد. . . الخ ثم التفت معاوية إلى عبيد بن أوس، فقال: إبعث لها ما تقطع به عنا لسانها، وتقضي به ما ذكرت من دينها، وتخف به إلى بلادها. ففعل، وخرجت تريد الجزيرة فمرت بحمص فقتلها الطاعون وكان ذلك سنة 50 هـ/ 670 م[2].

قبض معاوية على «آمنة» وأودعها السجن، وليست هي الغاية، وإنما هي وسيلة ضغط على زوجها، لعله يسلّم نفسه للسلطة، لانقاذها من السجن، فهل معنى ذلك أن معاوية كان مدركاً أن هذه الزوجة تختلف عمّن سواها، وأن

(1) أحمد بن طيفور ـ **بلاغات النساء ـ** تأليف الامام أحمد بن طيفور. ص 87 دار النهضة الحديثة ـ بيروت 1972. وقارن **بالفرج بعد الشدة** 3/ 364 **وبمفهوم الحرية في الاسلام** / روزنتال ص 127 الهامش رقم 173.

(2) أحمد بن طيفور ـ **بلاغات النساء** ص 87 وما بعدها وقارن **بالاعلام** 1/ 26.

زوجها متعلق بها، وعنده من الشهامة والمروءة ما يدفعه لانقاذها؟ ولكن هذه الوسيلة لم تنجح وزوجها لم يستسلم.

وإنّ طلب معاوية من الحرسي أن يحفظ ما تقوله «آمنة» دليل آخر على أن معاوية ينظر اليها نظرة مميزة، تنطوي على الكثير من التقدير والاهتمام.

وقد برهنت «آمنة» أنها جديرة بكل تقدير، لما صدر عنها من رباطة جأش وإرادة قوية تأبى الاستسلام، مع أنها بين جدران السجن، وقاست هناك ما قاست من ألم وعذاب، وأمام هذه المصيبة الكبيرة، رأس زوجها في حجرها، لم تولول ولم تنهر ولم ترتجف خوفاً ورعباً، بل وجهت أقسى العبارات إلى الخليفة: «أيتم الله ولدك، ولا غفر لك ذنبك». ولدى وقوفها بين يدي معاوية، ومن حوله الاعيان والحاشية، لم ترهبها هيبة الخليفة، فأقرّت بما قالته، وزادت بما أرعب الخليفة نفسه: «وان الله بالنقمة من ورائك». مما دفعه للاعراض عنها. كما أنها تمكنت من أن تسكت «إياس» وتخجله من نفسه وتجعله عرضة للهزء والسخرية، مما جعل الخليفة يضحك ويقول: «لله درّك».

نالت «آمنة» استحسان الخليفة بفصاحتها وسرعة بديهتها ورباطة جأشها وأجوبتها المركزة حتى أعيته ومن معه. فلم يقو على الكلام فأشار اليها بالبنان لتخرج، وطلب إغداقها بالعطايا ليقطع بذلك عنه لسانها[1].

2 ـ أيوب بن القريّة[2]

كان أيوب بن القرية شجاعاً، فلما انهزم ابن الاشعث في وقعة دير الجماجم، تشتت أصحابه ومنهم ابن القرية الذي دخل على «حوشب بن يزيد»

(1) René Kalisky- L'Islam, Origine et essor du monde Arabe- Collection Marabout Université- Belgique 1980- Page 106- 126.

(2) أيوب بن زيد بن قيس بن زرارة الهلالي: أحد بلغاء الدهر، خطيب يضرب به المثل، يقال «أبلغ من ابن القريّة»، والقريّة أمه، كان إعرابياً أمياً، يتردد إلى عين التمر (غربي الكوفة)، فاتصل بالحجاج، فأعجب بحسن منطقه، فأوفده على عبد الملك بن مروان. ولما خلع ابن الاشعث الطاعة بسجستان بعثه الحجاج اليه رسولاً، فالتحق به، وشهد معه معركة دير الجماجم (بظاهر الكوفة). **الاعلام** 2/ 37 وقارن **بتاريخ الطبري** 6/ 385.

عامل الحجاج على الكوفة. فبينما هو ذات يوم إذ أتاه كتاب من الحجاج جاء فيه:

أما بعد، فإنك قد صرت كهفاً لمنافقي أهل العراق ومأوى، فإذا نظرت في كتابي هذا فابعث إليّ بابن القريّة مشدودة يده إلى عنقه، مع ثقة من قِبَلِكَ.

فلما قرأ حوشب الكتاب، رمى به إلى ابن القرية، فقرأ فقال: سمعاً وطاعة. فبعث به إلى الحجاج موثقاً. فلما دخل قال له الحجاج: يا ابن القرية، ما أعددت لهذا الموقف؟ قال: اصلح الله الأمير. ثلاثة حروف كأنهن ركب وقوف، دنيا، وآخرة، ومعروف.

قال له الحجاج: اخرج مما قلت. قال: أفعل، أما الدنيا فمال حاضر، يأكل منه البر والفاجر، وأما الآخرة فميزان عادل، ومشهد ليس فيه باطل، وأما المعروف فإن كان عليّ اعترفت، وان كان لي اغترفت.

قال الحجاج: أما لا فاعترف بالسيف إذا وقع بك.

قال: أصلح الله الأمير. أقلني عثرتي، وأسغني ريقي، فإنه ليس جواد إلا له كبوة، ولا شجاع إلا له هبوة، ولا سيف إلا له نبوة، ولا حلم إلا له هفوة.

قال الحجاج: كلا والله لأرينك جهنم، ألست القائل بـ«رستاقاباد»: تغدّوا الجدي قبل أن يتعشاكم؟

قال ابن القريّة؟ فأرحني فإنّي أجد حرها.

قال الحجاج: قدمه يا حرسي فاضرب عنقه، فلما نظر إليه الحجاج يتشحط في دمه قال: لو كنا تركنا ابن القرية حتى نسمع من كلامه. ثم أمر به فأخرج فرمي به[1].

يتبين لنا مما تقدم أن «ابن القرية» كان يتمتع بحظ وافر من الشجاعة والبلاغة والفصاحة لذلك نال إعجاب الحجاج فأوفده على الخليفة عبد

(1) تاريخ الطبري 6/ 385 وما بدها وقارن بالكامل في التاريخ لابن الأثير 4/ 498 والبيان والتبيين 1/ 185.

الملك، وإرساله مبعوثاً من قبل الحجاج إلى ابن الاشعث، دليل ثقة بقدرته على المحاورة واطمئنان وارتياح له. إلا أنه أثبت أن تلك الثقة لم تكن في محلها، إذ اشترك هو شخصياً بالمعارك إلى جانب ابن الاشعث وضد الامويين، مما حمل الحجاج على أن يمتلئ حقداً وغيظاً من «ابن القرية».

ويبدو لنا من الحوار الذي دار بين الحجاج وبينه، إنه كان مدركاً أن الحجاج سينتقم منه، فلم يجد سبيلاً غير اعتماده على فصاحته وحسن بيانه ومداراته للحجاج بالحكمة والموعظة الحسنة: «الدنيا مال حاضر، يأكل منه البر والفاجر، والآخرة ميزان عادل، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره». وكأنه يحثه على عمل الخير، ثم يوضح أنه سيعترف له إذا أسدى اليه هذا المعروف، أي إذا عفا عنه.

وحينما وجد أن الحجاج ما زال مصمماً على الانتقام منه، لجأ إلى أسلوب الاستعطاف معتمداً أيضاً على الفصاحة والبلاغة، أقلني عثرتي، وأسغني ريقي.

وكأنه لاحظ أن الحجاج ما زال على غيظه وحقده فتابع معترفاً بذنبه قائلاً ـ لكل جواد كبوة، ولكل شجاع هبوة، ولكل سيف نبوة، ولكل حليم هفوة.

ثم ان الحجاج وضع حداً لهذا الحوار، مذكراً ابن القرية: ألست القائل: تغدّوا الجدي قبل أن يتعشاكم.

وكأنه يقول له: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، فأمر بضرب عنقه.

هذا أثر من أدب النثر لانسان تعرض إلى تجربة الاسر والسجن، ينطق بهذه الدرر في موقف رهيب، لا يفصله عن الموت سوى ثوان معدودات.

3 ـ سعيد بن جبير[1]

أرسل خالد بن عبد الله القسري، سعيداً إلى الحجاج، ليقتص منه، فزج في سجن واسط مع الاسرى، ثم قدم إلى الحجاج، فلما رآه قال له: ما

---

(1) أبو عبد الله ـ وقيل أبو محمد ـ سعيد بن جبير بن هشام الاسدي بالولاء، مولى بني والبة ابن الحارث بطن من بني أسد بن خزيمة، كوفي، أحد اعلام التابعين، وكان أعلمهم على =

اسمك؟ قال: سعيد بن جبير. قال: بل أنت شقي بن كسير. قال سعيد: بل كانت أمي أعلم باسمي منك. قال: شقيت أمك وشقيت أنت. قال: الغيب يعلمه غيرك. قال: لأبْدِلَنَّكَ بالدنيا ناراً تلظى. قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك الهاً. قال: فما قولك في محمد؟ قال: نبي الرحمة وأمام الهدى. قال: فما قولك في عليّ أهو في الجنة أم هو في النار؟ قال: لو دخلتها وعرفت من فيها عرفت أهلها. قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل. قال: فأيهم أعجب إليك؟ قال: ارضاهم لخالقي. قال: فأيهم أرضى للخالق؟ قال: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم. قال: أحب أن تصدقني. قال سعيد: إن لم أحبك لن أكذبك. قال: فما بالك لم تضحك؟ قال: وكيف يضحك مخلوق خلق من طين، والطين تأكله النار؟ قال الحجاج: فما بالنا نضحك؟ قال: لم تستو القلوب...

ثم قال الحجاج: ويلك يا سعيد. قال: لا ويل لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة. قال الحجاج: اختر يا سعيد أي قتلة أقتلك. قال: اختر لنفسك يا حجاج، فوالله لا تقتلني قتلة، إلا قتلك الله مثلها في الآخرة. قال: أفتريد أن أعفو عنك؟ قال: ان كان العفو فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر. قال الحجاج: إذهبوا به فاقتلوه. فلما خرج ضحك. فرده الحجاج وقال: ما أضحكك؟ قال: عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك. ثم أمر فضربت عنقه[1].

إشتهر الحجاج بقسوته وجبروته، فالمفروض بالماثل أمامه للمحاكمة، أن يتهيب الموقف وان يتأهب لعقوبة الموت.

= الاطلاق، وهو حبشي الأصل، أسود، أخذ العلم عن عبد الله بن العباس، وعبد الله بن عمر، خرج مع ابن الاشعث على عبد الملك بن مروان، لما قتل الابن الاشعث وانهزم أصحابه من دير الجماجم، هرب سعيد فلحق بمكة حيث قبض عليه واليها «خالد القسري» وبعث به إلى الحجاج مقيداً فأمر بقتله سنة خمس وتسعين هجرية وقيل أربع وتسعين وله من العمر تسع وأربعون سنة. **الاعلام** 3/ 93 وقارن **بالمعارف** لابن قتيبة ص 445 **والطبقات الكبرى** لابن سعد 6/ 256 وما بعدها.

(1) **وفيات الاعيان** 2/ 372 الحاشية رقم 2 وقارن **بالطبري** 6/ 487 **والطبقات الكبرى** لابن سعد 6/ 256 وما بعدها.

ونستنتج من الحوار الذي دار بينه وبين سعيد بن جبير، إن الحجاج بدأ حديثه بإثارة سعيد وإرهابه بقوله: شقي بن كسير وشقيت أمك وشقيت أنت. . . الخ. ثم أخذ يتدرج معه بالاسئلة وبالحاح علّه يجيب إجابة توجب قتله، وهذا ما كان يرمي إليه، وكانت الأسئلة مركزة ومحددة بحيث كان الحجاج يتوقع عند كل سؤال سقوط سعيد في الزلل. فسؤاله مثلاً: فما قولك في علي أهو في الجنة أم هو في النار؟ كان يفترض أن يقول: في الجنة مثلاً، وهذه الاجابة تكون كافية لاعدامه. وإن قال في النار، يمكن إستغلال هذه الاجابة لاعدامه أيضاً. لأنه كان يحارب مع ابن الاشعث مع شيعة علي. ولما تخلص من هذه الاجابة، حاول إحراجه بسؤال آخر. فما قولك في الخلفاء؟ ولما أحسن التخلص أيضاً، ألح عليه بسؤال جديد، أحرج من الاسئلة السابقة: فأيهم أعجب إليك؟ وكأنه يريد منه أن يقر بأفضلية علي، على عثمان أو عثمان، على عليّ. ولما أعياه، نفّذ الحجاج القرار الذي كان متخذه ضمناً وسلفاً.

أما سعيد بن جبير، فقد كان في كل مرة يختار الجواب الواقي الذي ينقذه من الاحراج، لاجئاً إلى مضمون ديني، فبدلاً أن يكون هو المحرج، ينقل الاحراج إلى الحجاج، وان دل هذا على شيء فإنما يدل على رباطة جأش وذكاء وسعة معرفة وقوة إيمان، وقد قال أحمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه[1].

4 ـ عبد الله بن معاوية[2]

عبد الله بن معاوية طالبيّ، هاشمي الابوين، كريم المحتدين، شبّ على

---

(1) ابن خلكان ـ **وفيات الأعيان** 2/ 374.

(2) هو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. طلب الخلافة في أواخر دولة بني أمية سنة 127 هـ بالكوفة، وبايع له بعض أهلها، وخلعوا طاعة بني مروان، وأتته بيعة المدائن، ثم قاتله عبد الله بن عمر والي الكوفة سنة 128 هـ فتفرق عنه أصحابه، فخرج إلى المدائن، فغلب على حلوان والجبال وهمذان وأصبهان والريّ. وقصده بنو هاشم كلهم حتى أبو جعفر المنصور. فسير أمير العراق (ابن هبيرة) الجيوش لقتاله، فانهزم إلى شيراز ومنها إلى هراة، فقبض عليه عاملها وحبسه. الاعلام 4/ 139 وقارن **بالأغاني** 12/ 315.

الشجاعة والسماحة والفصاحة، فكان جواداً فارساً شاعراً. وكان مقصد الشعراء يمدحونه ويحظون بعطاياه وهداياه، ومن أشهر هؤلاء الشعراء إبراهيم بن هرمة.

في سنة 127 هـ ظهر عبد الله بن معاوية شخصية سياسية بارزة تطمع في الخلافة، تشده إلى هذا الطموح نفس مغامرة شجاعة، وقد كانت الظروف مؤاتية حيث عصف النزاع في البيت المالك، وتواثب رجاله يقتل بعضهم بعضاً في سبيل الاستئثار بالحكم، وكثر الخارجون على الدولة هنا وهناك.

بايعه الناس بالكوفة، وتعرض لكثير من المعارك، فكان تارة ينتصر وطوراً ينكسر، وأخذ ينتقل من بلد إلى بلد إلى أن حط به الرحال في «هراة»، وهو يقصد خراسان طمعاً بنصرة أبي مسلم الخراساني الذي كان يدعو إلى الرضا من آل البيت. فأمر أبو مسلم بالقبض عليه فأودع السجن[1].

وبعد أن قاسى عبد الله من عذاب السجن، وألم الحديد والقيود كتب رسالة إلى أبي مسلم الخراساني نقتطف منها:

من الاسير في يديه، بلا ذنب اليه، ولا خلاف عليه. أما بعد فآتاك الله حفظ الوصية، ومنحك نصيحة الرعية، وألهمك عدل القضية، فإنك مستودع ودائع ومولى صنائع، فاحفظ ودائعك بحسن صنائعك، فالودائع عارية، والصنائع مرعية. وما النعم عليك وعلينا فيك بمنزور نداها ولا بمبلوغ مداها، فنبّه للتفكير قلبك، واتق الله ربك، واعط من نفسك من هو تحتك، ما تحب أن يعطيك من هو فوقك، من العدل والرأفة والأمن من المخافة.

فقد أنعم الله عليك بأن فوّض أمرنا اليك، فاعرف لنا لين شكر المودة. . . فإن علينا من سمك الحديد وثقله أذى شديد، مع معالجة الاغلال، وقلة رحمة العمال، الذين تسهيلهم الغلظة، وتيسيرهم الفظاظة، وإيرادهم علينا الغموم، وتوجيههم إلينا الهموم، زيارتهم الحراسة، وبشارتهم الاياسة. فإليك بعد الله نرفع كربة الشكوى، ونشكو شدة البلوى، فمتى تمل

---

(1) **الأغاني** 12/ 315 وما بعدها، وقارن بمقاتل الطالبيين ص 162 وما بعدها. **والكامل في التاريخ** لابن الأثير 5/ 370. وما بعدها.

الينا طرفاً، وتولنا منك عطفاً، تجد عندنا نصحاً صريحاً، ووداً صحيحاً. . . فإن الناس من حوضك رواء، ونحن منه ظماء، يمشون في الابراد، ونحن نحجل في الاقياد. . . والله المستعان وعليه التكلان. . . رزقنا الله منك التحنن، وظاهر علينا من التمنن. والسلام ورحمة الله[1].

كتب عبد الله هذه الرسالة من السجن بعد أن أصبح فيه أسيراً، وبعد أن كان بالأمس القريب يبايع خليفة، واننا نجده لا يزال يحافظ على المستوى الذي يليق به، فهو الناصح، والواعظ، وهو المحامي والمناقش، والمخاطب بلهجة الآمر: فاحفظ ودائعك. . . ونبه للتفكير قلبك. . . واتق الله ربك. . . الخ.

ويذكر بأنه ليس هناك من خلاف في وجهات النظر، وان الغايات واحدة، ثم يبين أنه ممن يحفظون المعروف، ويردون الجميل.

ويعرض لما يلاقيه من أذى القيود والاغلال، ومن سوء معاملة السجان، ويستعطف في إباء، ويتلطف بكرامة.

ويقارن بين ما ينعم به غيره وما يقاسيه هو، مع أنه أحق من غيره بالحظوة والرفاه. ثم يلجأ أخيراً إلى الله يستعينه ويتكل عليه.

إن هذه الرسالة القيّمة التي تحتوي على ضروب شتى من البلاغة، النابعة عن فكر مشبع بالفصاحة، كان لها الأثر السيء في نفس أبي مسلم، إذ لما قرأها رمى بها ثم قال: «قد أفسد علينا أصحابنا، وأهل طاعتنا وهو محبوس في أيدينا، فلو خرج وملك أمرنا لأهلكنا» ثم أمضى تدبيره في قتله ووجه برأسه إلى «ابن ضبارة» فحمله إلى مروان[2].

كان للسجن أثره القوي في تفتيق ذهن «عبد الله» وصقل مداركه وتركيز أدبه، فهتف بالشعر الرائع في وصف سجنه وتصوير كبوته، وافتن في ذلك حتى في نثره، وفي رسالته هذه مما يظهر لنا أثر ذلك، ويكشف لنا عن كثير

---

(1) الجاحظ البيان والتبيين 2/ 255 وقارن بالأغاني 12/ 230 حيث ذكر قسماً منها. وبمقاتل الطالبيين ص 168 ـ الحاشية رقم 3.

(2) الأصبهاني ـ الأغاني 12/ 231.

من أسرار السجون وأوضاعها في ذلك العهد المضطرب الثائر. ومن شعره الذي يتعلق بنوازعه في السجن قوله:

خَرَجْنَا مِنَ الدّنيا ونحنُ مِنَ أَهْلِها ... فلسنا مِنَ الأمواتِ فيها ولا الأحْيَا
إذا دخلَ السّجانُ يوماً لحاجةٍ ... عجبنا وقُلنا جاءَ هذا مِنَ الدّنيا[1]

. . .

وهكذا انقضت حياة عبد الله بن معاوية، بعدما عاش حياة سياسية صاخبة، وخاض معارك وحروباً منتصراً تارة ومندحراً أخرى، مما حرك لسانه فترك لنا شيئاً من الشعر، وشحذ قريحته فترك لنا نثراً أدبياً يدل على أسلوب كاتب فصيح متمرس متمرن.

(1) الجاحظ ـ **المحاسن والأضداد** ـ ص 35 وقارن **بعيون الاخبار** لابن قتيبة 1/ 81 حيث ذكر هذين البيتين وغيرهما مع شيء من الاختلاف ودون أن ينسبها إلى شاعر معين.

الباب الثالث

الفصل الأول
موضوعات أدب السجون

أولاً ـ الجوانب الذاتية

نتحدث في هذا الفصل عن موضوعات أدب السجن والأسر، فنتطرق إلى الجوانب الذاتية عند الشاعر السجين، أو الذي تعرض لعملية الأسر، آخذين بعين الاعتبار النثر الأدبي أيضاً، مستعرضين للجوانب النفسية والعاطفية والفكرية عند أولئك المساجين ووصفهم للحياة في السجون وتصويرهم لتلك المعتقلات وما قاسوه من عذاب، وعلاقاتهم بالعمال والامراء والخلفاء، وبالتالي علاقاتهم بذويهم وأقربائهم.

إن من يتعرف لعملية السجن أو الأسر، يذق مرارة حجز الحرية، ويتعرض لمختلف أنواع العذاب النفسي والجسدي وغيره، فيتفاعل ذلك في نفسه، وينعكس على شعره، فيقدم لنا صورة صحيحة لواقع عايشه ولتجربة مارسها، ونحن نحاول تحليل تلك الصور، لنتعرف أكثر فأكثر بأوضاع أولئك المساجين وذلك من خلال التراث الأدبي الذي خلّفه لنا أولئك الذين تعرّضوا لتلك المعاناة. وهذا ما يساعد على الالمام بموضوعنا من مختلف جوانبه.

وعليه، لا بد من البدء بالجوانب الذاتية والأغراض المتعلقة بها والتي توصلنا إلى معرفتها من خلال النتاج الأدبي الذي توفر لدينا.

أ ـ الجوانب النفسية

إذا كان الشعر يقوّم بعمق التجربة وتميزها، وصدق العاطفة وغناها، والدقة في التعبير عن خلجات النفس وومضات الشعور على نحو موح يثير في نفوس المتذوقين انفعالاً مماثلاً للانفعال الذي اضطرم في نفس صاحب التجربة، فإن شعر السجون أغلى الشعر قيمة وأكثره أصالة، وأقدره على مدّنا بالتجربة التي عاناها الشاعر.

1 ـ واقع السجن وأثره النفساني

لقد تحدث الشعراء الذين ذاقوا مرارة السجن عن واقع الحبس، فكانت حقيقته لديهم انه محنة وبلاء، وان هناك مفارقة كبيرة بين العالم الخارجي والحبس، ووصفوا أثره الهادم في النفس، وما يعتري السجين أول دخوله من انقباض ورهبة، ثم يتدرج في الاعتياد على تلك البيئة الجديدة مع المحافظة على الاصالة النفسية التي يتمتع بها، لذلك نرى أن المساجين أنواع مختلفة، وهذا ما ذكره لنا السمهري حين حبس حيث قال:

بمنزلة أما اللئيمُ فشامتٌ   بها، وكرامُ القومِ بادٍ شحوبُها[1]

ولقد كثرت صرخات الضجر والانهيار عند الشعراء المساجين، نظراً للواقع المرير الذي كانوا يعيشون فيه، ولم تكن تلك الصرخات إلا إنعكاساً للأوضاع النفسية التي كانوا يعانونها، مما دفع ببعضهم إلى المجاذفة بحياتهم، بعد نفاذ صبرهم وقدرتهم على احتمال هذا الواقع، وعمدوا على قتل السجان، وهربوا من السجن، وهذا ما حصل مع «القتّال الكلابي» الذي عرف ببطشه وقسوته يدل على ذلك اسمه أو على الاصح لقبه. فهذا القاتل المحترف الشديد المراس لم يحتمل واقع السجن وعذابه النفسي، فنفذ صبره وقتل الحارس وهرب. وفي ذلك يقول:

ولما رأيتُ البابَ قد حيلَ دونَه   وخفتُ لِحاقاً من كتابٍ مُؤَجَّلِ

حملتُ على المكروهِ نفساً شريفةً   إذا وُطِّئَتْ لم تستقدْ لِلتَّذَلُّلِ

...

فقلتُ له والسيفُ يَعْضِبُ رأسَهُ   أنا ابْنُ أبي التَّيْمَاءِ غيرُ المُنَحَّلِ[2]

والكميت الشاعر، كان خالد بن عبد الله القسري قد حبسه، هرب من السجن أيضاً بأن لبس ثياب زوجته التي حضرت لزيارته وفي ذلك يقول:

خرجتُ خروجَ القِدْحِ قدحِ ابنِ مُقْبِلٍ   على رغم آناف النوابح والمُشلِي

---

(1) الأصبهاني ـ **الأغاني** 21/ 240 من قصيدة ذكرناها في بحثنا ص 182.

(2) الأصبهاني ـ **الأغاني** 14/ 178 وما بعدها. من قصيدة ذكرناها في بحثنا ص 189.

عـلـيّ ثـيـابُ الـغـانـيـاتِ وتـحـتـهـا عزيمةُ امرءٍ اشبهتْ سَلَّةَ النَّصْلِ[1]

وإذا كان الواقع لا يتيح لجميع المسجونين بالهرب، فلا بد للمسجون من أن يتخذ من نكبة الحبس موقفاً فيصعد أو يهبط، فمنهم من تصاعد بنفسه والأزمة تعتصره، ووقف للاعداء في إباء وشموخ، وكثير من الشعراء إرتفع إلى هذا السّمت منهم عدي بن زيد الذي تمنى لو أنه أقدم على الانتحار ولم يصل إلى تلك الحالة المذلة في سجن النعمان، وقد عبّر عن ذلك بقوله:

لـيـتَ أنّـي أخـذتُ حـتـفِـي بـكَـفِّـيَّ ولـم ألـقَ مِـيـتَـةَ الأقْـتـالِ[2]

وظل عبد يغوث الحارثي على أنفته وعزته، مع أنه بين يدي خصومه ينتظر لحظة القضاء عليه، قال:

فـإن تـقـتُـلـوني تـقـتُـلـوا بـي سـيِّـداً وإن تُطْلِقوني تَحْرُبوني بِمَالِيَا[3]

ويقضي هدبة بن خشرم مدة في السجن، ثم يساق إلى الموت، ويبقى على شموخه فيقول:

ولـسـتُ بـمـفْـراحٍ إذا الـدّهـرُ سَـرَّنـي ولا جازعٍ من صرفهِ المتقلّبِ[4]

ويقبض ابن زياد، على يزيد بن المفرّغ، ويودعه السجن ويسومه شتى أنواع العذاب، كل ذلك لم يثن ابن المفرغ عن عزمه، فيقذف ابن زياد بأقذع أنواع الهجاء، من ذلك قوله:

سَـامَـنـي بـعـدَكُـمْ دَعِـيُّ زيـادٍ خُـطَّـةَ الـغـادر الـلَّـئـيـمِ الـزّهـيـدِ

...

أوغلَ الـعـبـدُ فـي الـعـقـوبـةِ والـشَّـتْـ ـمِ وأوْدَى بِـطَـارِفـي وتـلِـيـدِي

وقال في قصيدة أخرى:

(1) ابن قتيبة الدينوري ـ **عيون الأخبار** 1/ 81، راجع ما ذكرناه في بحثنا ص 93.

(2) الأصبهاني ـ **الأغاني** 2/ 105 وما بعدها. ورد في بحثنا ص 8.

(3) **المفضليات** ص 157. هذا بيت من قصيدة وردت في بحثنا ص 121.

(4) المرزباني ـ **معجم الشعراء** ـ ص 483 ورد في بحثنا ص 151.

أمسى دَعِيُّ زيادٍ فَقْعَ قَرْقَرَةٍ   يا لَلْعَجائِبِ، يَلْهو بابنِ ذي يَزَنِ
والحِمْيَرِيُّ طريحٌ وَسْطَ مَزْبَلَةٍ   هذا لَعَمرُكُمُ غَبْنٌ مِنَ الْغَبَنِ[1]

ويقف الاحوص للإعداء في إباء معجب، ويصرخ في وجه ابن حزم - عامل المدينة - وهو يجلده ويصب عليه الزيت ويقيمه على البلس، يصرخ قائلاً:

ما مِنْ مُصيبةٍ نكبَةٍ أُمْنَى بها   إلاَّ تُعظِّمُني وترفعُ شأني[2]

ويرسل معاوية إلى آمنة بنت الشريد، رأس زوجها، وهي في سجنه، فتتمالك أعصابها وتحافظ على أنفتها وتقول للحرسي: إرجع به أيها الرسول إلى معاوية فقل له:

أيتم الله ولدك، وأوحش منك أهلك، ولا غفر لك ذنبك[3].

مما لا شك فيه أن قدرات البشر على تحمل العذاب والآلام تختلف من إنسان إلى آخر، وإن ما ذكرناه آنفاً يثبت صحة هذا الرأي، إنما المؤكد أن السجن والأسر محنة يعاني منها كل إنسان، العزيز والحقير، والقوي والضعيف، وما العنفوان الذي ذكرناه عند بعض من تعرض لتلك المحنة، إلا ومضات نفسانية تلمع كالبرق ثم تختفي، فهي تنتاب الشاعر للحظات يعبر عنها ثم لا يلبث أن يعود إلى واقعه المرير.

إن عبد يغوث الذي يكابر، ويعتبر نفسه السيد حتى ولو قتل، إنه في الواقع يتوسل بكل سبب للخروج من هذه المحنة، لأنه في الشطر الثاني من البيت نفسه يحاول إغراء آسريه بالأموال التي يمكن أن يحصلوا عليها إذا عفوا عنه.

وفي البيت الذي يليه يطلق عبد يغوث صرخة مدوية: أحقاً عباد الله. . . إن وراء تلك الصرخة إنهيار نفساني وصحوة على الواقع والحقيقة، فيسارع إلى رثاء نفسه قبل موته الذي يتوقعه بعد لحظات.

---

(1) **الأغاني** - 18/ 273. ورد في بحثنا ص 155.

(2) **المؤتلف والمختلف** 48 ورد في بحثنا ص 160.

(3) أحمد بن طيغور - **بلاغات النساء** ص 87. ورد في بحثنا ص 194.

شعر عبد يغوث بالذل والهوان، وبخسران مكانته الاجتماعية، وبدنو أجله، فتفاعلت في داخله دوافع نفسية دفعته لاتخاذ الموقف المكابر ليوثق نفسه ويعيد اليها قيمتها واعتدادها إنه يدافع عن ذاته في وجه الآخرين وقد بات عرضة للشماتة والصغار، فقابل الوقائع الصارخة بالادعاء الواهم.

وبالنسبة إلى هدبة، إنه قضى وقتاً طويلاً في السجن، وأيقن أن لا محالة ميت خصوصاً بعد المحاولات العديدة لانقاذه من الاقرباء والأصحاب والخليفة نفسه، فبلغ اليأس منتهاه وأضحت نفسه مهيأة تماماً لملاقاة الموت، لذلك كان شعره ينضح بالعنفوان والقوة.

ويزيد بن المفرغ الحميري، كانٌ يشد أزره بقومه من اليمانية وبحلفائهم من القرشيين لذلك كان على قناعة أن أبناء زياد لن يقدما على قتله، وحصل ما كان يتوقعه إذ أنقذه الخليفة من السجن، وعليه فإن شعر الهجاء المقذع الذي كان يقذفه ابن المفرغ في وجه أبناء زياد، كان بدافع الراحة النفسانية والإطمئنان إلى مصيره، ولو لم يكن الأمر كذلك، لتغير الهجاء إلى مديح شأنه شأن غيره من الشعراء أمثال الفرزدق وغيره وهذا ما نقوله أيضاً بالنسبة إلى الشاعر الاحوص الذي كان يعتمد على الانصار في عملية انقاذه من السجن.

أما آمنة بنت الشريد، فقد كانت تعودت حياة السجن وكانت على أمل إطلاق سراحها ولقاء زوجها يوماً ما. فلما ألقي رأس زوجها في جحرها، وتحطمت جميع آمالها وأحلامها. وأصبح الموت والحياة عندها سيان، ولم يكن وقع الموت أشد عليها من وقع رأس زوجها بين يديها، وهي من هذا الواقع الحانق الحاقد الذي يتجلى فيه الواقع النفساني اللامبالي بما قد يحصل، لأن كل ما يمكن أن تتعرض اليه هو دون ما حصل، لذلك أطلقت تلك القذائف نحو الخليفة محاولة الانتقام بتلك الامكانيات لنفسها ولزوجها. ولا ننكر عليها امكانياتها الذاتية من العنفوان والكبرياء الجريح.

2 ـ الخوف من الموت

ومن أدب السجون، ما يصف لنا مواقف بعض الشعراء، وقد دفعوا إلى الحافة الرهيبة التي تهوى بهم إلى العالم الآخر، وأشرفوا على الموت، ومثل

هذا الأدب تصريح للصراع النفسي لمّا تبدت النهاية المرهبة، فمن السجناء من اعتراه شعور الراغب بايقاف الزمن وتجميده حتى لا يتقدم به إلى الساعة المرتقبة.

قبض مالك الاشتر على الاصبغ بن ضرار، وشد وثاقه وألقاه عند أصحابه ينتظر به الصباح ليقتله، فأيقن الاصبغ بالقتل فأخذ ينشد:

ألا ليتَ هذا الليلَ أصبحَ سَرْمَداً ... على الناسِ لا يَأْتِيهِمُ بِنَهَارِ
يَكونُ كذا حتى القيامةِ إنَّني ... أُحاذِرُ في الإصباحِ يومَ بَوَارِي
فيا ليلُ أطْبِقْ إنَّ في اللَّيلِ راحةً ... وفي الصُّبْحِ قتلي أو فَكاكَ أَسَارِي
ولو كنتُ تحتَ الأرضِ ستينَ وادياً ... لما رَدَّ عنّي ما أخافُ حذارِي[1]

ومن الشعراء من أطلق صرخات الارتياع من الموت، فتساقط مستسلماً مخذولاً، ومنهم من أخذ ينوح على نفسه، قال أبو الطمحان:

ألا علِّلانِي قبلَ نوحِ النَّوائحِ ... وقبلَ نُشوزِ النَّفْسِ بين الجوانِح
وقبلَ غدٍ يا لَهْفَ نفسي على غدٍ ... إذا راحَ أصحابي ولستُ بِرائحِ[2]

ويبدو صراخ الارتياع من الموت، في شعر عبد يغوث حين أسر يوم «الكلاب الثاني» وأيقن أن آسروه، لا بد قاتلوه، وذلك في قوله:

أحقّاً عبادَ الله أنْ لَستُ سامِعاً ... نشيدَ الرِّعَاءِ المُعْزِبينَ المَتَالِيَا

...

كأنّي لم أركبْ جواداً ولم أقُلْ ... لخيليَ: كُرّي نَفِّسِي عن رِجالِيَا[3]

نلاحظ من أقوال هؤلاء الشعراء أنهم عاشوا جميعهم تجربة النهاية، لقناعتهم أنهم سيقتلون لا محالة، وكان لكل منهم خواطره وأحاسيسه، وهو يتأهب لاستقبال الموت، وهذا يعود لاختلاف مكوناتهم العاطفية والفكرية ومدى قدرتهم على الصمود في مواجهة المصائب. لقد عبروا جميعهم عن

---

(1) ابن أبي حديد ـ **شرح نهج البلاغة** 8/ 101 ورد في بحثنا ص 30.
(2) **الأغاني** 13/ 12 والحماسة 3/ 132 ورد في بحثنا ص 186.
(3) لويس شيخو ـ شعراء النصرانية 79 ورد في بحثنا ص 121.

خوفهم من النهاية إنما بصور مختلفة. فالأصبغ بن ضرار اعتراه شعور الراغب في تجميد الزمن حتى لا يصل إلى الساعة المرتقبة، إنه يعيش الأزمة النفسانية الحادة، يتشبث بالليل ويتمنى أن يبقى أزلياً، والليل أشد معاناة وعذاب على السجين من النهار، فالسجن والعذاب والليل كلها آلام وإنما الكارثة الكبرى ستكون في الصباح، لأنه حينها سيموت، لذلك هو جزء من مداناة هذا الوقت، فهو متعلق بالحياة، ومتشبث بحبها.

وصوّر أبو الطمحان تعلقه بالحياة وخوفه من الموت بطريقة أخرى، إذ أطلق خواطره الحزينة في صور يائسة إذ نحس ونحن نقرأ شعره أنه ينتحب على نفسه في بكاء مكتوم، ويرثي نفسه قبل أن يرثيه أهله، ليقينه أنه على موعد محتوم مع الموت، إن صورة موته مكتملة في مخيلته، سيموت صباح الغد، وستنوح عليه النوائح، وسيدفن وحيداً في القبور ويتركه أصحابه وعيونهم تفيض من الدمع بعد أن يتأكدوا من إحكام صفائح القبر، إنه يعيش المأساة بكاملها، وهو متعلق بالحياة متشبث بها ويحس بقرب فراقها، فيصرخ قائلاً: يا لهف نفسي على غد.

أما عبد يغوث فإنه يصور حبه للحياة وتعلقه بها وخوفه من الموت بطريقة أخرى، إذ نحس ونحن نقرأ شعره أنه كان في ثبات عميق فاستيقظ ووجد أمامه الموت محدقاً به، فارتاع وصرخ كأنه يستنجد بعباد الله، وليس هناك من مجيب وانه إحساس النفس المحطمة التي تعيش التجربة المُرَّة والمحنة القاسية.

3 ـ هموم السجن

باح شعراء السجون بهمومهم وآلامهم في الأيام القاسية، وبخاصة في ظلام الليل، فالسكينة تسمح للذات الداخلية بأن تستيقظ، ولكوامن المشاعر أن تبرز، فيبيت السجين تحت هجمتين من عذاب الجسد، وأحزان القلب معاً، ويقضي ليله في هذا اللبوس النفسي، وقد عبر «أبو الطمحان» عن هذا الواقع، حين أسر في حرب الفساد فقال:

أرِقْتُ وآبَتْنِي الهمومُ الطَّوَارِقُ ولم يلقَ ما لاقَيْتُ قبليَ عاشِقُ[1]

---

(1) الأصبهاني ـ الأغاني 13/ 11. ورد في بحثنا ص 13.

ويطول الليل عند عدي بن زيد، والهموم كثيرة، فيقول:

طالَ ذا اللّيلُ علينا واعتكَرْ   وكأنّي ناذِرُ الصُّبْحِ سَمَرْ[1]

ويعبر «الفرزدق» عن أحاسيسه داخل السجن وكيف يقضي ليله، قال:

أبيتُ أقاسِي اللّيلَ والقومُ منهمُ   معي سَاهِرٌ لي لا ينامُ وَنُوَّمُ[2]

ويبدو أن يزيد بن المفرغ، كان يقضي ليله في السجن ساهراً أرقاً، ويستغرب نوم السجين فيقول:

دارَ سلمى بالخَبْتِ ذي الأطلالِ   كيف نومُ الأسيرِ في الأغلالِ[3]

ويواجه الشاعر، أحياناً في حديثه عن همومه، ذاته وقد تعرّت من الكذب والادعاء، فلم يكتم الوهن الذي تملك نفسه في عزلته، ولم يستطع أن يخنق شجونه التي كانت تزعزع نفسه وتستدر دموعه، وهذا ما حصل مع الاحوص في سجنه، فقد طال حبسه وطال بعده عن الأهل والخلان. فوهن وضعف وانهمرت دموعه بغزارة، فقال:

وللعينِ أسرابٌ تفيضُ كأنّما   تُعَلُّ بكُحْلِ الصّابِ منها المدامِعُ[4]

وكان جحدر العكلي رجلاً جلداً، وقد أرغم على مصارعة الأسد، فصرعه، وهو نفسه، في غياهب السجن، أخذت تتلاشى جلادته، وتضعف نفسيته، وتساقطت الدموع من عينيه فقال:

فأسبلتُ الدموعَ بلا احتشامِ   ولم أكُ باللئيمِ ولا الجبانِ
فقلتُ لصاحِبَيّ: دَعَا مَلامِي   وكُفّا اللّوْمَ عني واعذُرَانِي[5]

نستنتج من قراءة هذا الشعر، أن الشعراء الذين عايشوا تجربة السجن والأسر، كانوا يعايشون أحزانهم وأفراحهم، وما كان ينتابهم من عذاب نفسي،

---

(1) شعراء النصرانية. 452 / ورد في بحثنا ص 105.
(2) ديوان الفرزدق 2/ 249. ورد في بحثنا ص 139.
(3) الأغاني 18/ 266 وما بعدها. ورد هذا البيت من ضمن قصيدة وردت في بحثنا ص 157.
(4) ابن سلام الجمحي ـ طبقات فحول الشعراء 2/ 660. ورد في بحثنا ص 162.
(5) ياقوت الحموي ـ معجم البلدان 2/ 222. ورد هذا الشعر في بحثنا ص 177.

وبخاصة أثناء الليل حيث لا جليس ولا سمير، ولا ضوضاء ولا حركة، فيجلس الشاعر إلى ذاته وتستيقظ في داخله جميع أحاسيسه ومشاعره، وما يقاسيه من عذاب وألم، وكأنه كان في غفلة عن ذلك، وكأن تلك الهموم والآلام دخلت عليه فجأة، فيبدأ صراعه مع نفسه وصراعه مع جسده. ويطول الصراع ويطول الأرق والسهر، ويطول الليل، ويتعذر عليه النوم، ويترقب طلوع الفجر، فهو يريد الخلاص من تلك الهواجس، ومن تلك الهموم التي احتشدت عليه، فالظلام يزيد من غمّه، والنور يفْرج عن همه.

ومن الشعراء من يضعف وينهار أمام تلك المحنة، فللسجن أثر كبير في تحطيم العنفوان والجلد، وأمام ذاك الواقع لا يجد الشاعر مناصاً من البكاء فيفرج بذلك عن نفسه، ولا يكتم الوهن الذي تملك نفسه في عزلته، فيعبر عن ذلك في شعره.

هذا شيء مما كان من أمر الشجون التي كانت تزعزع نفس السجين وتستدر دموعه، وإلى جانب ذلك كان هناك من يتحمل ويصبر، وهناك من يرجع إلى الله ويتوب.

4 ـ الصبر والتوبة

حديث السجناء عن الصبر كثير في ثنايا نتاجهم الأدبي، وهو حديث الانسان المعذّب وردود فعله في وجه الملمّات الفادحة، وما لديه من الاحتمال والقدرة على المقاومة، وهذا يتفاوت عند الناس، فمنهم من جبل على القوة والتمرد، ومنهم من جُبِلَ على الضعف والهوان.

تعرض عبيد الله بن الحر الجعفي لتجربة السجن، سجنه مصعب بن الزبير، وكان عبيد الله من أفضل قومه صلاحاً، كما كان من شجعانهم وفرسانهم المعدودين، وكان قد حبس معه «عطية البكري» ويبدو أن عطية كان ضعيفاً، لذلك خاطبه عبيد الله قائلاً:

أقول له صبراً عَطِيُّ فإنّما ... هو السجن حتى يجعلَ اللهُ مَخْرَجَا
أرى الدّهرَ لي يومين: يوماً مُطَرَّداً ... شريداً، ويوماً في الملوكِ مُتَوَّجَا[1]

(1) تاريخ الطبري 6/ 136، وردت هذه الأبيات في بحثنا ص 135.

وهدبة بن خشرم، قبض عليه وأودع السجن، ولما مثل أمام الخليفة معاوية، وأخذ يعرض قضيته شعراً، قال أخيراً:

فإنْ تكُ في أموالنا لم نَضِقْ بها ذِراعاً، وإنْ صَبْرٌ فنصبرُ لِلصَّبْرِ[1]

قتل هدبة ابن عمه زيادة لخلاف حصل بينهما، حينما كان طليقاً، ولكنه حينما أصبح سجيناً مغلوباً على أمره، تروضت نفسيته وأصبح مرغماً على الصبر، وهو يخبرنا عن ذلك بقوله:

لعمري لئنْ أمسيتُ في السجنِ عانياً علـيَّ رقيـبٌ حارسٌ مُتَقَوِّفُ
إذا سَبَّنِي أغْضَيت بَعْدَ حَمِيَّةٍ وقد يصبرُ المرءُ الكريمُ فيعرفُ[2]

أما يزيد بن المفرغ، فقد قاسى الأمرّين من تعذيب ابن زياد له، وأذله وحقّره وشهّر به، ومع ذلك يقول:

فَصَبَرنا على مَوَاطِنِ ضيقٍ وخُطوبٍ تُصَيِّرُ البيضَ سُودَا

...

أَفإنْسٌ؟ ما هكذا صَبْرُ إنْسٍ أمْ مِنَ الجِنِّ أمْ خُلِقْتُ حديدا؟[3]

ومن الشعر ما يدخلنا إلى نفوس الشعراء، الذين عاشوا أزمة الشعور بالذنب وتجربة التوبة، والحق أن محنة الحَبْس كانت تمارس على ضمائر بعض الشعراء ضغطاً ثقيلاً فتردهم إلى موقف في محاسبة للنفس وإدانة للسلوك، وفيه التبرؤ من الذنب والتوبة إلى الله.

فالشاعر «هدبة بن خشرم» أتى جريمة قتل نكراء، يدفعه اليها شهوة الانتقام التي تعصف بنفوس أهل البادية. فلما خلى بنفسه في حبسه الطويل، شكا إلى الله مخلصاً من ظلم البيئة ومن نفسه الظالمة، ولاذ بعدله وعفوه ورحمته لواذ المُقِرّ النادم، قال:

أَذَا العرشِ إنّي مسلمٌ بكَ عائذٌ مِنَ النّارِ ذو بَثٍّ إليكَ فقيرُ

---

(1) **شرح ديوان الحماسة** 2/ 16. هذا البيت من قصيدة وردت في بحثنا ص 147.
(2) **شعر هدبة بن خشرم** / الجبوري. ذكرنا هذين البيتين في بحثنا ص 150.
(3) عبد القدوس أبي صالح - **ديوان يزيد بن المفرغ** - ص 100 - راجع بحثنا ص 153.

بغيضٌ إليّ الظُّلْمُ ما لم أُصَبْ بِهِ   من الظّلم مَشْغوفُ الفؤادِ نَفِيرُ
وإنّي وإنْ قالوا أميرٌ وتابعٌ   وحُرّاسُ أبوابٍ لهنَّ صَريرُ
لأَعْلمُ أنّ الأمْرَ أمْرُكَ إنْ تَدِنْ   فربٌّ، وإنْ تغفرْ فأنتَ غفورُ[1]

وأبو محجن الثقفي، الذي كثر شربه، وأقيم عليه الحد مراراً، ولم يرتدع، فحكم عليه بالنفي والحبس بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب، وكان فارساً شجاعاً معدوداً في أولى البأس والنجدة، فعزّ عليه أن لا يشترك في الحرب بين المسلمين والعجم مما أثر في نفسه ودفعه لاعلان توبته من السجن قائلاً:

ولِلّهِ عهدٌ لا أخيسُ بعهدِهِ   لئن فُرِجَتْ ألا أزورَ الْحَوَانِيا[2]

أما سراقة بن مرداس البارقي، فيبدو أنه كان جباناً، ذا شخصية ضعيفة، فليس غريباً أن نجده، وبعد ليلة واحدة في السجن، يحضر مرتاعاً أمام المختار ويقول:

تَقَبّلْ توبةً منّي فإنّي   سأشكُرُ إنْ جعلتَ النَّقْدَ دَيْناً[3]

إن بعض هؤلاء المساجين، من اللصوص وقطاع الطرق، ممن أوغل في العصيان والمخالفات، أعادته تجربة الحبس إلى نقاء فطرته، ولعل في هذه الأبيات لجحدر العكلي ـ وكان من اللصوص ـ ما يشهد بهذا النقاء والتوبة المخلصة:

إنّي دعوتُكَ يا الهَ محمدٍ   دَعْوَى، فأولُها ليَ استغفارُ
لتجيرني من شرِّ ما أنا خائفٌ   ربَّ البريَّةِ، ليس مثلك جارُ
تقضي ولا يقضى عليك، وإنما   ربّي، بعلمك تنزل الاقدارُ[4]

هذا ما تيسر لنا من الجوانب الذاتية النفسية التي استنتجناها من خلال

(1) التبريزي الشهير بالخطيب ـ شرح ديوان الحماسة 2/ 17. وردت هذه الأبيات في بحثنا ص 151.

(2) المسعودي ـ **مروج الذهب** 2/ 315. ورد في بحثنا ص 126.

(3) **تاريخ الطبري** ـ 6/ 54. راجع بحثنا ص 163.

(4) ياقوت الحموي ـ **معجم البلدان** 2/ 479 ـ ورد في بحثنا ص 176.

أدب السجون، وهناك جوانب أخرى ذاتية أيضاً يجدر مناقشتها وهي الجوانب العاطفية، حيث أنها من ضمن الموضوعات التي تطرق إليها الشعراء المساجين، فما هي مجالاتها؟

ب ـ الجوانب العاطفية

ينقطع السجين عن العالم الخارجي، وينطوي على أحزانه، فتتوالد عنده الهموم والآلام، والحنين والأشواق، وتترجح نفسه بين الأمل والرجاء، وبين القنوط واليأس فيبث ذلك في شعره معبراً عما يجيش في نفسه من جوانب عاطفية.

1 ـ بين الأمل واليأس

يتعرض الشاعر السجين إلى موجات عاطفية تجعله يعيش في أجواء ملؤها الرجاء والأمل، ثم لا يلبث أن يتعرض إلى ومضات قاتمة تجعله يعيش في جو من السأم واليأس، لذلك نجده يخرج من يأس إلى أمل ومن أمل إلى يأس. وتقدم هذه المقطوعة لهدبة بن خشرم معرضاً لهذه المشاعر المتنافرة، حيث يقول:

عسى الكربُ الذي أمسيتُ فيه يكونُ وراءَهُ فَرَجٌ قريبُ
فيأمنُ خائفٌ ويفكُّ عانٍ ويأتي أهلَه النّائي الغريبُ[1]

كأنَّ في قلبه الخائف شعاع من أمل، على ما كان يغمره من البؤس النفسي، إذ كان يترقب أن يقتل، فكان أن خبا ذاك الشعاع تدريجياً حتى انطفأ نهائياً، فذعر هدبة ودبّ اليأس في نفسه فقال:

لا أراني اليومَ إلاّ مَيِّتاً إنَّ بعدَ الموتِ دارَ المُسْتَقرْ[2]

وعاش «السمهري العكلي» في سجنه قلقاً أيضاً، مضطرباً بين الأمل واليأس فهو يقول:

---

(1) ابن قتيبة ـ الشعر والشعراء 2/ 583 والمؤتلف والمختلف ص 483. راجع بحثنا ص 148.

(2) الأغاني 21/ 270 ورد في بحثنا ص 152.

فإنْ أنجُ يا ليلى فربَّ فَتىً نَجا   وإنْ تَكُنِ الأخْرَى فشيءٌ أحاذِرُه[1]

ثم نجده يكرر المعنى، إنما في قالب آخر حيث يقول:

فإنْ أنجُ منها أنجُ من ذِي عظيمةٍ   وإنْ تكن الأخرى فتلك سبيلُ[2]

أما «جحدر العكلي» فيبدو من شعره أن قلبه كان يلهث باليأس، وذلك في قوله:

وقولا جَحْدرٌ أمسى رهيناً   يحاذِرُ وَقْعَ مصقولٍ يماني
ستبكي كلُّ غانيةٍ عليه   وكلُّ مخضّبٍ رَخْصِ البنانِ[3]

وعاش عدي بن زيد في سجن النعمان، فترات قلقة من الاضطرابات النفسية، بين الأمل واليأس، فقد قال:

فَاذْهَبي يا أميمَ إنْ يَشَأِ اللهُ   يُنَفِّسْ مِنْ أزْمِ هذا الخِناقِ
أوْ تكنْ وُجْهَةٌ فتلكَ سبيلُ النّا   سِ لا تَمْنَعُ الحُتُوفَ الرّوَاقِي[4]

2 ـ الحنين والأشواق

يقبع السجين في زاوية من الحبس، يقلّب الاغلال والكبول التي تثقل كاهله، يقضي ليله أرقاً ساهداً، لا وليف ولا أنيس، فتتدافع فيه الانفعالات النفسية والعاطفية، ويخترق خياله جدران السجن السميكة، وأبوابه الموصدة، إلى مراتع صباه، إلى الأهل والأحبة، إلى ذلك العالم الغني بالذكريات، القادر على إثارة العواطف المستكنة. فلا ترى عين الشاعر السجين المشوق، بقعة تضاهي دياره بهاء، فيبوح عفوياً بما تختلج به نفسه من شعور وعواطف وحنين إلى الأرض والأهل والخلان والأحبة. وهذا الشاعر الاحوص، الذي شبّ وترعرع في المدينة المنورة، قضى عقوبة النفي والحبس في «عمّان» بعيداً عن الأهل والوطن، إنه يعرض لنا شيئاً من الحنين والأشواق من سجنه، يقول:

---

(1) الأغاني 21/ 238، ورد في بحثنا ص 181.
(2) الأغاني 21/ 242، ورد في بحثنا ص 182.
(3) ياقوت، معجم البلدان 2/ 223، أنظر بحثنا ص 176.
(4) موسوعة الشعر العربي 2/ 461، ورد في بحثنا ص 106.

أقولُ بِعَمَّانٍ، وهلْ طَرَبِي بِهِ إلى أهلِ سَلْعٍ، إنْ تَشَوَّفْتُ نافِعُ؟
أصاحِ، ألم تَحْزُنْكَ ريحٌ مريضةٌ وبرقٌ تَلألأَ بالعَقيقَيْنِ رَافِعُ؟
فَإنَّ الغريبَ الدّارِ ممَّا يَشُوقُهُ نسيمُ الرّياحِ والبروقُ اللّوامِعُ
نظرتُ على فَوْتٍ، وأوفَى عَشِيَّةً بنا مَنْظَرٌ مِنْ حِصْنِ عمّانَ يافِعُ
وللعينِ أسرابٌ تفيضُ، كأنَّما تُعَلُّ بكُحْلِ الصَّابِ منها المَدَامِعُ
لأبْصِرَ أحياءً بِخَاخٍ، تضمَّنتْ منازِلُهُمْ منها التِّلاعُ الدَّوَافِعُ
فأبْدَتْ كثيراً نَظْرَتِي من صَبابَتِي وأكثرُ منها ما تُجِنُّ الأضالعُ
وكيفَ اشتياقُ المرءِ يبكي صبابَةً إلى مَنْ نَأى عن دارِهِ وهو طائِعُ؟
لَعَمْرُ ابنةِ الزَّيْدِيِّ، إنَّ ادِّكَارَها، على كلِّ حالٍ للفؤادِ لَرائِعُ

. . .

أهُمُّ لأنْسَى ذِكْرَهَا، فَيَشُوقُنِي رِفاقٌ إلى أهلِ الحجازِ نَوَازِعُ[1]

إن الأحوص يحاول أن يتطاول بنظره إلى جبل سلع بسوق المدينة ويسأل نفسه: أيجدي عليّ أن أنظر نحو أرضهم على بعد ما بيننا؟ ثم يذكر البرق وبعض الأماكن، ولم يتمالك نفسه فتسيل دموعه عند تذكره لتلك الأصقاع، ثم يقول إن نظرته أبدت كثيراً من صبابته وان ما تخفيه أضلاعه أكثر مما بدا، وتذكّر الأهل والأحبة مع أنه يعزم على نسيانهم ولكن الشوق والحنين ينزعانه من مكانه الذي هو فيه ويقتلعاه ليردّاه إلى أهله ووطنه.

وقبض «نافع الكناني» على «يعلى الاحول الأزدي» وهو شاعر اسلامي، لص، وكان فاتكاً خليعاً، وأودعه سجن مكة، وتذكر في سجنه أرضه وأهله فقال:

أرِقْتُ لبرقٍ دونه شَدَوَانِ يَمانٍ وأهوى البرقَ كلَّ يمانِ
فَبِتُّ لدى البيتِ الحرامِ أشِيمُهُ ومِطْوَايَ من شوقٍ له أرِقانِ

. . .

(1) ابن سلام - **طبقات فحول الشعراء** 2/ 659 وقارن مع ما ذكرناه في بحثنا ص 162.

هنالك لو طَوَّفْتُما لوجدتما صديقاً من اخوانٍ بها وغوانِ

...

وما بيَ بُغْضٌ للبلاد ولا قِليَ ولكنَّ شوقاً في سواه دعاني
فليتَ القِلاصَ الأُدمَ قد وَخَذَتْ بنا بوادٍ يمانٍ ذي رباً ومجاني

...

وليت لنا من ماء حزنة شربةً مبرّدةً باتت على طهمان[1]

وتذكر «السمهري» اللص، أهله وبيته وهو في سجنه، فزاد معينه النفسي الذي سقى حرمانه وعزلته ووحشته فقال:

ألا أيها البيتُ الذي أنا هاجِرُهْ فلا البيتُ منسيٌّ ولا أنا زائِرُهْ[2]

إن التجارب النفسية، ومحنة السجن القاسية، وجدت عند هؤلاء الشعراء وغيرهم التعبير العفوي، ينثال حراً طليقاً، بدافع الانفعال العارم المتوهج بالالم. وإن النزوع إلى الأرض التي كانت مسرح الماضي، هو نزوع فطري يسكب على الوطن الجمال ولو كان خلاء موحشاً، وان صور تلك المرابع تتيقظ عند الشاعر في الغربة والحبس.

وفي التشوّق إلى الأهل، يبرز الحنين إلى الأحبّة في أشعار السجناء، فيتفجر هذا الشوق وذاك الحنين بدافع الكوابت القاهرة.

هذه المواضيع وغيرها هي من حيثيات أدب السجون، ثم ان هناك الجوانب الفكرية، التي تكمل معنا صورة الجوانب الذاتية عند الشعراء المساجين، وهذه الجوانب هي أيضاً من ضمن موضوعات أدب السجون.

ج ـ الجوانب الحكمية

يترك السجن ـ إذا طال ـ على نفسية السجين ظلاً من الضيق والكآبة واليأس، فيستسلم إلى مصيره، ويتوجه إلى الله يلتمس العزاء والمغفرة، وهذا الواقع يدفع الكثيرين من شعراء السجن إلى التأمل في سيرتهم وفي الاحداث

---

(1) الأصبهاني ـ **الأغاني** ـ 22/ 148 ورد في بحثنا ص 190 وما بعدها.

(2) الأصبهاني ـ **الأغاني** ـ 21/ 238 ورد في بحثنا ص 180.

التي عاشوها، والانتهاء إلى استنتاجات ونظرات هي خلاصة آرائهم، ونتيجة تأملاتهم.

وتلك الخلاصة، أو الحكمة، أو العبرة، يمكن أن تكون ناتجة عن ممارسات وتجارب، ذاتية، ويمكن أن يستنتج الانسان عبراً وحكمة من تجارب الآخرين وتلك العبر يمكن أن تكون درساً مفيداً للمتأمل نفسه، ويمكن أن تكون عبراً هادفة لها طابع الشمول والعموم.

- قتل هدبة بن خشرم، ابن عمه في لحظة طيش، وقبض عليه وأودع السجن، وأخذ ينتظر القود ويتمثل الموت أمامه في كل لحظة، إن نفسه حزينة، ومحنته قاسية، وبسبب هذا الحزن وعظم المصيبة ونتيجة للمعاناة الذاتية، صار شعره يجنح إلى الحكمة والنصح والتماس العبرة من أفاعيل الزمان ومصائر الناس، فقد رأى أن الطيش كان سبباً في قتل ابن عمه، ولذلك قال ناصحاً:

وَرُبَّ كلامٍ قد جَرى من مُمَازِحٍ ... فساق إليه سَهْمَ حَتْفٍ فَعجَّلا

فدعْ عنكَ قُرْبَ المَزْحِ لا تَقْرُبَنَّهُ ... كفى بامرئٍ وعظاً إذا ما تَكَهَّلا[1]

ولا ينجو من غوائل الدهر عظيم أو كبير، فهو يعزّي نفسه بأن العظماء والملوك قبله قد نكبوا، قال:

وإنْ غالنا دهرٌ فقد غال قبلَنا ... ملوكَ بني نصرٍ وكسرى وقيصرا[2]

ويرى هدبة أن الأولى بالمرء أن يركن إلى الحلم والصفح في معاشرة الآخرين، ويوصي بالتزام القصد، فإذا أحب فليحبب بقصد، وإن أبغض فلا يجاوز الحد، فلربما عاد وندم على ما بدر منه. قال:

وكن معقلاً للحلم واصفح عن الخنا ... فإنّك راء ما حييتَ وسامع

وأحبب إذا أحببت حبّاً مقارباً ... فإنّك لا تدري متى أنت نازع

وأبغضِ إذا أبغضت بغضاً مقارباً ... فإنّك لا تدري متى أنت راجع[3]

(1) الجبوري - شعر هدبة بن الخشرم العذري ص 37.

(2) المصدر نفسه.

(3) الجبوري - شعر هدبة بن الخشرم ص 39.

وعبيد الله بن الحر، بعد أن ذاق من حلو الحياة ومرّها، ومارس تجربة السجن قال:

أرى الدَّهْرَ لي يَوْمين: يوماً مطرّداً ... شَرِيداً ويوماً في الملوكِ مُتَوَّجَا[1]

وهو يرى أن المتأمل في الحياة، والمراقب لتقلبات صروف الدهر، يمكن أن يستفيد من تجارب غيره في السنين الغابرة. قال:

وفي الدَّهْرِ والأيامِ للمرءِ عِبْرَةٌ ... وفيما مضى إن ناب يَوْماً نوائِبُهْ[2]

ويزيد ابن المفرغ، وهو في سجنه، توصل إلى حكمة أو قناعة، إنه يجب على المرء أن لا يأمن للدهر وإن صفا، وإن الموت على رقاب العباد، قال:

قد خَانَنا زَمَنٌ لم نَخْشَ عَثْرَتَهُ ... من يَأْمَنِ اليومَ أمْ منْ ذا يعيشُ غَدا؟[3]

وأطول الشعراء السجناء باعاً في هذا الجانب هو «عدي بن زيد» إذ تشغل الحكمة حيزاً كبيراً من الكثير من قصائده. وكان لثقافته ومقوماته النفسية أثر كبير في هذا الجانب الحكمي، كما أنه عاش القسم الأكبر من حياته مترفاً لاهياً متنعماً، وجرى في ميدان المنافسة السياسية، ويقال انه تزوج بهند ابنة النعمان، وفجأة يقلب له الدهر ظهر المجن ويودع السجن ليقاسي شتى أنواع العذاب والمهانة والذل. فحاول جاهداً التأثير على النعمان عن طريق الحكم والعبر المنتشرة في ثنايا قصائده، مركزاً على نقطة أساسية إن الانسان ضعيف مآله إلى الموت، وهذه سنة الله في جميع مخلوقاته، قال:

ليسَ شيءٌ على المَنونِ بِبَاقِ ... غيرُ وجهِ المُسَبَّحِ الخَلاَّقِ
إنْ نكُنْ آمنينَ، فاجأنا شرٌّ مُصيـ ... ـبٌ ذَا الوُدِّ والإشْفَاقِ[4]

لقد نظم «عدي» عدة قصائد وهو في السجن منها قصيدة يمكن أن نطلق

(1) تاريخ الطبري 6/ 136 ورد في بحثنا ص 135.
(2) الكامل في التاريخ لابن الأثير 4/ 290، وقارن مع ما ورد في بحثنا ص 134.
(3) الأصبهاني ـ الأغاني 18/ 259. ورد في بحثنا ص 154.
(4) موسوعة الشعر العربي 2/ 461، وقارن بما جاء في بحثنا ص 106.

عليها اسم «عبرة الدهر» تحدث فيها عن صروف الدهر ومصير الهرم والفناء المحتم، لا تؤجله عنه قوة أو يخلفه جاه ومال، مشيراً بذلك إلى مظاهر الباطل الذي يعتصم به الانسان، ويغتر عن مصير الزوال المقدّر له. وقد أورد أسماء الملوك والاباطرة والأكاسرة الذين أدركوا غاية الثراء والابهة والسلطة، نعموا بها حيناً، ثم ولّوا عنها، مخلفين قصورهم وذكرى قوتهم الزائلة كشاهد على ضعف الانسان وانخذاله أمام حتمية الزمن الذي يحتضن في أحشائه الهرم والزوال قال:

...

أيها الشَّامِتُ المُعَيِّرُ بالدّهرِ، أأَنْتَ المُبَرَّأُ المَوْفُورُ؟

أم لَدَيْكَ العهدُ الوثيقُ من الأيّـامِ؟ بل أنتَ جاهلٌ مغرورُ

...

من رأيتَ المَنُونَ خَلَّدْنَ؟ أمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ، مِنْ أنْ يُضَامَ خَفِيرُ؟

...

أينَ كِسْرى، كسرى الملوكِ أنو شُرْوَانُ؟ أمْ أينَ قَبْلَهُ سابورُ؟

وَبَنُو الأصْفَرِ الكرامُ ملوكُ الرُّومِ، لم يَبْقَ مِنْهُمُ مَذْكورُ

...

لم يَهَبْهُ رَيْبُ المَنونِ، فَبَادَ المُلْكُ عنهُ، فَبَابُهُ مَهْجورُ[1]

عرضنا ما تيسر لنا من موضوعات أدب السجون فيما يتعلق بالجوانب الذاتية عند الشاعر السجين مركزين على النواحي النفسية والعاطفية والفكرية.

وهناك جانب مهم، يتعدى ذات السجين، إلى الأشياء الخارجية من معتقلات وسجانين وتعذيب، فما هو نصيبها من موضوعات أدب السجون؟

ثانياً - المعتقلات والتعذيب

في ثنايا قصائد الشعراء المساجين كثير من الاشارات التي تدل على

(1) موسوعة الشعر العربي 2/ 450 وما بعدها.

أحوال السجون، ويندر وجود قصيدة خالصة في هذا الغرض، ومع ذلك يُعدّ وصف الحبس غرضاً من أشهر أغراض أدب السجون.

ويمكن إستخلاص أوضاع السجون من المقطوعات والقصائد المتفرقة المبثوثة هنا وهناك في المراجع الأدبية والتاريخية، ضَمُّ بعضها إلى بعض، يساعد في تكوين صورة واضحة لواقع المحبوس[1].

1 ـ وصف السجن

هذه إحدى صفات السجن قدمها «عبد الرحمن بن حنبل» الذي حبسه الخليفة «عثمان بن عفان» فقال يناشد علياً، ويصف له حاله في السجن:

إلى الله أشكو لا إلى الناس ما عدا — أبـا حـسـن غـلاً شـديـداً أكـابـده
بـخيبر في قعر «القموص» كأنها — جوانب قبر أعمق اللّحد لا حده[2]

وقال عبيد الله بن الحر الجعفي، وهو في سجن مصعب بن الزبير:

مَـنْ مُـبـلـغُ الـفـتـيـانِ أنَّ أخـاهُـمُ — أتـى دونَـهُ بـابٌ شـديـدٌ وحـاجـبُـه[3]

وذكر السمهري الباب أيضاً، وهو في سجن المدينة، قال:

إذا حَـرَسِـيٌّ قَـعْـقَـعَ الـبـابَ أُرْعِـدَتْ — فـرائـصُ أقـوامٍ وطـارت قـلـوبُـهـا

. . .

نـرى الـبـابَ لا نـسـطـيـعُ شيئاً وراءَه — كـأنَّـا قُـنِـيٌّ أسْـلَـمَـتْـهـا كُـعُـوبُـهـا[4]

يبدو أن فتح باب السجن كان يحدث صريراً، ربما لثقله وسماكته، ولم يكن ذلك الفتح دليل تفاؤل، بل كان دليل تشاؤم، إذ كان يتوقع كل سجين أن يطلب إلى القتل أو إلى التعذيب، لذلك كانت ترتعد فرائص المساجين.

وقال أبو محجن الثقفي وهو في سجن سعد بن أبي وقّاص:

---

(1) سبق أن تحدثنا في فصل خاص عن أسماء السجون وأماكن وجودها ولمحة عن كل منها. أنظر ص 81 وما بعدها.

(2) **الإصابة** 2/ 395. ورد في بحثنا ص 28.

(3) **الطبري** ـ 6/ 136. ورد في بحثنا ص 88.

(4) الأصبهاني ـ **الأغاني** ـ 21/ 240 وما بعدها. ورد في بحثنا ص 182.

إذا قمتُ عَنّانِي الحديدُ وغُلِّقَتْ مصاريعُ من دوني تُصِمُّ المُنادِيا

فالأبواب توصد، والجدران سميكة، وليس هناك نافذة أو كوة، لذلك لا يسمع صوت المنادي من الداخل أو الخارج.

وقال مصعب السلولي من سجنه، وكان قد حبس لقتله ابن الدّمينة:

إذا نبحَتْ كلابُ السّجنِ حَوْلِي طَمِعْتُ هَشَاشَةً وَهَفَا فُؤادي
طَمَاعَةَ أن يَدُقَّ السّجنَ قَوْمي وَخَوْفاً أن يُبَيِّتَنِي الأعَادي[1]

إن تلك الكلاب التي يشير اليها مصعب، أكانت تلتقي صدفة حول السجن؟ أو كانت تقوم بدور الحراسة؟

وورد ذكر «الكوّة» في شعر المرّار الفقعسي، وهي نافذة صغيرة ضيقة يتسرب منها النور والهواء، وكان المرّار في سجن المدينة، قال:

أَنَارٌ بَدَتْ من كُوَّةِ السجنِ ضوءُها عشيَّة حَلَّ الحيُّ بالجَرَعِ العُفْرِ[2]

2 ـ السجّانون

السّجان هو ممثل السلطة في السجن، وعلاقته مباشرة بالسجين، ويبدو أنه كان له هيمنة مرعبة على المحبوس، تلك الهيمنة نلمس أثرها من خلال أدب السجون، حيث أن معظم الشعراء المساجين تحدثوا عن السجّان الذي هو غرض مهم من أغراض أدبهم. قال عديّ بن زيد:

في حديدِ القِسْطَاسِ يَرْقُبُنِي الحا رِسُ والمرءُ كلَّ شيءٍ يُلاقي[3]

يبدو أن العلاقة بين السجين والسجان غالباً ما كانت سيئة، والسبب أن السجان هو الذي كان يقوم بعملية تعذيب السجين والتضييق عليه، فينتج عن ذلك علاقة عداء، ويمتلئ قلب السجين حقداً. قال المنخّل اليشكري في سجن النعمان، يحرّض قومه عليه وعلى حرسي السجن «عكّب»:

---

(1) الأصبهاني ـ **الأغاني** ـ 17/ 99 ورد في بحثنا ص 91.
(2) الأصبهاني ـ **الأغاني** 10/ 322.
(3) لويس شيخو ـ **شعراء النصرانية** ص 455 ـ ورد في بحثنا ص 106.

فـإنْ لـم تَـثْـأرُوا لـي مِـنْ عِـكَـبٍّ   فـلا رُوِّيـتُـمُ أبـداً صَـدِيّـاً
يُـطَـوِّفُ بِـي عـكـبٌ فـي مَـعَـدٍّ   وَيطعَنُ بـالـصَّـمِيلَـةِ في قَـفِـيّا[1]

ويحس الشاعر السجين بالذل من السجان، وذلك من جراء الخضوع المطلق له، ويفقد الشاعر العزيز الكريم في هذا الخضوع، ما كان له من صون وكرامة، قال هدبة بن خشرم:

لعمري لَئِنْ أمْسَيْتُ في السَجن عانياً   عـلـيَّ رقـيـبٌ حـارسٌ مـتـقـوِّفُ
إذا سَبَّنِـي أغْـضَـيْـتُ بـعـدَ حـمـيّـة   وقد يَصْبِرُ المرءُ الكريم فيعرفُ[2]

إن منظر السجان يثير الرعب في نفوس المسجونين، وفي كل مرة يفتح فيها باب السجن ترتعد فرائص كل سجين من الخوف، وذلك لأنهم تعودوا أن يفتح باب السجن لاستدعاء أحد المساجين وذلك للقتل أو للتعذيب، لذلك قال السمهري:

إذا حَرَسِيٌّ قَـعْـقَـعَ الـبـابَ أُرْعِـدَتْ   فـرائـصُ أقْـوامٍ وطـارتْ قـلـوبُـهـا[3]

ويمكن أن يستفحل العداء بين السجين والسجان إلى حد يدفع السجين للانتقام من السجان الظالم الذي لا يعرف الرفق، عاش «القتّال الكلابي» أزمة عداء مميت بينه وبين السجان، أخذت تتفاقم تلك الأزمة بكل ما فيها من غيظ وألم، وتربّص بسجّانه حتى قتله وفرّ، وكانت ذكرياته معه ذات مرارة وأسى بالغ حين ذكر هذه الحادثة في القصيدة التي أعقبت فراره من السجن:

ولـمّـا رأيـتُ الـبـابَ قـدْ حِـيـلَ دونَـهُ   وخـفـتُ لِـحـاقـاً مـن كـتـابٍ مُـؤَجَّـلِ
حملتُ على المكروه نفساً شريفةً   إذا وُطِّـئَـتْ لـم تـسـتـقِـدْ لِـلـتَّـذَلُّـلِ
وكـالِـئُ بـابِ الـسِّـجـنِ ليس بِمُنْتَهٍ   وكـان فِـراري مـنـه لـيـس بِـمُـؤْتَـلِـي
إذا قلتُ رَفِّهْنِي من السِّجن ساعةً   وتَـمِّـمْ بـهـا الـنّـعْـمَـى علـيَّ وأفـضِـلِ
يَـشُـدُّ وثـاقـاً عـابـسـاً وَيَـغُـلُّـنِـي   إلـى حَـلَـقَـاتٍ مـن عـمـودٍ مُـوَصَّـلِ

(1) التبريزي الشهير بالخطيب ـ **شرح ديوان الحماسة** 2/ 48. ورد في بحثنا ص 109.

(2) الجبوري ـ **شعر هدبة بن خشرم** ص 113. ورد في بحثنا ص 150.

(3) الأصبهاني ـ **الأغاني** 21/ 240 ورد هذا البيت من ضمن قصيدة ذكرتها في بحثنا ص 182.

فقلتُ له والسّيفُ يعضِبُ رأسَهُ   أنا ابنُ أبي التّيماءِ غيرُ المنحّلِ[1]

وهكذا نلاحظ أن السّجان كان أحد الموضوعات المهمة في أدب السجون، وذلك للدور الذي كان يقوم به من تعذيب وخلافه. فما هي مكانة التعذيب في أدب السجون؟

3 ـ التعذيب

العذاب غرض من أغراض أدب السجون، تعرض له معظم الشعراء المساجين، فذكروا ذلك في مقطوعاتهم الشعرية أو قصائدهم القصيرة. وغايتهم من هذا الوصف، ان يعطفوا اليهم قلوب المسؤولين باثارة دواعي الشفقة والرحمة فيهم، وأن يدلّوا على مكانتهم وحالتهم في ذلك العالم المجهول، وأن يخففوا مما أثقل نفوسهم من عذاب.

وقد أشار عدي بن زيد إلى شيء من ذلك العذاب الذي تعرض له في سجن النعمان، والمعروف أن عديّاً كان ربيب الملوك، عاش حياة مليئة بالرفاهية والبذخ، وفجأة أصبح قابعاً في غياهب السجون يتعرض لشتى أنواع العذاب، لذلك قال:

ليتَ أنّي أخذت حتفي بكفّيّ   ولم ألقَ مِيتَةَ الأقتالِ[2]

تمنى لو أنه انتحر ولم يتعرض لهذا الواقع من الذل والعذاب، وقال في مكان آخر:

أحَظّي كان سِلسِلَةً وقيْداً   وغُلاً والبَيَانُ لَدَى الطّبيبِ[3]

ثم انتقل إلى وصف ليلة من لياليه التي يقضيها في السجن، قال:

طالَ ذا اللّيلُ علينا واعتَكَرْ   وكأنّي ناذِرُ الصُّبْحِ سَمَرْ

...

(1) الأصبهاني ـ **الأغاني** 24/ 178 وما بعدها. أنظر في بحثنا هذا ص 189.

(2) الأصبهاني ـ **الأغاني** 2/ 110. ورد في بحثنا ص 103.

(3) لويس شيخو ـ **شعراء النصرانية** ص 452 وقارن بما ورد في بحثنا ص 104.

مـن نـجـيِّ الـهـمِّ عـنـدي ثـاوِيـاً   فـوقَ مـا أُعْـلِـنُ مـنـه وَأُسِـرْ
وكـأنَّ الـلَّـيـلَ فـيـه مـثـلُـهُ   وَلَـقِـدْمـاً ظُـنَّ بـالـلَّـيـلِ الـقِـصرْ
لـم أُغَـمِّـضْ طـولَـهُ حتـى انْـقَـضَـى   أتَـمَـنَّـى لـو أرى الـصُّـبْـحَ حَـسَـرْ
شَـئِـزٌ جَـنْـبِـي كـأنّـي مُـهْـدَأٌ   جَعَـلَ الْقَـيْـنُ عـلـى الـدَّفِّ الإِبَـرْ[1]

ووصف لنا ما يعانيه من عذاب الكبول والاغلال، وذكر ثيابه القذرة المتسخة، قال:

أبْـلِـغَـا عـامـراً وأبْـلِـغْ أخـاهُ   إنَّـنـي مُـوثَـقٌ شـديـدٌ وِثَـاقِـي
في حديدِ الْقِسْطاسِ يَرْقُبُنِي الحا   رِسُ والـمـرءُ كـلُّ شـيءٍ يُـلاقِـي
فـي حـديـدٍ مُـضـاعَـفٍ وغُـلـولٍ   وثـيـابٍ مُـنَـضَّـحَـاتٍ خِـلاقِ[2]

وذكر أبو محجن الثقفي ما يلاقيه من عذاب الحديد، وهو في سجن سعد بن أبي وقاص قال:

إذا قُمْتُ عَنَّانِي الحديدُ وغُلِّقَتْ   مَصاريعُ من دُوني تُصِمُّ الْمُنادِيَا[3]

وذكر أيضاً عبد الرحمن بن حنبل ما يلاقيه من عذاب الاغلال وهو في سجن القموص، قال:

إلى الله أشكو لا إلى النّاس ما عدا   أبـا حـسـن غـلاً شـديـداً أكـابـده[4]

وتحدث عبيد الله بن الحر عن عذاب الكبول وما يعانيه من آلام، وهو في سجن مصعب بن الزبير، قال:

بـمـنـزلـةٍ مـا كـان يَـرْضَـى بـمـثـلـهـا   إذا قَـامَ عَـنَّـتْـهُ كـبـولٌ تـجـاوبُـهْ
على السَّاقِ فوقَ الْكَعْبِ أسودُ صامتٌ   شـديـدٌ يُـدانـي خَـطْـوَهُ ويُـقـارِبُـهْ[5]

(1) المصدر نفسه ص 453. وقارن بما ورد في بحثنا ص 105.
(2) المصدر السابق، ص 455. ورد في بحثنا ص 3. والأغاني 2/ 117.
(3) الأصبهاني ـ **الأغاني** 2/ 186. ورد في بحثنا ص 25.
(4) شهاب الدين العسقلاني ـ **الإصابة** 2/ 395. ورد في بحثنا ص 28.
(5) **تاريخ الطبري** ـ 6/ 131 ورد في بحثنا ص 134.

أما الفرزدق، فيبدو أنه كان مغالياً في وصف عذاب القيود وافرط في زيادة عددها، حتى ليبدو وكأنه ينوء بحملها، وبالغ في تصوير ما يلاقيه من العذاب في سجن مالك بن مسمع، وذلك لاثارة دواعي الرحمة والشفقة في نفس مالك، قال:

وكيفَ بمنْ خمسونَ قيداً وحلقةً   عليهِ مع اللّيلِ الذي هو أَدْهَمُ

أبيتُ أُقاسي اللّيلَ والقومُ منهمُ   معي ساهِرٌ لي لا يَنَامُ وَنُوَّمُ

ولو أنَّها صمُّ الجبالِ تَحَمَّلَتْ   كما حَمَلَتْ رِجْلاَيَ كادَتْ تُحَطَّمُ[1]

ويبدو أن يزيد بن المفرغ لاقى الأمرّين من العذاب في سجن عبيد الله بن زياد، وتعرض إلى نوع جديد من التعذيب وهو التشهير، الذي كان مبالغة في التعذيب، وشديد الأثر على النفوس، أمر ابن زياد بضرب يزيد ضرباً مبرحاً، وسقاه نبيذاً خُلِطَ بشبرم حتى سلح على ثيابه، وجعل وراءه خنزيرة وهرة وكلباً، وأمر أن يطاف به في أسواق البصرة تزفه الصبيان والقذر يخرج منه، ثم ردّ إلى السجن، قال يزيد في سجنه:

حيِّ ذا الزَّوْرِ وأنْهَهُ أنْ يَعُودا   إنَّ بالبابِ حارسَيْنِ قُعُودَا

من أَساوِيرَ لا يَنُونَ قِياماً   وخلاخيلَ تُسْهِرُ المَوْلودَا

وطماطيمَ من سَبَابِيجَ غُتْمٍ   يُلْبِسُونِي مع الصّباحِ القُيُودَا

. . .

فَصَبَرْنَا على مَواطِنِ ضيقٍ   وخُطوبٍ تُصَيِّرُ البيضَ سُودَا

. . .

أَفَإِنْسٌ؟ ما هكذا صَبْرُ إِنْسٍ   أمْ مِنَ الجِنِّ أمْ خُلِقْتُ حديدا؟[2]

وتعرض عبد الله بن عمر (العرجي) للتشهير أيضاً وللعذاب، فلما قبض عليه «محمد بن هشام» جلده وصب على رأسه الزيت وأقامه في الشمس على البلس في الحناطين بمكة، فجعل العرجي ينشد:

---

(1) ديوان الفرزدق 2/ 249. ورد في بحثنا ص 139.

(2) ديوان يزيد بن المفرغ / أبو صالح ص 100. ورد في بحثنا ص 156.

سينصُرني الخليفةُ بعد رَبّي ويغضَبُ حين يُخْبَرُ عن مَسَاقِي
عليٌّ عباءَةٌ بَلْقَاءُ ليستْ مع الْبَلْوى تُغَيِّبُ نِصْفَ سَاقِي[1]

هذه لمحة عن أغراض أدب السجون فيما يتعلق بوصف المعتقلات والسجانون والتعذيب عسى أن تكون كافية لتوضيح معالم الحياة داخل السجون، وعسى أن تكون أضاءت كثيراً من جوانب هذا العالم المغلق.

وإن توضيح علاقة أولئك الشعراء المساجين مع السلطة القائمة يساعد على توضيح صورة السجون والعذاب أكثر فأكثر، إذ أن تلك العلاقة، كانت أيضاً من أغراض أدب السجون.

ثالثاً ـ العلاقة بالسلطة

العلاقة بالسلطة هي من أهم أغراض أدب السجون، ولكل شاعر موقف خاص من السلطة التي ألقت به في السجن، وتتضافر في بناء هذا الموقف عدة مؤثرات، منها ما طبع عليه الشاعر من صفات نفسية وعاطفية وخلقية وغيرها، ومنها ما انطوى عليه السلطان من نوازع وقيم، ومنها مستوى الذنب الذي أخذ به الشاعر.

وتتفاعل تلك المؤثرات لدى الشعراء، فينتج عنها إما اعتذار إلى السلطان والتماس عفو كريم ممهداً له بالاستعطاف، وإما الاستغاثة تحت تأثير الهلع والخوف، وإما العتاب والدفاع عن قضيته والمطالبة بالحرية. ويتعرض الشاعر أحياناً إلى ومضات نفسية مختلفة فيسلك تلك السبل جميعها من استعطاف واستغاثة وعتاب.

1 ـ الاعتذار

ثمة عدد من الشعراء مدحوا آسريهم واعتذروا منهم والتمسوا العفو، منهم عدي بن زيد، الذي طال حبسه في سجن النعمان، فراح ينظم القصيدة تلو القصيدة من سجنه، ومنها قوله:

(1) الأصبهاني ـ الأغاني 1/ 413.

أبْـلِـغِ الـنُّـعْـمَـانَ عَـنّـي مـألـكـاً قـولَ مـنْ قـد خـافَ ظَـنّـاً فـاعْـتَـذَرْ

...

وَٱذْكُـرِ الـنُّـعـمـى الـتـي لـم أنْـسَـهـا لـكَ فـي الـسَّـعْـيِ إذا الْـعـبـدُ كَـفَـرْ[1]

وقال في قصيدة ثانية:

فـإنْ اخْـطَـأْتُ أوْ أوْهَـمْـتُ أمْـراً فـقـد يَـهِـمُ الْـمُـصَـافِـي بـالـحَـبِـيـبِ

وإنْ أظْـلِـمْ فـقـد عَـاقَـبْـتُـمـونِـي وإنْ أُظْـلَـمْ فـذلـكَ مـن نَـصِـيـبـي

وإنْ أهـلِـكْ تَـجِـدْ فَـقْـدِي وَنَـجـدِي إذا ٱلتَقَـتِ الْـعَـوَالِـي في الـحُـروبِ[2]

وكذلك طرفة بن العبد، الذي لقي حتفه في السجن بأمر من عمرو بن هند، أرسل من سجنه عدة قصائد إلى «عمرو» يعتذر منه ملتمساً استبقاء حياته فيما يشبه التوسل في ظاهر الكلام. إنما من ينعم النظر في شعر طرفة، يحس بالنقمة في طيّ هذا التوسل، وباتهام الملك بالتعطش للدماء، قال طرفة:

أبا مُنْذِرٍ، كانتْ غَرُوراً صَحِيفَتِي ولم أُعْطِكُمْ بِالطَّوْعِ مالي ولا عِرْضِي

أبا مُنْذِرٍ، أفْنَيْتَ فاستبْقِ بعضَنا، حنانَيْكَ، بعضُ الشَرِّ أهْوَنُ مِن بعضِ[3]

وقال أيضاً:

إنِّـي وَجَـدِّكَ، مـا هَـجَـوْتُـكَ، والْـ أنْـصَـابِ يُـسْـفَـحُ بـيـنـهُـنَّ دَمُ

ولـقـد هَـمَـمْـتُ بـذاكَ إذْ حُـبِـسَـتْ، وأُمِـرَّ دونَ عُـبَـيْـدَةَ الْـوَذَمُ

أخـشـى عِـقـابَـكَ إنْ قَـدَرْتَ ولـم أغْـدِرْ فـيُـؤْثَـرَ بـيـنـنـا الـكَـلِـمُ[4]

وهكذا نلمس من شعر طرفة، عنف البداوة الغاضب، وعنفوان الشباب، فجاء نداؤه للملك ظاهره المتوسل والاعتذار وباطنه الاتهام المغيظ.

أما «الحطيئة» فقد حبسه «عمر بن الخطاب» بالمدينة، لأنه أكثر من الهجاء، وأقذع في القول، ولم يكن يسلم من لسانه أحد. فقال له عمر: يا

---

(1) لويس شيخو ـ **شعراء النصرانية** ص 453.

(2) المصدر نفسه ص 452.

(3) البصري ـ **الحماسة البصرية** 1/ 43 ورد في بحثنا ص 101.

(4) **ديوان طرفة** ص 89.

خبيث، لأشغلنك عن أعراض المسلمين. وفي الواقع، امتنع الحطيئة عن الهجاء وانشغل بنفسه، فحاول جاهداً الخلاص من السجن، مستعطفاً الخليفة معتذراً اليه، قائلاً:

...

أمين الخليفة بعد الرسول	وأوفى قريش جميعاً حبالا[1]
وأطولهم في الندى بسطة	وأفضلهم حين عدوا فعالا
أتتني لسان فكذبتها	وما كنت أحذرها أن تقالا
بأن الوشاة بلا عذرة	أتوك فقالوا لديك المحالا
فجئتك معتذراً راجياً	لعفوك أرهب منك النكالا
فلا تسمعن بي قول الوشاة	ولا تؤكلني هديت الرجالا[2]

إنه يمدح الخليفة، وينكر ما نسب اليه من كلام، ومع ذلك يعتذر، ويطلب الصفح والعفو. يبدو أن هذا الكلام لم يجد عند «عمر» أذناً صاغية، فراح الحطيئة يسلك سبيلاً آخر، سبيل استدرار العطف على أطفاله إن لم يكن هو نفسه يستحق العطف. فخاطب الخليفة قائلاً:

ماذا تقولُ لأفراخ بذي مَرَخٍ	حُمْرِ الحواصِلِ، لا ماءٌ ولا شَجَرُ؟
ألقيتَ كاسبَهم في قَعرِ مُظلِمَةٍ،	فاغفرْ، عليكَ سلامُ اللهِ يا عُمَرُ[3]

تأثر «عمر» بهذا الشعر، ومنّ على الحطيئة بالافراج عنه، وأخذ عليه ألا يهجو أحداً من المسلمين بعد أن اشترى منه أعراضهم بثلاثة آلاف درهم يستغني بها عن الهجاء[4].

وأما «بشر بن أبي خازم» أحد الشعراء الجاهليين، فكان كثير الهجاء لأوس بن حارثة وكان هجاؤه مقذعاً هادماً لمجده، وحصل أن جيء به أسيراً إلى أوس، فتوقع «بشر» الموت. فأخذ الشاعر يمارس ضغطاً على ذاته

(1) الحبال: العهود والمواثيق.

(2) محمد القرشي ـ **جمهرة أشعار العرب** ص 154.

(3) **طبقات فحول الشعراء** 1/ 116 ورد في بحثنا ص 129.

(4) **الأغاني** 2/ 189. ورد في بحثنا ص 129.

واستبدل موقفاً بموقف مناقض للماضي بدافع من الرغبة في البقاء والحفاظ على الحياة أو الخلاص من حياة الأسر المذلة، فنقض كل قصيدة هجاء سبقت، بقصيدة مدح واعتذار منها:

إنّي لأرجو منك يا أوسُ نعمةً ... وإنّي لأُخرى منك يا أوسُ راهبُ
وإني لأمْحُو بالذي أنا صادقٌ ... به كلَّ ما قد قلتُ إذ أنا كاذبُ
فهل نافعي في اليوم عندك أنّني ... سأشكر إن أنعمتَ والشّكرُ واجبُ[1]

...

وبما أن الشاعر قد رضي أن يكذّب نفسه على الملأ، وأن يعيد إلى خصمه ما سلبه من المكارم، لم يبق مبرر للأسر، فأطلقه أوس ومنّ عليه.

من الشواهد التي قدّمْناها، نلاحظ أن الاعتذار يتضمن مدحاً للسلطان، وهذا المدح تتفاوت قيمته بين الشعراء، فمنهم من يبدو عليه الانهيار والتذلل، ومنهم من يمدح ويلتمس المعذرة في أنفة وإباء، وآخرون يسلكون سبيلاً وسطاً، ويبدو أن هذا النحو انتحاه عدي بن زيد مع النعمان، انه يحاول النجاة من سجنه، فكان على جانب من التماسك والتعزز النفسي، واستطاع أن يوفق في شعره بين تعنّت الملك والسعي لارضائه وبين صون نفسه من التذلل والتعفر.

فنراه تارة يعتبر نفسه عبداً، وطوراً يتعالى ليصبح الحبيب، والأحبة عادة أقران، غالباً ما يكونون من نفس المستوى الاجتماعي. ثم يحاول تنبيه الملك من أن موته لن يكون خسارة مقصورة على نفسه وإنما خسارة للملك أيضاً سيشعر بها عندما تقع الحروب بينه وبين أعدائه. وهنا نلاحظ أن عدياً يمدح نفسه، ويكشف عن مأثرة من مآثره عسى أن تكون من العوامل التي تساعد على إطلاق سراحه.

ونحن نقرأ شعر طرفة نحس أنه يسعى للبقاء على حياته، ومع هذا المسعى تفوح رائحة النقمة والحقد على الملك، فهو يتهمه بالخداع والغدر وبالتعطش لسفك الدماء، ويقسم على براءته من هجائه ويعرب عن خشيته من انتقامه، ويحذره من مغبة الاقدام على ذلك.

---

(1) محمد أحمد جاد المولى بك ـ **أيام العرب في الجاهلية** ص 138.

ويسعى الحطيئة للخروج من السجن، ويسلك طريق المدح والاعتذار بأسلوب ينطوي على الاسترحام والاستعطاف، ونكران ما نسبه الوشاة اليه، ومع ذلك يعتذر، ولمّا لم يجد من الخليفة أذناً صاغية، لجأ إلى أسلوب آخر، فاستغلّ طفولة أبنائه وعرض حالة البؤس التي يعيشونها، فأصاب الهدف، وأطلق سراحه، وهنا تجدر الاشارة إلى العلاقة بين الساجن والمسجون والآسر والمأسور، .فالمسجون أو المأسور يحاول معرفة خفايا النفس عند صاحب سلطانه، ليخاطبه بالاسلوب الذي يرتاح اليه وبذلك يحقق حريته، وعلى هذا الاساس توصّل الحطيئة إلى غايته، وهذا هو الاسلوب نفسه الذي لجأ إليه بشر بن أبي خازم، فهو بعد أن كان قد سلب «أوس» مكارمه بهجائه، رأى أن لا مناص من تكذيب نفسه على الملأ وباعادة تلك السجايا إلى خصمه باستبدال كل قصيدة هجاء بقصيدة مدح. وهكذا توصّل بشر إلى إطلاق سراحه بعد أن تذلل وتعفر.

بعد أن عرضنا لغرض من أغراض أدب السجون، الاعتذار، ننتقل الى غرض آخر وهو الاستغاثة.

2 ـ الاستغاثة

تعرض كثير من الشعراء في سجنهم أو أسرهم إلى مواقف صعبة، فالعلاقة بينهم وبين السلطة سيئة إلى حدّ أنهم يحاذرون الموت ويعيشون في هاجسه، فتنهار رجولتهم ويأخذون بالصراخ والاستغاثة، حباً للحياة وكراهية للموت، وهذه طبيعة من الطبائع البشرية. وكثيراً ما كانت الاستغاثة ناجعة في إطلاق سراحهم واستعادة حريتهم. وهناك شواهد عديدة تثبت صحة هذا القول.

فقد ورد أن رجلاً من «جذام» سجنه الملك الغساني «ابن جفنة» لسبب ما، وبقي مدة من الزمن في حبسه، حتى قرر أن يخرجه في الغد ليقتله، فأخذ يصرخ مستغثياً، قائلاً:

أما من شفيعٍ من الزائرينَ ... يحبّ الثنا زندُه ثاقبُ

يريد ابن جفنة إكرامُه ... وقد يمسح الدِّرّةَ الحالبُ

فيـنـقـذنـي مـن أظـافـيـره		وإلا فـإنـي غـداً ذاهـبُ[1]

. . .

وصادف أن سمع «يزيد بن عبد المدان» هذا القول، فتأثر به، وشفع له عند الملك الغساني الذي وهبه له وغفا عنه واحتمله يزيد معه.

وذكر أن الأعشى «ميمون» هجا رجلاً من كلب، فحنق الكلبي على الاعشى، ثم أسر الكلبي الأعشى ونفراً معه وأودعهم شريح بن السموأل. فمر شريح بالاعشى فناداه:

شُرَيْحُ لا تترُكَنّي بعدما عَلِقَتْ		حبالَك اليومَ بعد القِدِّ أظفاري

قد جُلْتُ ما بين بانقيا إلى عَدَنٍ		وطال في العُجْمِ تَرْدَادِي وتَسْيَارِي

فكان أكرَمهم عهداً وأوثَقهم		مجداً أبوك بِعُرْفٍ غيرِ إنكارِ[2]

فشفع له شريح، وعفا عنه الكلبي، وأنقذ الأعشى من القتل.

ومن المعروف أن الفرزدق كان في شبابه قوى المعارضة في تحدّي الولاة الكبار، وظلّت روح المعارضة والتمرد تسري في دمائه حتى شيخوخته، فلما قبض عليه خانته السن، وكانت سجون العراق تشهد ألواناً من التعذيب المريع، فارتعد الفرزدق خوفاً، وكان سلاحه الشعر. وكان يناهض «مالك بن المنذر» أمير البصرة، فلما سيق اليه، ومثل بين يديه، إرتمى عليه وعلى قبر أبيه، عائذاً مستجيراً قائلاً:

. . .

أعوذُ بِقَبْرٍ فيه أكفانُ مُنْذِرٍ		وهُنَّ لأَيْدِي المستجيرينَ مَحْرَمُ

أَلَمْ تَرَنِي ناديْتُ بالصَّوْتِ مَالِكاً		لِيَسْمَعَ لما غَصَّ بالرّيقَةِ الفَمُ

. . .

فهلْ يُخْرِجَنّي منذرٌ من مُخَيِّسٍ		وعُذْرٌ بهِ لي صَوْتُهُ يَتَكَلَّمُ

أعوذُ بِبِشْرٍ والمُعَلّى كِلَيْهِما		بَنِي مالكٍ أَوْفَى جِواراً وأكْرَمُ

. . .

---

(1) لويس شيخو - شعراء النصرانية ص 84 وقارن بما ورد في بحثنا ص 10.

(2) الأصبهاني - الأغاني 9/ 119. ورد في بحثنا ص 118.

أما في بني الجارودِ من رَائِحٍ لنا | كما رَاحَ دُفّاعُ الفُرَاتِ المُثَلَّمُ[1]

وأرسل الفرزدق من السجن بقصائد المدح والاستغاثة إلى خالد بن عبد الله القسري ثم إلى الخليفة هشام بن عبد الملك يستعطفه ويذكره بمآثره ومآثر قومه بني تميم، قال:

. . .

إليكَ أميرَ المؤمنينَ تَعَسَّفَتْ | بنا الصُّهْبُ أجْوَازَ الْفَلاةِ التَّنائِفِ

. . .

دعوتُ أمينَ اللهِ في الأرضِ دَعْوَةً | لِيَفْرِجَ عن ساقَيَّ، خَيْرُ الخَلائِقِ

فَيَا خَيْرَ أهلِ الأرضِ إنَّكَ لو تَرَى | بِسَاقَيَّ آثارَ القيودِ النَّوَاسِفِ

إذاً لَرَجَوْتُ العفوَ منكَ ورحمةً | وعدلَ إمام بالرّعيّةِ رَائِفِ

هشامُ ابنَ خيرِ النّاسِ، إلاّ محمداً | وأصحابَهُ، أنّي لكمْ لم أقارِفِ[2]

وهكذا نلاحظ في قصائد الفرزدق مظاهر متنوعة من الخوف والاستغاثة، والايغال في المدح بإغداق المآثر والمكارم على ساجنيه بغير حساب.

وقد أسر أهل اليمامة جماعة من «خزاعة» وكان بينهم «قيس بن الحدّادية» ثم جعلوهم في حظيرة ليحرقوهم، فمر بهم «عديّ بن نوفل» فاستجاروا به، فابتاعهم وأعتقهم، فقال قيس:

دعوت عديّاً والكُبُولُ تَكُبنِي | ألا يا عديُّ يا عديّ بن نوفل

دعوت عديّاً والمنايا شوارِعٌ | ألا يا عديّ للأسير المكبّل

فما البحر يجري بالسّفين إذا غدا | بأجودَ سَيْباً منه في كلّ مَحْفِلِ

تداركت أصحاب الحظيرة بعدما | أصابهم منّا حريق المحلّل[3]

نلاحظ من شعر قيس، حدة الاستغاثة، مع العلم أن هذا الشعر قيل بعد أن أطلق سراحه، إنما كان الشاعر لا يزال يعيش بجو الرعب، إذ كان مقيداً

---

(1) ديوان الفرزدق 2/ 248 وما بعدها، ورد في بحثنا ص 139.

(2) ديوان الفردزق 2/ 7 وما بعدها. ورد في بحثنا ص 144.

(3) الأصبهاني ـ الأغاني 14/ 153. ورد في بحثنا ص 173.

بالكبول، ينتظر لحظة القتل، وأي نوع من القتل؟ إنه الحريق ضمن حظيرة مع رفاقه، فكانت الاستغاثة بعديّ، وكان الفرج.

مما تقدم، يمكننا القول أن الاستغاثة، كانت من مواضيع أدب السجون، تطرق اليها الشعراء المساجين والأسرى في أزمنة مختلفة (العصر الجاهلي والاسلامي) وفي مناطق مختلفة.

والاستغاثة ضرب من المديح ينطوي على شيء من الاستعطاف، يحاول الشاعر التركيز على شيء من المثل العليا التي يراها أبناء كل عصر، ففي العصر الجاهلي كانت الفروسية والرجولة والكرم وإغاثة الملهوف وإجارة المستجير من القيم التي يؤمن بها الجاهلي. لذلك رأينا أن الشاعر من جذام، حين أيقن أنه هالك غداً، أخذ يستغيث ويستنجد برجل ما، يحب الثناء، قوي الشكيمة، له مكانته عند الملك، سمعه يزيد بن عبد المدان، فتحركت في نفسه الشهامة والعزة، وسارع يشفع له عند ابن جفنة الذي قبل شفاعته وعفا عن الجذامي، والملاحظ هنا أن الجذامي لم يقصد ابن عبد المدان شخصياً، وابن عبد المدان شفع لشخص يجهله أيضاً.

وكانت أبيات قليلة من الشعر صدرت عن الأعشى، كافية لفكاكه من الأسر، إذ استجار بشريح ابن السموأل، وذكره نبل أبيه ووفائه، كأنه يحثه على الاقتداء بوالده، فكان عند حسن ظنه به وأنقذه من الأسر.

وكذلك قيس بن الحدادية ورفاقه، لقد استجاروا بعدي بن نوفل، فشفع لهم وأنقذهم. واللافت أن ما حصل مع الفرزدق يختلف عما حصل مع هؤلاء الأسرى، إذ أنه ظل طويلاً في السجن يستغيث بهذا وذاك، ويستعطف ويتذلل ويستجير بالاموات والاحياء، ويغدق عليهم بالمديح مركزاً على المثل الجاهلية والاسلامية، كل ذلك لم يجده نفعاً إلى أن تدخل أخيراً الخليفة وأنقذه، وربما يدل ذلك على أن الفرزدق كان مسرفاً في هجائه مما أوغر صدر المتنفذين حقداً، فتمادوا في تعذيبه، ويمكن أن تكون تلك المثل الجاهلية قد أخذت تفتر شيئاً فشيئاً نظراً للتطور الحضاري لذلك كان صدى صراخ الفرزدق ضعيفاً.

لم تكن تلك المواضيع هي كلّ أدب السجون فحسب، إنما هناك أغراض أخرى منها العتاب.

3 ـ العتاب

العتاب متوفر في أدب السجون، وهو ثورة كفكف منها تهيّب السلطة، والتزم الشاعر بتوجيه القول في منحى لا يخفى ما في نفسه، ولا يسخط السلطة، فهو ينقدها ويرجو العون منها، ويدافع عن نفسه ويتبرأ من التهمة الموجهة اليه.

ويكون العتاب من شاعر سجين يعتبر أنّ ثمة روابط مودّة تربطه بالسلطة التي تنكرت له في محنته. ومن الأمثلة على ذلك، عديّ بن زيد، الذي كان له الدور الأساسي في وصول «النعمان بن المنذر» إلى السلطة، ثم انه تزوج بهند ابنة النعمان، وكانت العلاقة بين الملك وعدي، علاقة وئام ومحبة ووفاء، لا تشوبها شائبة، إلى أن تمكن الحساد والوشاة من الوقيعة فيما بينهما، وأوغروا صدر الملك حقداً وكراهية على عدي، فأرسل في طلبه، ولما أتاه، لم ينظر إليه حتى حبسه في محبس لا يدخل عليه فيه أحد. ولما لجّ الملك في حبس عدي، جعل عدي يقول القصيدة تلو القصيدة إلى الملك، منها:

لیتَ شِعْرِي عن الهُمامِ ويأتيكَ ... بِـخَـبَـرِ الأنـبـاءِ عـطـفُ الـسُّـؤالِ
أينَ عَنّا إخْطَارُنا المالَ والأنْفُسَ ... إذْ نَـاهَـدُوا لِـيَـوْمِ الـمَـجَـالِ
وَنِضَالِي في جَنْبِكَ النّاسَ يرمو ... نَ وأرْمِـي وكُـلُّـنَـا غَـيْـرُ آلِ
فـأصـيـبُ الـذي تُـريـدُ بـلا غِـشٍّ ... وَأُرَبِّـي عـلـيـهـمِ وَأُوَالِـي

. . .

جاعلاً سِرَّكَ التُّخُومَ فما أَخْفِلُ ... قَـولَ الـوُشَـاةِ والأنـذَالِ

. . .

مَحَلُوا مَحْلَهُمْ لِصَرْعَتِنَا الْعا ... مَ فقدْ أوْقَعُوا الرَّحَا بِالثُّفالِ[1]

إنه يذكّر الملك بالعلاقة الوطيدة التي كانت تربطهما ببعضهما البعض، ويذكر مآثره ووقوفه إلى جنبه في الأوقات العصيبة. ثم يعرض لدور الوشاة ووصولهم إلى غاياتهم. وقال أيضاً يعاتب النعمان على حبسه ويعرض بذكر أعدائه:

(1) لويس شيخو ـ **شعراء النصرانية** ص 450. وقارن بما ورد في بحثنا ص 103 وما بعدها.

أرِقْتُ لِمُكْفَهِرٍّ باتَ فيه بَوارِقُ يَرْتَقِينَ رُؤُوسَ شِيبِ

. . .

سَعَى الأعداءُ لا يَأْلُونَ شَرّاً عليكَ وَرَبِّ مَكَّةَ والصَّليبِ

أرَادُوا كَيْ تُمَهِّلَ عن عديٍّ لِيُسْجَنَ أو يُدَهْدَهَ في القَلِيبِ

. . .

أحَظِّي كانَ سِلْسِلَةً وقَيْداً وغُلاً والبيانُ لَدى الطَّبيبِ

أتاكَ بأنَّني قد طالَ حَبْسِي ولم تَسْأمْ بِمَسْجُونٍ حَرِيبِ

. . .

فهلْ لكَ أن تَدَارَكَ ما لَدَيْنَا ولا تُغْلَبْ على الرَّأيِ المُصِيبِ[1]

وقال أيضاً يعاتبه:

أبا مُنذراً كافيتَ بالوُدِّ سَخْطَةً فماذا جزاءُ المُجْرِمِ المُتَبَغِّضِ

فإنَّ جزاءً يُرْجَى منكَ كرامَةً ولستُ لِنُصْحِ فيكَ بالمُتَعَرِّضِ[2]

ومن العتاب أيضاً، في أدب السجون، ما ذكر عن عبيد الله بن الحر الجعفي الذي خرج عن أمر معاوية بن أبي سفيان، وخرج إلى المدائن فلم يدع مالاً قدم من الجبل للسلطان إلا أخذه، وقاتل «المختار» وآزر «ابن الزبير» وكان يغشى «مصعباً» بالكوفة، فرآه يقدّم عليه أهل البصرة، مما أزعج «ابن الحر» وخاف مصعب من وثوب «ابن الحر» بالسواد كما كان يفعل أيام ابن زياد والمختار، فحبسه مصعب فقال ابن الحر معاتباً:

بأيّ بلاءٍ أمْ بِأيَّةِ نعمةٍ تَقَدَّمُ قَبْلي مُسلمٌ والمهلَّبُ

ويُدْعَى ابنُ منجوف إمامي كأنّه خصيٌّ أتى للماءِ والعَيْرِ يَسرُبُ

وشيخُ تميمٍ كالنَّعامَةِ رأسُهُ وعَيْلان عنّا خائفٌ مُتَرَقِّبُ

جعلتُ قُصورَ الأزْدِ ما بينَ منبِجٍ إلى الغافِ من وادِي عُمانَ تصوّبُ

بلادٌ نَفَى عنها العدوَّ سُيوفنا وصُفرةُ عنها نازحُ الدّار أجنبُ[3]

---

(1) لويس شيخو ـ شعراء النصرانية ص 451 وما بعدها. ورد في بحثنا ص 104.

(2) المصدر نفسه ص 468.

(3) الطبري 6/ 136 وما بعدها.

وللفرزدق أيضاً حظ من العتاب في أدب السجون، فهو يتنصل مما نسب اليه من هجاء «المبارك» وهو النهر الذي حفره خالد القسري بواسط بأمر من الخليفة، وكان هذا الهجاء من أسباب حبس الفرزدق، فقال من سجنه مخاطباً خالد القسري:

. . .

إذا قالَ رَاوٍ مِنْ مَعَدٍّ قَصِيدةً ... بِها جَرَبٌ كانتْ عليَّ بِزَوْبَرَا

أيَنْطِقُها غيري وأرْمى بِعَيْبِها ... فكيفَ ألومُ الدّهرَ أنْ يَتَغَيَّرَا

لَئِنْ صَبَرَتْ نفسي لقد أُمِرَتْ به ... وخيرُ عبّادِ اللهِ مَنْ كَانَ أصْبَرَا[1]

والأحوص، الشاعر الأموي، المشهور عنه أنه كان رجلاً مخنثاً، نسب بنساء ذوات أخطار من أهل المدينة، وشيع ذلك في الناس، فقبض عليه أمير المدينة المنورة، بأمر من الخليفة، فجلده وقيّده وغرّبه إلى «دهلك»[2] ليحبس فيها، وطال بقاء الاحوص سجيناً منفياً، ولم تُجْدِهِ فيه شفاعة قومه الانصار، وأصر الخليفة «عمر بن عبد العزيز» على حبسه. ويظهر من شعر الاحوص، أنه كان ضحية وشايات كاذبة، وأنه كان هناك عداء بينه وبين «ابن حزم» والي المدينة، لذلك كان شعره من المنفى هجوماً على آل حزم، ومعاتبة للخليفة عمر بن عبد العزيز على إهماله له وإطالة حبسه وتقديم أعدائه عليه، وقلبه حانق غاضب، وكرامته ثائرة قال:

أيا راكباً إمّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... هُدِيتَ أميرَ المؤمنينَ رسائلي

وقل لأبي حَفْصٍ إذا ما لَقِيتَهُ ... لقد كنت نَفّاعاً قليلَ الغوائِلِ

وكيفَ تَرى للعيشِ طِيباً وَلَذَّةً ... وخالُكَ أمْسَى مُوثَقاً في الحبائِلِ[3]

يتبين لنا مما تقدم أن العتاب كان غرضاً من أغراض أدب السجون، وهو ينطوي على نوع من المجاهدة عند الشاعر، في كتم المشاعر الحقيقية وحبسها وتمويهها تحت طلاء عذب الظاهر، فيه من المجاملة والمبالغة أكثر مما فيه من صدق الرضا.

---

(1) ديوان الفرزدق 1/ 296. ورد في بحثنا ص 142.

(2) دهلك: جزيرة على شاطئ اليمن، جوها حار، كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه اليها.

(3) الأصبهاني ـ **الأغاني** 4/ 247. ورد في بحثنا ص 163.

إن استقراء شعر عدي وسبر أغوار معانيه يكشف لنا السخط والتقريع، فهو يؤكد وفاءه للملك والتفاني في خدمته، فيقابله النعمان بنكران الجميل، وبما أن عدياً بحاجة إلى عفو الملك ليخرج من السجن، فهو يطلي تقريعه هذا بطلاء يبغي منه تمويه الحقيقة، فيضع اللّوم على الوشاة، ليخفف من مسؤولية النعمان. وعندما لم يجد من الملك الاهتمام بأمره، ينتقل من التمويه إلى التصريح فيقول له: «كافيت بالود سخطة» فهذا نقد لاذع واضح يوجهه إلى النعمان، يقرر فيه لؤم الملك وعدم وفائه. إنه عتاب جارح تدفعه نفس متألمة حاقدة مغلوبة على أمرها، مشبعة بالأسى والأسف والندم على ما كان قد قدمه عدي إلى الملك من خدمات.

وفي عتاب ابن الحر لمصعب بن الزبير نلاحظ العنفوان وظلافة البدوى، فليس هناك تذلل ولا استعطاف، وإنما كما يقال من الندّ إلى الندّ، إنها محاكمة واتهامات وتقريع، كأنه محامي دفاع يقدم الحجة تلو الحجة حتى يصل في النهاية إلى إفحام الخصم، ثم يصدر الحكم: إساءة تصرف من مصعب.

وعتاب الفرزدق عبارة عن دفاع عن نفسه وإنكار لما نسب اليه من هجاء، فهو يدفع التهمة عن نفسه ويلصقها بغيره، ويبدي استغرابه، كيف يعاقب على جريمة إرتكبها غيره، وكأنه يستشهد بالآية الكريمة: **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾** . ثم يبدو عليه الضعف فيستسلم للصبر.

وعتاب الاحوص يتضمن لوم الخليفة لاغضائه عنه وعدم الاهتمام باطلاق سراحه، ويحاول تحريك عاطفته بتذكيره بصلة القربى التي تربط فيما بينهما، ولا نلاحظ في هذا العتاب التذلل بل المطالبة بانصافه وتأمين حق من حقوقه.

إن هذا العتاب كما رأينا نوع من القول يعبر فيه الشاعر عما في نفسه من لوم وحقد، ويحاول في الوقت نفسه عدم إغضاب السلطان لأنه يرجو عونه ومساعدته على استعادة حريته.

وهناك أيضاً العلاقة بالأهل، الزوج، والاولاد، والاخوان والقبيلة، تحدث عنها الشعراء المساجين فكانت أيضاً من موضوعات أدب السجون.

رابعاً ـ العلاقة بالأهل

مما لا شك فيه، ضياع قسم كبير من شعر الشعراء الجاهليين، وعلى الاخص الشعر الذي لم تكن له صلة متينة بالدواعي القبلية والسياسية والتاريخية، ولعل الرواة أغفلوا كثيراً من أقوال الشعراء في أسرهم. لذلك نجد ما حفظته المراجع، من أشعار السجناء في أقاربهم قليلاً نسبياً. ولا شك في أن أكثر ما يشغل الشاعر السجين، إنقاذ حياته من الموت وإطلاق سراحه. لذلك كان التركيز في شعر السجون على من يوصل إلى تلك الغاية من سلطة أو شفيع أو غير ذلك.

وإن ما توفر لدينا من أدب السجون يشير إلى أن الشاعر السجين لم يكن غافلاً عن زوجه وأولاده وأهله بل تحدث عنهم بمقدار حسن جعلنا نعتبر ذلك من ضمن موضوعات أدب السجون.

1 ـ الأزواج

يتعرض الشاعر السجين إلى هجمة حنين، في بعض الاحيان، فينسى همومه وآلامه، ويتغلب حنينه فيتذكر زوجته، شريكة حياته، وتتدافع حاجاته النفسية والغريزية الناجمة عن محنة الحبس، فيندفع قائلاً بعض المقطوعات الشعرية، أو بعض الأبيات ضمن مقطوعات، يبث فيها شيئاً من حنينه وأشواقه، بتعبير محترس، خجلاً من المجتمع ومراعاة للتقاليد.

كان البراء بن قيس محبوساً عند كسرى أنو شروان، فتذكر زوجته: حذفة بنت الحمحام الحميري، وتذكر وفاءها ومحبتها لزوجها ولياقتها في الحديث ولياقتها في السؤال فاندفع قائلاً:

يا دارَ حُذْفة بالّلوَى فالمَجْدَلِ فجنوب أُسْنُمة فقُفِّ العُنْصُلِ
بل لا يَغُرَّك من حليل صالح إن لم يلاقك بعد عام الأول
كانت إذا غَضِبَتْ عليَّ تَظَلَّمَتْ وإذا كُرِهَتُ كلامها لم تُثْقِلِ
وإذا رأتْ لي جِنَّةً عملتْ لها ومتى تَعَنَّ بعلم شيء تسأل[1]

(1) ياقوت ـ معجم البلدان 5/ 57. ورد في بحثنا ص 150 وما بعدها.

وهدبة بن خشرم الذي قضى عدة سنوات في سجن المدينة ينتظر بلوغ «المسوّر» رشده ليقتله ثأراً لأبيه، كان يترقب الموت، ومع ذلك لم ينس المرأة، فقد أثر عنه شعر من أدب السجن، يتحدث فيه عن المرأة، هي سلوته وراحة نفسه، ولعل زوجه هي الحبيبة الوحيدة في حياته، فقد كان يحبها، وكانت جميلة، وقد أحبته ووفت له، فقد كانت تمشي خلفه حين سيق إلى الموت، تبكي وتولول وتناديه، ثم انها جدعت أنفها وقطعت شفتيها ليطمئن عند الموت بأنها لم تعد تصلح لرجل بعده[1].

ويذكرها هدبة بكنى مختلفة، فهي أم بوزع تارة، وأم معمر ثانية، وأم مالك ثالثة... وقد وصف حبه لها وتعلقه بها حين كان يجيب «حبّى» وهو في طريقه إلى الموت بقوله:

وَجِدتُ بها ما لم تَجِد أمّ واحدٍ	ولا وجدُ «حُبّى» بابن أم كِلابِ
رأته طويل السّاعدين شَمَرْدَلاً	كما تَشتهي من قوّةٍ وشبابِ[2]

وإذا ما أحس بفراقها، الفراق الذي لا لقاء بعده، ضنّ بها أن تكون لغيره من الرجال بعده، وبخاصة أولئك البخلاء اللئام، فهو يوصيها وصية يائس مفارق:

أقِلّي عليَّ اللَّوْمَ يا أمّ بَوزَعَا	ولا تَجزَعِي مِمّا أصابَ فأوْجَعَا
ولا تَنْكَحِي إنْ فَرّقَ الدّهرُ بيننا	أغمَّ القفا والوجْهِ ليس بأنْزَعَا
كَليلاً سوى ما كان من حَدِّ ضِرْسِهِ	أُكَيْبِدَ مِبْطانَ العَشِيّاتِ أرْوَعَا[3]

...

ونظراً لطبيعة المحنة التي يكابدها الشاعر السجين، حبيساً في السجن، فهو مقيّد أسير تمنعه الكبول والاغلال من زيارتها، وهو مشوّق اليها، راغب في لقائها، لم يكن أمامه إلا الأحلام، فيذكر المرأة ويناجي طيفها ويتذكر أيامها ويشكو بعادها. وهذا الواقع عاشه الفرزدق في سجنه وقد عبر عنه بقوله:

---

(1) ذكر صاحب الأغاني أنها نكثت بعهدها وتزوجت رجلاً بعده. الأغاني 21/ 270.

(2) الأغاني 21/ 271. ورد في بحثنا ص 180.

(3) المصدر نفسه 21/ 269.

أَلَمَّ خيالٌ من عُلَيَّةَ، بَعْدَمَا رَجَا لِيَ أَهْلِي الْبُرْءَ من داءِ دائِفِ
وكنتُ كَذِي ساقٍ تَهَيَّضَ كَسْرُها إذا انقطعَتْ عنها سُيُورُ السَّقائِفِ

. . .

ولو وَصَفَ الناسُ الحسانَ لأضْعَفَتْ عليهِنَّ أضعافاً لَدى كُلِّ وَاصِفِ
لأنَّ لها نِصْفَ الملاحةِ قِسْمَةً، مع الفتْرةِ الحسناءِ عند التَّهانُفِ
ذكرتُكِ يا أُمَّ العَلاءِ، ودُونَنا مَصَارِيعُ أبوابِ السّجونِ الصَّوَارِفِ

. . .

فإنْ يُطْلِقِ الرحمنُ قَيْدي فألقَها، نُحَلِّلْ نُذُوراً بالشِّفاهِ الرَّوَاشِفِ

. . .

أبَى القلبُ إلاّ أنْ يُسَلَّى بِحاجَةٍ، أتى ذِكْرُها بينَ الحَشا والشَّوَاغِفِ[1]

. . .

هذه الأبيات هي مطلع قصيدة للفرزدق، أرسلها إلى الخليفة هشام، يمدحه فيها، لعله يأمر بإطلاق سراحه من السجن، تحدث فيها عن طيف «علية» وزيارته له في محبسه، ومدى تأثيره عليه، ووصف حسنها وجمالها، والعوائق التي تحول بينه وبينها، ولم يكن الفرزدق هو الشاعر الوحيد الذي ذكر الطيف، فقد ذكره شعراء غيره في سجنهم ومنهم السمهري حيث يقول:

ألاَ أيّها البيتُ الذي أنا هاجِرُهْ فلا البيتُ مِنّي ولا أنا زائِرُهْ
ألاَ طَرَقَتْ ليلى وساقِي رَهينَةٌ بأشهبَ مشدودٍ عليَّ مسامِرُهْ[2]

. . .

وقال السمهري أيضاً في الحبس:

ألاَ حيِّ ليلى إذْ ألمَّ لِمَامُها وكان مع القوم الأعادي كلامُها
تَعَلَّلْ بليلى إنَّما أنتَ هامةٌ من الغد يدنو كلَّ يوم حِمامُها

. . .

---

(1) ديوان الفرزدق 2/ 7. ورد في بحثنا ص 144.

(2) الأصبهاني ـ الأغاني 21/ 238. ورد في بحثنا ص 180.

لقد طرقتْ ليلى ورِجْلي رهينةٌ فما راعني في السّجن إلاّ لِمامُها
فلما انتبهتُ للخيالِ الذي سرى إذا الأرضُ قَفْرٌ قد علاها قَتامُها

...

ألا ليتَنا نحيا جميعاً بِغبْطَةٍ وتَبْلَى عِظامِي حينَ تَبْلَى عِظامُها[1]

انه يعتبر أن عمره قصير فيستقبلها الاستقبال الاخيز في عالم الخيال، ويصور حالته في السجن حين طرق خيالها ويتمنى أن يفرج عنه ويعيش معها حياة سعيدة، وبعدها يموت وإياها في آن معاً.

هذا شيء مما ذكره الشعراء المساجين عن المرأة، والملاحظ أن التقليد يقضي بأن يبدأ الشاعر قصيدته بالنسيب أو الوقوف على الاطلال، مهما كان الغرض من القصيدة، وهذا ما لاحظناه عند الفرزدق في القصيدة التي ذكرنا مطلعها آنفاً، فالصبوة إلى المرأة شعور ملح دائماً ولا سيما في الأماكن المغلقة كالسجون، وعليه فليس غريباً أن نرى معظم الشعراء المساجين تحدثوا عن المرأة حتى بات الحديث عنها غرضاً مهماً من أغراض أدب السجون.

ومن الأغراض الأخرى في أدب السجون، العلاقة بالأهل والقبيلة.

2 ـ الأهل والقبيلة

إن معظم المقطوعات والقصائد التي صدرت من الحبس إلى الأهل والاخوة لا تخرج عن التشكي والاستعطاف وطلب المساعدة. والسجناء أقدر الناس على تقدير الاخلاص والترحيب به إذا وجدوه، فكانوا يبادرون بالشكر من يتعاطف معهم أو يتوجّع لهم، وقد اشتكى معظمهم من خيبة الأمل في الأهل والاصدقاء حين لم يهبّوا لنجدتهم.

كان من غايات الأسر في الجاهلية، المتاجرة بالأسير، لذلك كانوا يسعون إلى أن يكون الأسير من عليّة القوم، فيكون الفداء كبيراً. ويحتفظون بالأسير حتى يفتديه أهله، وربما يفتكون به قبل وصول الفدية، لذلك كان السجين يلحّ على أهله بالاسراع في إنقاذه، وإذا ما تقاعسوا انفجر حقداً وهجاء.

---

(1) الأصبهاني ـ **الأغاني** 21/ 241 وما بعدها. ورد في بحثنا ص 50.

كان معاوية بن صعصعة والياً على البحرين، غضب عليه الحجاج وعزله وحبسه، فخذله أصحابه فقال:

أما من تميم دافع لعظيمة ولا صابر عند الحفاظ مواس
ولو كنت من حييّ ربيعة شرفت دعائم بيتي منهم وأساسي[1]

في الواقع لم يخذله قومه، وإنما رهبة السلطان كانت السبب في تقاعسهم، وهذا ما حصل مع طرفة بن العبد حين حبسه عامل البحرين، فاندفع يلوم أصحابه في خذلانهم إياه ويشتمهم قائلاً:

أسْلَمَنِي قَومي ولم يَغْضَبُوا لِسَوْءَةٍ حَلَّتْ بِهِمْ فادِحَهْ
كم من خليلٍ كنتُ خاللتُهِ لا تركَ الله له واضِحَهْ
كلّهمُ أزوغُ من ثعلبٍ ما أشبه اللّيلةَ بِالبارِحَهْ[2]

ولما يئس «عدي بن زيد» من النعمان، كتب إلى أخيه «أبيّ» بهذا الشعر:

أبلغ أُبَيّاً على نَأْيِهِ وهلْ ينفعُ المرءَ ما قَدْ عَلِمْ
بأنّ أخاكَ شقيقُ الفؤا دِ كنتَ به واثِقاً ما سَلِمْ[3]

. . .

ولما زاد به اليأس لجأ إلى قومه طالباً نصرتهم له والعمل على إنقاذه ولو كان عن طريق الحرب في الأشهر الحرم، قال:

يا أبا مُسْهِرٍ فأبلِغْ رسولاً إخْوَتِي إنْ أتيتَ صَحْنَ العِراقِ
أبلِغا عامراً وأبلِغْ أخاهُ أنّني مُوثَقٌ شديدٌ وِثاقِي

. . .

فَارْكَبُوا في الحرامِ فُكّوا أخاكُمْ إنَّ عَيْراً قد جُهِّزَتْ لإنْطِلاقِ[4]

---

(1) المرزباني ـ **معجم الشعراء** ص 394. ورد في بحثنا ص 50.

(2) لويس شيخو ـ **شعراء النصرانية** ص 308. ورد في بحثنا ص 100.

(3) **الأغاني** 2/ 118. ورد في بحثنا ص 106.

(4) **شعراء النصرانية** ص 454. ورد في بحثنا ص 107.

والمنخل اليشكري كان أيضاً في حبس النعمان، وكان السجان يبالغ في تعذيبه، فما كان من المنخّل إلا توجيه نداءاته إلى قومه يطلب منهم الثأر من «عكّب» السجّان، قال:

أَلا مَنْ مُبْلِغُ الحَيَّيْنِ عَنّي ... بِأَنَّ القَومَ قَد قَتَلُوا أُبَيّا

فَإِنْ لَم تَثْأَرُوا لي مِن عِكَبٍّ ... فَلاَ رَوِيتُمُ أَبَداً صَدِيّا

يَطُوِّفُ بي عِكَبٌّ في مَعَدٍّ ... ويَطعنُ بالصَّمِيلَةِ في قَفِيّا[1]

طال انتظار «المنخل» في حبسه، ينتظر الموت في كل لحظة، ولم يبادر قومه لانقاذه فاندفع يهجوهم هجاء مقذعاً، يحط من كرامتهم ورجولتهم، قال:

طُلَّ وَسْطَ العِبادِ قتلي بلا جُرْ ... م، وقومي يُنَتِّجونَ السِّخالا

لا رعيتُمْ بطناً خصيباً ولا زُرْ ... تُمْ عدوّاً، ولا رَزَأْتُمْ قِبالا

يعتب معاوية وطرفة وعدي والمنخل اليشكري على الأهل، والأصحاب لتخلّيهم عن نصرتهم في وقت الشدّة، هذا هو الاحساس وتلك هي المشاعر التي تنتاب السجين لأنه يعيش ضمن مكان منقطع عن الخارج، أفكاره وهواجسه منصبة على نفسه، وضمن حلقة أزمة الذاتية المهيمنة على كيانه، كل همّه الخلاص، ولا يهمه كيف؟ وينتقد تقصير الآخرين، ولا يبحث عن السبب ولا يقبل لهم عذرا. والواقع أنه يجب أن نلتمس لاهلهم عذراً، لأن معاوية حبسه الحجاج، والحجاج مشهور ببطشه وقسوته، فمن يتجرأ أن يتودد إلى معاوية أو يتقرب منه، وهذا هو شأن النعمان أيضاً. إن السجين يطالب الأهل والأصحاب بحقوق القرابة والمودة في وقت الشدة، وهم يحجمون عن ذلك خوفاً من عقاب السلطان في مجتمعات يسوسها الإرهاب والبطش.

ولا ننكر وجود فئات من الناس، تتخلى عن أصدقائها وقت الشدة، منها النفعيين الذين ينظرون إلى العلاقات الانسانية من خلال النفع الذي يحصلون عليه، وطالما هم يستفيدون طالما علاقتهم ومودتهم مستمرة، وإذا انقطعت

(1) التبريزي الشهير بالخطيب، **شرح ديوان الحماسة** 2/ 48. ورد في بحثنا ص 109.

الفائدة، انقطعت المودة، وهؤلاء ربما انقلبوا إلى أعداء، يمالؤون الخصم وذلك حسب مقتضيات مصلحتهم النفعية.

وهناك الحساد الذين يظهرون شماتهم إذا ما قلب الدهر على الانسان ظهر المجن، وهناك المنافقون الذين يتملقون لذوي الجاه والنفوذ كائناً من كان، والسجين يفقد وسائل تأثيره ونفوذه، لذلك هم القلّة من البشر الذين يبقون على المودة والوفاء، والسجناء هم أقدر الناس على تقدير الوفاء والاخلاص.

إن الإنسان السجين، مهما كانت مقوماته النفسية، وإمكانياته الرجولية، يتخاذل ويضعف في غياهب السجن، ويصبح جلّ همّه الخروج من السجن وبأية وسيلة كانت، إن عبيد الله بن الحر، كان زعيماً لصعاليكه وفتيانه، وقد اشتهر بقوته وشدة بأسه، لم يمنعه ذلك من الاستنجاد بفتيانه لعلّهم يتمكنون من إنقاذه، قال:

مَن مُبْلِغُ الفِتيانِ أنَّ أخاهُمُ   أتى دونَهُ بابٌ شديدٌ وحاجِبُهْ
بِمَنْزِلَةٍ ما كانَ يَرْضَى بِمثلِها   إذا قامَ عنْتْهُ كبولٌ تجاوبُهْ[1]

يبدو أن معظم الشعراء المساجين تحدثوا عن الأهل في أشعارهم، يستعطفونهم ويطلبون العمل على إنقاذهم، وإذا تخلوا عنهم، لم يرحموهم، وغالباً ما يكون التخلي قسرياً، كمهابة السلطان أو ما شابه. إن السجين لا يقدّر ذلك حق التقدير، إنه في حالة نفسية بائسة يائسة. ينحصر تفكيره في ذاته، وغايته فقط إنقاذ حياته.

إنما يظل هناك من الشعراء المساجين من يبقى محافظاً على رباطة جأشه، فهذا قيس بن مسعود، محبوس بساباط عند كسرى، وهو زعيم قومه، ظل محافظاً على زعامته، ويوجه جماعته من سجنه، ينذر قومه بأن كسرى يعد العدّة لمهاجمتهم، ويطلب منهم رصّ الصفوف وتناسي الاحقاد والاستعداد للقتال، كل ذلك وهو في سجن كسرى وتحت قبضته. قال:

ألاَ ليتني أرْشُو سِلاحِي وَبَغْلَتي   لمن يُخْبِرُ الأنباءَ بَكْرَ بن وائلِ[2]

---

(1) تاريخ الطبري 6/ 131. ورد في بحثنا ص 134.

(2) في هذا البيت إقواء. ورد في معجم الشعراء / للمرزباني على الشكل التالي، لأن تعلم الأبناء والعلم وائل، وهو الأصح. معجم الشعراء ص 325.

فـأوصيـهُـم بـاللهِ والـصُّـلـحِ بينـهـمْ   لـيـنـصـأ مـعـروفٌ ويُـزْجَـرَ جـاهِـلُ
وصـاةَ امـرئٍ لـو كـان فيكـمٍ أعـانـكـم   عـلى الـدَّهـرِ، والأيـامُ فيـهـا الـغـوائِـلُ
فـإيـاكـم والـطّـفَّ لا تَـقْـرُبَـنَّـهُ   ولا الـبحـرَ إنَّ الـمـاءَ لـلبحـرِ واصِـلُ[1]

نستنتج مما تقدم أن الشاعر الحبيس، صعلوكاً كان أو غير صعلوك، رئيساً كان أو مرؤوساً يجد وجوده كلّه في قبيلته، فهو يدخل السجن بالمشاركة في الأحداث التي انتابتها والجرائم التي اقترفتها، ويبقى قلبه معلقاً بها، قلقاً على قضاياها[2]. وعلى ما يبدو من إنصهار الشاعر نفسياً في قضايا القبيلة، فهو عظيم الشعور بذاته أيضاً، وبالتالي يضع القبيلة كلها أمام مسؤولياتها تجاهه، فيطالبها أن تسخّر قوّتها وسلطانها لحمايته واستنقاذه من السجن، وإذا أحس بشيء من الإهمال، إندفع يهجو ويشتم، وما ذلك سوى ردة فعل، وتأكيد لتلك العلاقة.

يبدو أن نصيب الابوين والابناء ضئيل في أدب السجون، إذا ما قيس بنصيب الأهل والقبيلة، وليس معنى ذلك أن الشاعر السجين يتخلى عن عاطفة الابوة، والحنين إلى الوالدين، وإنما كان مجال هؤلاء محدوداً وبسيطاً في العمل على إنقاذه وخلاصه من السجن.

لقد تحدث الحطيئة عن أولاده وهو في السجن، وقد استعملهم وسيلة لاستدعاء عطف الخليفة عمر بن الخطاب ليطلق سراحه، فهو يوسع إطار أبوته البائسة بإثارة صور الافراخ الضعاف الجياع. قال:

مـاذا تـقـولُ لأفـراخٍ بـذي مَـرَخٍ   حُمْرِ الحواصِلِ لا ماءٌ ولا شجرُ؟[3]

وتحدث هدبة بن خشرم عن أبويه، لما سيق إلى الموت، خرج يرسف في قيوده، فإذا هو بأبويه يتوقعان الثكل، فهما بسوء حال، فأقبل عليهما وقال:

---

(1) الأصبهاني ـ الأغاني 24/ 58. ورد في بحثنا ص 108.

(2) André Miquel - Que suis-je? La littérature Arabe- Presses Universitaires de France - 1976- Page 19.

(3) ابن سلام الجمحي ـ طبقات فحول الشعراء 1/ 116. ورد في بحثنا مع تتمة المقطوعة ص 128.

أبلِيانِي اليومَ صبراً منكما   إنَّ حُزْناً إن بدا بادئُ شرّ
لا أراني اليوم، إلاّ مَيِّتاً   إنَّ بعد الموتِ دَارَ المُسْتَقَرّ
أصبِرَا اليوم فإنّي صابرٌ   كلُّ حيٍّ لِقَضاءٍ وقَدَرْ[1]

هذه أهم أغراض أدب السجون، فيما يتعلق بالجوانب الذاتية من نفسية وعاطفية وفكرية، ووصف للمعتقلات والعذاب، والموقف من السلطة، والعلاقة بالأهل.

(1) الأصبهاني ـ الأغاني ـ 221/ 270. ورد في بحثنا ص 152.

الفصل الثاني

الخصائص العامة في أدب السجون

أولاً ـ الخصائص المعنوية

1 ـ الصدق

أول ما يلاحظ في أدب السجون أن المعاني صادقة واضحة بسيطة ليس فيها تكلف ولا إغراق في الخيال، سواء حين يتحدث الشاعر عن أحاسيسه أو حين يصور ما حوله في السجن، فهو لا يعرف المغالاة، ولا المبالغة التي تخرج به عن الحدود المعتدلة.

ولا بد من الاشارة إلى قصائد المدح التي وجهت إلى السلطان، والتي يفترض استثناؤها من هذا المجال، ومراعاة الظروف والملابسات النفسية العديدة التي رافقت نظمها[1].

فأدب السجن هو وليد التجربة الشعورية المحضة التي انطلقت في لبوسها اللفظي في عفوية، غالباً، أو وعي فني لا يعوق الحركة النفسية وتدفق المشاعر.

ومن مظاهر الصدق الأدبي، البوح والنجوى، وهو إفضاء بما في النفس المشحونة هموماً وآلاماً، وقد يتخذ الشعراء منه متفرجاً يخفّفون به عن ذواتهم المثقلة، فيحدّث الشاعر عن نفسه أو يتحدث اليها، وهذا ما حصل مع أبي الطمحان حين قال في سجنه:

أرقتُ وآبتْني الهمومُ الطّوارِقُ ولم يلقَ ما لاقيتُ قبليَ عاشقُ[2]

(1) أنظر باب موضوعات أدب السجون. العلاقة بالسلطة ص 124 وما بعدها.

(2) **الأغاني** 13/ 11. وأنظر ما ورد في بحثنا ص 183.

وكذلك ما فعله عبد يغوث الحارثي حين قال وهو في السجن:

ألاَ لا تلومانِي كَفَى اللّومَ ما بِيَا   وما لكما في اللّومِ خيرٌ ولا لِيَا
ألَمْ تَعْلَمَا أنَّ المَلامَةَ نَفْعُها   قليلٌ، وما لَوْمِي أخِي مِنْ شِمَالِيَا[1]

ويكون البوح أحياناً أن يفضي الشاعر بذات نفسه بين يدي محبوبته، وهذا ما فعله «هدبة» حيث قال في سجنه:

طَرِبْتُ وأنتَ أحياناً طروبُ   وكيف وقد تعلاَّكَ المشيبُ
يجِدُّ النأيُ ذِكْرَكَ في فؤادِي   إذا ذَهِلَتْ عن النَّأيِ القلوبُ[2]

ولما استبدّ الشوق بهدبة بن خشرم، سخّر العناصر الكونية لتكون مطيّة شوقه إلى الأحبة أو موضوع البوح والنجوى. فقد طال حبسه، وشطّ عنه ذووه، تمنى أن تتردد الرياح بينه وبين أحبابه بالأخبار:

ألا ليتَ الرّياحَ مسخّراتٍ   لحاجتنا تراوحُ أو تؤوبُ
فتخبرُنا الشّمالُ إذا أتَتْنَا   وتُخبر أهلَنا عنّا الجنوبُ
بأنّا قد نزلْنا دارَ بلوى   فتخطِئُنا المنية أو تصيبُ[3]

ولما طال عهد «عدي بن زيد» في السجن، أرسل إلى الملك «النعمان» هذه القصيدة، وهي واحدة من عدة قصائد بعث بها اليه، استهلها بالحكمة، وعرض بصدق حالته في السجن، وتأثره من زيارة أمه له، مصوراً مشهد اللقاء الفاجع وقد أثقلته القيود وحالت بينه وبين معانقة أمه. قال:

ولقدْ ساءني زيارةُ ذي قُربى   حبيبٍ، لِوُدِّنا مُشتاقِ
ساءَهُ ما بنا تَبَيَّنَ في الأيْدِي،   وإشْناقُها إلى الأعناقِ
فاذهبي، يا أميمَ، غيرَ بعيدٍ،   لا يُؤاتي الْعِناقُ من في الوِثَاقِ[4]

والمعروف أن السجين، يتمنى زيارة أهله، وأحبائه له، وعديّ يعترف

(1) المفضليات ص 155. ورد في بحثنا ص 121.

(2) الجبوري - ديوان هدبة ص 52.

(3) المرجع نفسه ص 54. ورد في بحثنا ص 147.

(4) موسوعة الشعر العربي 2/ 461. ورد في بحثنا ص 105.

أنه استاء من زيارة أمه، ويعبر عن تأثره وتأثر أمه لواقع حاله، وهذا الاعتراف هو عنوان الصدق، إذ تتركّز معه حقيقة مأساة الانسان المقهور بين يدي الانسان القاهر، وعرض هذه الحقيقة بصدق يكون ضرباً من الهجاء والتنديد بالقسوة والظلم.

ب ـ الوصف

الوصف هو مظهر من مظاهر الصدق في شعر السجن، ومرجع ذلك، في رأينا، أن الشاعر السجين لم يكن يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء بل كان يحاول نقلها إلى لوحاته نقلاً أميناً، يتحرى نقل الحقيقة من خلال الشعور والمعاناة نقلاً واقعياً في تصوير معبر. فجاء الوصف مباشرة صريحة في مشاهده وألفاظه، وأضيف اليه قوة الشعور والاحساس بالواقع، كل ذلك جعل من معطيات الحبس العارية صوراً معبرة قادرة على الايحاء بأجواء السجن الموحشة وبعالم السجناء الغريب، قدمها لنا الشعراء المساجين من خلال أدبهم. من ذلك قول عبد الله بن معاوية:

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا ونحنُ مِنَ أهْلِها ... فلسنا مِنَ الأمْواتِ فيها ولا الأحْيَا
إذا دخلَ السّجانُ يوماً لحاجةٍ ... عَجِبْنَا وقلنا: جاءَ هذا مِنَ الدّنْيَا
ونفرحُ بالرُّؤيا فَجُلُّ حديثنا ... إذا نحن أصبحنا الحديثُ عن الرُّؤيا
فإنْ حَسُنَتْ كانت بطيئاً مجيئُها ... وإنْ قبحت لم تنتظرْ وأتت سعيا[1]

إن هذه الأبيات تصور لنا واقع السجن الغريب، وأوهام ساكنيه، وتقربنا من تلك النفوس التي اتخذت لنفسها منحى خاصاً من المنطق والتفكير، وتعرفنا إلى حقيقة مشاعرهم وأحاسيسهم.

ووصف «المنخل اليشكري» حالته في السجن وما يقاسيه من تعذيب السجان له، قال:

يُطوِّفُ بي «عكبٌّ» في مَعَدٍّ ... وَيَطْعَنُ بالصَّمِيلَةِ في قَفِيّا[2]

---

(1) الجاحظ ـ **المحاسن والأضداد** ص 35. ورد في بحثنا ص 202.

(2) **شعراء النصرانية** ص 421. ورد في بحثنا ص 109.

إننا، ونحن نقرأ هذا البيت من الشعر، نحس وكأننا أمام مشهد المنخل اليشكري يرغمه السجان «عكب» على المشي وقد أثقلته الكبول والأغلال. وكلما أبطأ في مشيه وخزه عكبّ بحديدة في قفاه إمْعَاناً في تعذيبه، ليرغمه على الاستمرار في المسير.

وقدّم لنا «السمهري» اللص صورة واقعية لما لاقاه من عذاب السجن، العذاب الجسدي والعذاب النفسي، قال:

لقد جمع الْحَدَّادُ بين عِصابةٍ ... تسائلُ في الأقيادِ ماذا ذُنُوبُها؟

بمنزلة أمّا اللئيمُ فَشَامِتٌ ... بها، وكرامُ القوم بادٍ شحوبُها

إذا حَرَسِيٌّ قَعْقَعَ البابَ أُرْعِدَتْ ... فرائصُ أقوامٍ وطارتْ قلوبُها

. . .

نرى البابَ لا نَسْطِيعُ شيئاً وَرَاءَهُ ... كأنّا قُنِيٌّ أسْلَمَتْها كُعُوبُها[1]

يصف السمهري السجن الذي ضم بين جدرانه أخلاطاً من المسجونين الذين تباينت جرائمهم، وكيف أن السجان قيّدهم فيه بالاغلال وأغلق عليهم الباب، فاصفرت وجوههم، ونحلت أجسادهم، وامتلأت قلوبهم خوفاً، وكيف أنهم كانوا إذا فتح الحارس باب سجنهم يشتد بهم الفزع والهلع، وتخور قواهم وتنهار أعصابهم، إذ يتوقع السجين وراء تلك القعقعة أشياء رهيبة، كالدعوة إلى التعذيب أو القتل.

وهكذا نرى أن الواقعية والصدق الفنّي هما سمة الشعر الذي نظمه الأسرى والسجناء وهم يعانون تجربة نفسية خالصة، وكان الوصف عندهم يمثل التصوير الحقيقي لواقعهم وللبيئة التي يعيشون في كنفها. ثم ان هناك العفوية والبساطة والبعد عن التكلف والزخرفة، وكان الشاعر السجين يعتبر قصيدته أو مقطوعته رسالة يوجهها إلى السلطة أو ذوي الشأن أو الأهل، ولذلك كان حريصاً على أن يضمن رسالته جوامع الكلم حيث تكون أسهل للحفظ وأبلغ في التعبير، متلافياً الاطالة والاستطراد، اللّهم إلا في بعض القصائد التي نظمها عدي والفرزدق والتي أشرنا إليها حين تحدثنا عنهما[2].

---

(1) الأصبهاني ـ **الأغاني** 21/ 240، ورد في بحثنا ص 182.

(2) أنظر ما ورد في بحثنا ص 106 وما بعدها، و144 وما بعدها.

أما الخيال فيبدو بارزاً لدى ذكر الحبيبة حينما كان يشتد الشوق والحنين بالسجين يناجي طيف محبوبته ويتخيلها ماثلة أمامه أو زائرة له في سجنه[1].

هذه أهم الخصائص المعنوية لأدب السجون، فما هي الخصائص اللفظية؟

ثانياً - الخصائص اللفظية

من أهم ما يلاحظ في أدب السجون انه كامل الصياغة، فالتراكيب تامة، ولها دائماً رصيد من المدلولات تعبر عنه، وهي في الأكثر مدلولات حسيّة، تستوفي أداء مدلولها، فلا قصور فيها ولا عجز.

وقد رأينا أن الصدق الفني هو سمة الشعر الذي نظمه الاسرى والسجناء وهم يعانون تجربة السجن والأسر بما فيها من آلام جسدية، وآلام نفسية. وجاء التعبير صوراً لهذه التجارب، حيث يستجيب الشاعر للنظم في ظل التجربة استجابة عفوية، تنأى به عن الصنعة وعن الاختيار المقصود لادوات التعبير وأساليبه، فجاءت الألفاظ قريبة بعيدة عن الوحشة والغرابة.

وإذا كنا نصادف بعض الالفاظ التي نعتبرها الآن «غريبة» فهي يمكن اعتبارها كذلك لأنها غير مألوفة في مخاطباتنا وكتاباتنا في عصرنا هذا. ويجب أن نشير إلى أن هذه الكلمات كانت يومذاك مأنوسة ومألوفة.

ويجب أن نشير أيضاً، إلى أن السجناء، في بعض الاحيان، كانوا يخضعون تجاربهم الذاتية لهدف فني مقصود، هو السموّ بالنظم، مضموناً وشكلاً، سموّاً ينال الرضا والاعجاب، وذلك عندما يجعلون الشعر وسيلتهم للصفح عنهم واسترداد حريتهم، فكان المقصود إرضاء السلطة ومحاولة التأثير عليها، وقد يلجأ إلى الكذب فيغالي في المدح، وكان ذلك في الوقت نفسه، إرضاء لنفسه الضّاغطة في مطلبها الحار، ورجائها الحثيث في الخروج من السجن. وهذا ما حصل مع بشر بن أبي خازم، الذي أسره أوس بن حارثة، وكان بشر قد هجا أوساً هجاء مراً محاولا هدم مجده وزعامته

(1) انظر السمهري ص 180، الفرزدق ص 144، جحدر ص 177.

القبلية، فلم يدخر نقيصة أو رذيلة أو سخرية الا رمى بها أوساً[1].

وقبض أوس، على بشر، وأرهبه وهمّ بقتله، وتركه في عذاب نفسي يعاني الخوف من الموت، ويتوسل له تائباً أن يهبه الحياة، فمنّ عليه أوس بها، ولكن بعد أن نقض بشر كل قصيدة هجاء قالها فيه، بقصيدة مدح. وبذلك دفع بشر نتيجة هذا السّوم المهين، ثمن حريته غالياً، وسخا بالكثير من حق نفسه وحق قومه حفاظاً على حياته، وكابد تجربة مريرة حطمت زهوّه وفخاره القومي في سبيل تخلصه من الأسر. ومما قاله في مدح أوس:

وإنّـي لأمْـحُـو بـالّـذي أنـا صـادِقٌ بـه كـلَّ مـا قـد قـلـتُ إذْ أنـا كـاذبُ

. . .

فدىً لابنِ سعدى اليوم كلُّ عشيرتي بـنـي أسـد أقـصـاهُـمُ والأقـارِبُ[2]

ومن العوامل المؤثرة في أنماط اللفاظية، البلاط الخلافي فقد كان يتأثر بالشعر الأنيق المنمق، فكان الشاعر السجين إذا أتيح له أن ينظم في الخليفة شعراً سعى في تحبيره فيما يوافق ذوق القصر، من ألفاظ مستعذبة وتراكيب ذات إيقاع متناغم، وتوازن أشطار، وفي بعض المحسنات البديعية التي كانت مستحبة في البلاط، لأن معظم رجالاته كانوا على دراية بفنون الأدب، وكان الشاعر يضطر لمراعاة هذه الملابسات عند النظم.

المعروف أن «الفرزدق» كان يملأ نفسه عجباً وتيهاً، بأمجاد قومه ومفاخرهم، وبنفسه وامكانياته الشاعرية، وكان صلب الألفاظ خشنها، وعن «جرير» انه قال:

«نبعة الشعر الفرزدق»[3] وهذا ما دفعه للاستعلاء والغرور والاسراف في الهجاء لذلك ساءت علاقته بكل ولاة العراق، مما أدى به أخيراً إلى السجن، وهناك خارت قواه، وحلّ الجبن محل الشجاعة، وتبدلت ألفاظ الهجاء بألفاظ المدح، قال وهو طليق يهجو الخليفة هشاماً:

---

(1) محمد أحمد جاد المولى بك ـ **أيام العرب في الجاهلية** ص 138 وقارن بما ورد في بحثنا ص 117.

(2) محمد أحمد جاد المولى بك ـ **أيام العرب في الجاهلية** ص 139. أنظر بحثنا ص 117.

(3) **طبقات فحول الشعراء** 1/ 269.

يـقـلّـبُ عـيـنـاً لـم تـكـن لـخـلـيـفـةٍ مـشـوّهـةً حـولاء بـادٍ عـيـوبُـهـا[1]

وقال فيه:

لَـبِـئْـسَ أمـيـرُ الـمـؤمـنـيـن أمـيـرُكـم وبـئـس أمـيـرُ الـمـؤمـنـيـنَ هـشـام[2]

وحينما أصبح الفرزدق في غياهب السجن، تلاشى غروره وتحطمت نفسيته، وتبدلت ألفاظ الهجاء بألفاظ المديح، فقال يمدح هشاماً نفسه:

...

دعـوتُ أمـيـنَ اللهِ فـي الأرضِ دَعْـوَةً لِيَفْرِجَ عن ساقَيَّ، خيرُ الخلائِفِ

فَيَا خَيْرَ أهلِ الأرضِ، إنَّكَ لو تَرَى بـسـاقَـيَّ آثـارَ الـقـيـودِ الـنَّـوَاسِـفِ

إذاً فَـرَجَـوْتُ الـعـفـوَ مـنـكَ ورحـمـةً وعـدلَ إمـام بـالـرّعـيّـةِ رَائِـفِ

هشامَ ابنَ خيرِ النَّاسِ، إلاّ محمّداً وأصحابَهُ، أنّي لَكُمْ لمْ أُقَارِفِ[3]

مما لا شك فيه أن الفرزدق يمتاز بالقدرة على التعبير، ويدرك ما للّفظة من إيحاء إذا أحسن الشاعر استعمالها، وما يمكن أن تحمله من مشاعر وأحاسيس بالاضافة إلى دلالتها الذهنية إذا وضعت في الموضع الملائم، فأفاد من هذه الخاصة فائدة كبرى في أداء معانيه، وجعل الكلمة الواحدة تفيض على قارئ شعره كثيراً من الايحاءات والمشاعر وتحمل اليه من الدلالات أضعاف مدلولها اللغوي المحدد.

ونجد أمثلة على ذلك في الأبيات التي ذكرناها آنفاً منها اسم الجلالة «الله» حين أضيف اليه «أمين»، لقد أفاض الكثير من معاني المهابة والجلالة على الخليفة الممدوح. وما قيل في اسم الله، سبحانه وتعالى، يقال في اسم النبي ﷺ.

وهناك خاصة أخرى ندركها عند الفرزدق في هذه الأبيات على قلتها،

---

(1) كان هشام بن عبد الملك أحول العينين.

(2) محمد محمد حسين ـ **الهجاء والهجاؤون في صدر الاسلام**. دار النهضة العربية ـ بيروت 1970 ـ ص 218.

(3) **ديوان الفرزدق** 2/ 9. أنظر ما ورد في بحثنا ص 136 وما بعدها.

هي خاصة الملاءمة بين اللفظ والمعنى. فإن لفظة «خير» موجودة في ثلاثة أبيات وفي البيت الرابع استعيض عنها بكلمة «رجوت» العفو، والرحمة، والعدل. وهذا جلّ ما يبغيه الفرزدق من وراء مدحه للخليفة، أن يتحقق له الخير على يديه بأن ينظر إلى قضيته بعين العدل ويرحمه بانقاذه مما هو فيه من عذاب السجن ويعفو عنه ويطلق سراحه.

واللافت أيضاً في الخصائص اللّفظية لأدب السجون، ظاهرة التكرار للفظة معينة تهم الشاعر أكثر من سواها، فقد كرر الفرزدق لفظة «ساقيّ» مرتين في البيتين الأولين المذكورين آنفاً. فالشاعر يتألم من القيود التي تؤذي ساقيه، وكأنه يريد بالتكرار قرع آذان السامعين لتشبّ عندهم العاطفة الخامدة، فهو يريد أن يسلط الضوء على نقطة حساسة في التعبير اللفظي ويكشف عن اهتمامه بها، يبغي من وراء ذلك التأثير على السامع لجذبه ومشاركته ما يعانيه بطريقة لا شعورية. والتكرار موجود في عدة قصائد من قصائد السجن عند الفرزدق فهو في مدحه مالك بن المنذر قال:

يا مالِ هل مُهلكي ما لم أقل	وليُعْلَمَنَّ من القصائد قبلي
يا مالِ هل لك في كبير قد أتَتْ	تسعون فوق يديه غير قليلي[1]

ومن قصيدة أرسلها إلى سعيد بن الوليد الابرش ليشفع له عند الخليفة قال:

فدونكها يابن الوليد فإنّها	مفضّلة أصحابَها في المحافل
ودونكها يابن الوليد فقم بها	قيام امرئ في قومه غيرِ خامل[2]

وورد التكرار عند شاعر آخر سجين هو هدبة بن خشرم حيث قال:

وقبل غد يا لهف نفسي على غد	إذا راح أصحابي ولست برائح
إذا راح أصحابي بفيض دموعهم	وغودرت في لحد عليّ صفائحي[3]

(1) الأصبهاني - **الأغاني** 21/ 333. مال: مرخم مالك.

(2) الأصبهاني - **الأغاني** 21/ 336.

(3) **شعر هدبة بن الخشرم العذري** / الجبوري ص 36.

وفي قصائد عدي بن زيد التي أرسلها إلى النعمان من سجنه ورد تكرار لفظي أيضاً حيث قال:

ولقد ساءني زيارةُ ذي قُربى ... حبيبٍ، لودّنا مُشتاقِ
ساءهُ ما بنا تَبيَّنَ في الأيدي ... وإشناقُها إلى الأعناقِ
فاذهَبِي، يا أميمَ، غيرَ بعيدٍ، ... لا يُؤاتِي العِناقُ مَنْ في الوِثاقِ
واذهَبِي، يا أميمَ، إنْ يَشأِ اللهُ يُنَفِّسْ مِنْ أزمِ هذا الخِناقِ

...

يا أبا مُسهِرٍ، فأبلِغْ رسولاً ... إخوَتِي، إنْ أتَيتَ صَحنَ العِراقِ
أبلغا عامراً، وأبلِغْ أخاهُ ... أنني مُوثَّقٌ شديدٌ وِثاقِي
في حديدِ القِسطَاسِ يَرقُبُنِي الحارِسُ، والمرءُ كلَّ شيءٍ يُلاقِي
في حديدٍ مُضاعَفٍ، وغُلُولٍ ... وثيابٍ مُنَضَّحاتٍ خِلاقِ[1]

يلاحظ تكرار كلمة «ساء» في البيتين الأول والثاني و«اذهبي يا أميم» في الثالث والرابع، وكلمة «أبلغ» مكررة ثلاث مرات في الخامس والسادس، و«في حديد» مكررة في البيتين الأخيرين.

وطالما نحن نعالج موضوع الخصائص اللفظية في أدب السجون، يجدر بنا الاشارة إلى ملاحظة لافتة، وهي استعمال بعض الألفاظ الفارسية في شعر بعض الشعراء الذين مارسوا تجربة السجن وأخص بالذكر عدي بن زيد، ويزيد بن مفرّغ الحميري.

فالمعروف أن عدياً نشأ وترعرع في «الحيرة» على تخوم فارس، وشبَّ وأينع في بلاط كسرى حيث اتقن اللغة الفارسية، فليس غريباً وجود بعض الألفاظ الفارسية في شعره كلفظ (الابيل) وهو الراهب في قوله:

إنَّنِي واللهِ فَاقْبَلْ حَلِفِي ... لأَبِيلٌ كُلَّما صَلَّى جَأرْ[2]

ولفظ (الشبر) وهو الانجيل والقربان في قوله:

---

(1) موسوعة الشعر العربي 2/ 462. أنظر ما ورد في بحثنا ص 105 وما بعدها.

(2) لويس شيخو ـ شعراء النصرانية ص 453، أنظر ما ورد في بحثنا ص 153 وما بعدها.

إذَ أتــانِــي نَــبَــأٌ مِــنْ مُــنْــعِــمٍ   لَمْ أخُنْهُ والذي أعطى الشَّبَرْ[1]

وهناك فارق زمني بين عدي، ويزيد بن المفرغ، الأول شاعر جاهلي والثاني توفي سنة 69 هـ. وفي البصرة حيث نشأ ابن المفرغ، في ذلك العصر، كان مجتمع البصرة يموج بأخلاط من الناس من عرب وفرس ونبط، وقد أتيح له في نشأته الشعبية المتواضعة أن يختلط بتلك الطبقة العامة، مما أدخل في لغته بعض الصيغ والألفاظ المتداولة لدى العامة، بل لقد ساعده ذلك الاختلاط الذي ازداد بعد تردده على الاهواز ان يتعلم اللغة الفارسية فيدخل جملة من ألفاظها في شعره.

لما ألحّ عبيد الله بن زياد في تعذيب ابن المفرّغ في السجن، ورأى صبره وجلده وإباءه، أمر به فسقي نبيذاً حلواً قد خلط معه الشبرم[2]. فأسهل بطنه، وطيف به، وقرن بهرّة وخنزيرة، فجعل يسلح، والصبيان يتبعونه ويقولون له بالفارسية: أين جيست... فيقول:

آبَ اسْــت نــبــيــذ اسْــت   عــصــاراتُ زبــيــب اسْــت
سـمـيّـة رُوسـبـيـد اسْـت

ومما قاله في وصف سجّانيه وما لقي على أيديهم في السّجن:

مِــن أسَــاوِيــرَ لا يَــنُــونَ قِــيــامــاً   وخــلاخــيــلَ تُــسْــهــرُ الــمــولــودَا
وطــمــاطــيــمَ مِــن سَــبــابــيــجَ غُــتْــمٍ   يُلْبِسُونِي مع الصَّباحِ القُيودَا[3]

وقد لاحظنا فيما ذكرناه من أدب السجون، وجود الكثير من الألفاظ الدالّة على القسم: مثل ما ورد عند عدي منذ قليل: (والذي أعطى الشبر)، وكذلك(ورب مكة والصليب)، وكذلك (والله) عند كثير من الشعراء الذين قاسوا تجربة السجن. وهذا القسم استعملوه للتأكيد على ما يقولونه ولتبرئة أنفسهم مما ينسب اليهم من تهم.

---

(1) لويس شيخو ـ **شعراء النصرانية** ص 453 أنظر ما ورد في بحثنا ص 105 وما بعدها.

(2) نبات مسهل.

(3) عبد القدوس أبو صالح ـ **يزيد بن مفرغ الحميري** ـ حياته وشعره. مؤسسة الرسالة ـ بيروت 1975 ـ ص 60 وقارن بما ورد في **الأغاني** 18/ 287 وبما ورد في بحثنا ص 153 وما بعدها.

وتمر الأيام ويظل الشاعر في السجن. ويبقى شبح الموت قائماً في نفسه، وذهنه وتصوره، فيقضي أيامه سجناً وخوفاً ورهبة وانتظاراً، وقد سدت بوجهه أبواب الرجاء. فيدب اليأس في نفسه شيئاً فشيئاً، فلا بد، والحالة كذلك، أن يكون الحزن هو اللون السائد على شعره في هذه الفترة، ويكثر حديثه عما يصور حاله ومصيبته وعذابه، وهذا ما تعرض له معظم الشعراء الأسرى والمساجين، لذلك نجد في أشعارهم ألفاظاً استعملها جلّهم إن لم نقل كلهم، وهي مثل: السلاسل، الجوامع، القيود، الكبول، الأغلال، الحلقة، الحديد، الدهر، الليل، ثقيل، البكاء، الدموع، السجن، السجّان، الأسير، دار بلوى، الباب، الحرسيّ، الوثاق، السّاق، أقاسي، الشكوى، وحيد، غريب، أبيت، الأرق، والرّجاء، الكئيب، الضيق، اليأس، الذلّ، الخطوب، الموت، الخوف، الرهبة، الخشية، النعمة، الشكر العفو، الرحمة، الظلم، الوشاة، الأعداء، الغدر، الشامت، أرسف، أعالج، أعاني، أبلغ، دعوت، تحنّن، أعوذ، أستجير، الخ. . . وما إلى ذلك من الألفاظ والتعابير التي تمثل نفس الشاعر الحزينة ومحنته القاسية.

أسلوب أدب السجون

مما تقدم من أدب السجون، نلاحظ تواتر الأساليب الانشائية، وطغيانها على الأساليب الاخبارية، لأن صيغ النداء، وصيغ الاستفهام البلاغي، وصيغ الأمر تتبوأ المرتبة الأولى في هذا الأدب، وهذا ما جعله مثيراً للعواطف.

وإذا أنعمنا النظر في أدب السجون نلاحظ أنه تكاد لا تخلو قصيدة من صيغ النداء والاستفهام البلاغي والأمر والطلب وكل الأساليب الانشائية الأخرى من تمنٍ ورجاء وتعجب ودعاء. . . وهذه أمثلة على ذلك:

إن صيغة النداء تكررت ثلاث مرات في أربعة أبيات أرسلها الفرزدق من سجنه يمدح بها هشاماً (راجع ص 254)، فهو يقول له في البيت الأول: يا أمين الله، ويقول له في البيت الثاني: يا خير أهل الأرض، وفي البيت الرابع، يقول: هشام، يا ابن خير الناس.

إن صيغة النداء من شأنها أن تعبر بقوة عن مشاعر المتكلم (الفرزدق) وهي الوظيفة التعبيرية للكلام، وإنّ تحرّك المستمع (هشاماً) وهي الوظيفة

الايحائية للكلام، وهذا ما يفسر استخدام هذه الصيغة في الأدب المأسوي الذي يصدر عن المسجون المتلهف إلى استرداد حريته.

وإن ابنة «أسلم بن عبد البكري» حينما أخذت تستعطف «الحجاج» ليخلّي عن أبيها أنشأت شعرها بالنداء (راجع ص 61) قالت في البيت الأول:

أحجاج، لم تشهد مقام بناته وعمّاته يندبنه الليل أجمعا

ثم تقول في البيت الثاني:

أحجاج، لم تقبل به أن قتلتا ثماناً وعشراً واثْنَتَيْن وأربعاً

ويتصدر النداء البيت الثالث:

أحجاج، من هذا يقوم مقامه علينا؟ فمهلاً، ان تزدنا تضعضعا

ويلاحظ هنا صيغة الاستفهام التأنيبي: من هذا يقوم مقامه علينا، وصيغة فعل الامر أتت في عجز هذا البيت على شكل اسم الفعل (مهلاً).

ويتصدر النداء البيت الرابع أيضاً:

أحجاج، إما أن تجود بنعمة علينا... واما أن تقتلنا معاً

فبكى الحجاج، أرأيت إلى الحجاج، جلمود الصخر الأصم، يبكي... لماذا؟ لأن صيغ النداء والاستفهام التأنيبي والأمر، زعزعت كيانه.

ولما أقذع الحطيئة في الهجاء وسجنه الخليفة «عمر بن الخطاب» فأخذ يرسل اليه قصائد المديح والاستغاثة، ولكن الخليفة لم يلتفت اليه إلا حينما قال: (راجع ص 133).

مَاذَا تقول لافراخ بذي مرخ حمر الحواصل لا ماء ولا شجر؟

فأفرج عنه الخليفة، وزاد على ذلك إذ أعطاه ثلاثة آلاف درهم لماذا؟ لأن الحطيئة، استعمل هنا صيغة الاستفهام التأنيبي مما حرّك أحاسيس الخليفة وأثار عواطفه.

حتى في أدب السجون النثري، صرخة آمنة بنت الشريد (راجع ص 193) ألم تخلع قلب معاوية؟

لماذا؟

لأن صيغ النداء والأمر والدعاء احتشدت في كلامها حشداً مروّعاً...

استمع لها تقول بعد أن طرحوا رأس زوجها في حجرها، استمع لها تنشئ حديثها إلى رسول معاوية الذي أتاها برأس زوجها، فتأمره:

إرجع به، أيها الرسول إلى معاوية فقل له:

أيْتَمَ اللهُ وُلْدَكَ
وَأوْحَشَ منكَ أهْلَكَ
ولا غَفَرَ لَكَ ذَنْبَكَ

فأعرض عنها معاوية، لأن قلبه إنخلع من هول الاسلوب التعبيري.

إنه الجمال البلاغي والروعة الفنية والحقيقة الانسانية الابدية التي تسمو بشعر السجون إلى مرتبة الخلود.

هذا الشعر الذي نظمه أصحابه ضمن مقطوعات وقصائد، كيف كانت تلك المقطوعات وتلك القصائد، وما هو تأثير السجن فيها؟

ثالثاً ـ شعر الاسر والسجن

أ ـ الشكل

1 ـ القصائد التقليدية

حين ننظر في شعر الاسر والسجن، من الزاوية التي تطلعنا على بنائه الخارجي، فأول ما يلفتنا فيه أنه شعر مقطوعات، ولسنا نعني بهذا، انعدام القصيدة فيه، وإنما نعني ذيوع المقطوعة أكثر من ذيوع القصيدة.

وإذا رجعنا إلى القصائد القديمة نجد أنها تلتزم ما يسميه النقاد: عمود الشعر، وهذا ما يسمى الطابع التقليدي المتوارث عن الشعراء القدامى، حيث يسير الشعراء على نهج مخصوص، يبدأون عادة بذكر الاطلال أو النسيب والغزل، وينتقلون إلى وصف الراحلة ثم إلى الطريق التي يسلكونها ويخلصون إلى الغرض المقصود (مدح، فخر... الخ)، فنجد في القصيدة القديمة

(الجاهلية أو الاسلامية) بصورة عامة، أغراضاً متعددة، يكون واحداً منها مقصوداً لذاته، ذلك هو شكل القصيدة المألوف[1].

إن شعر الاسر والسجن لا يلتزم بصورة عامة بجوهر الطابع التقليدي بل يكاد يعارضه معارضة واضحة، ذلك أننا نجد ذلك الشعر لا يتجه إلى طابع القصائد التي تشتمل على عناصر أو أغراض متعددة، وإنما تلتزم القصيدة أو المقطوعة فيه غرضاً واحداً لا تعدو تصويره، أو تصوير جوانبه وملابساته المباشرة.

وربما كان سبب ذلك طبيعة حياة السجين أو المأسور، تلك الحياة القلقة المضطربة، حيث كان يعيش تحت هاجس الموت، ويتعرض للعذاب، فلا يعقل، وهو على هذا الحال أن ينصرف إلى نظم القصائد الطويلة التي تتلاءم وعمود الشعر القديم، وقد يكون طبيعياً أن تنتج مثل هذه الحياة لوناً من الفن السريع الذي يسجل فيه الشاعر ما يضطرب في نفسه من مقطوعات قصيرة موجزة، وهي موافقة للخواطر والمشاعر التي تلمّ بالاسير أو السجين، فيصوغها في أبيات موجزة معبّرة واضحة الغرض.

قلنا إن أدب السجون لا يخلو من وجود قصائد تقليدية منها: قصيدة للفرزدق في الديوان تبلغ أربعة وخمسين بيتاً[2] تبدأ بمقدمة بالغزل، عرض فيها الشاعر حالته التعيسة حينما ألمّ به طيف محبوبته، ثم انتقل إلى وصف محاسن محبوبته «أم العلاء» وذلك في خمسة أبيات وانتقل في البيت السادس إلى القول:

ذَكَرْتُكِ، يا أُمَّ العلاءِ، ودُونَنا   مَصَارِيعُ أبْوابِ السُّجونِ الصَّوارِفِ

وتابع غزله في ستة أبيات أخرى ثم انتقل للحديث عن سلوك الطريق الصعبة المحفوفة بالمهالك، وقال بعدها مباشرة:

---

(1) Jawad Boulos...- Les peuples et les civilisations du proche Orient Tome 4 - Dar Aouad - 1983 - Page 338.

(2) ديوان الفرزدق 2/ 7.

إليكَ، أميرَ المؤمنينَ، تَعَسَّفَتْ بنا الصُّهْبُ أجْوازَ الفَلاةِ التَّنَائِفِ

وتابع يصف حالة ناقته وما لاقته من عناء وتعب وذلك في أربعة أبيات وانتقل بعدها إلى القول:

دَعَوْتُ أمينَ اللهِ في الأرضِ دَعْوَةً لِيَفْرِجَ عن ساقَيَّ، خيرُ الخلائِفِ

وتابع مطنباً بمدح الخليفة وآل مروان معدداً سجاياهم في أربعة عشر بيتاً، ووصف حالته داخل سجنه في بيتين، ثم انتقل إلى الفخر بقومه «تميم» وبنفسه، وتحدث عن الوشاة ودافع عن نفسه إلى أن ختم قصيدته بقوله:

وما كنتُ أخْشَى أن أرى في مَخَيَّسٍ قَصيرَ الخُطى أمْشِي كَمَشْيِ الزَّوَاسِفِ

أبيتُ تَطُوفُ الزُّطُّ حَوْلِي بِجُلْجُلٍ، عَلَيَّ رَقِيبٌ مِنْهُمُ كالمُحَالِفِ

مما لا شك فيه أن حرص الشاعر على التزام العمود المرسوم للقصيدة، هو إرضاء الخليفة إرضاء ينم عن الاحترام والتوقير، فيصاغ الشعر في قالب أدبي يعد في عصره أسمى مناهج النظم والاخراج.

ومن تلك القصائد التقليدية في أدب السجون قصائد لعدي بن زيد، أرسلها إلى الملك النعمان من سجنه منها «عبرة الدهر»[1] التي استهلها بوصف العارض وبرقه ورعده ومطره، والغيوم وانتقل إلى التحدث عن صروف الدهر ومصير الهرم والفناء المحتم، وقد أورد أسماء الملوك والاباطرة والأكاسرة الذين أدركوا غاية الثراء والأبهة والسلطة، ثم ولّوا مخلّفين قصورهم رمزاً لقوتهم الزائلة، وعدي بذلك يذكر الملك بالسلف ليكون خير خلف ويطلق سراحه، وقد اتخذ من ذكر العارض ووصف البرق والرعد والمطر مسلكاً له، وهو في السجن لكي يصوّر تقلبات الايام من خلال نظره في تقلبات الجو.

ومن تلك القصائد أيضاً قصيدة لبشر بن أبي خازم الذي وقع أسيراً بين يدي «أوس بن حارثة»، بعد أن كان أقذع في هجائه، واضحى مترقباً الموت في كل لحظة، والحقّ أنه كان فارساً وقائداً وصاحب غزوات وغارات، وكان أيضاً حريصاً على الحياة متشبثاً بها، فأخذ يتوسل إلى «أوس» تائباً أن يهبه الحياة،

(1) موسوعة الشعر العربي 2/ 448.

ومن مدائحه فيه تلك القصيدة الفائية التي بلغت ثلاثين بيتاً ومطلعها[1]:

كَفَى بِالنَّأْيِ مِنْ أسماءَ كَافِي ... وليسَ لِحُبِّها إذْ طالَ شَافِي

بَلَى إنَّ العَزَاءَ لَهُ دواءٌ ... وطولُ الشوقِ يُنْسِيكَ القَوَافِي

إنه بدأ بمقدمة غزلية ثم وصف الناقة ووعورة الطريق حتى البيت الثالث والعشرين حين قال:

إلى أوْسِ بنِ حارثةَ بنِ لأمٍ ... لِرَبِّكِ، فَاعْلَمِي إنْ لَمْ تَخَافِي

وأخذ يغدق عليه بالمديح، فليس هناك ملجأ آمناً أفضل من جوار أوس، وهو الشجاع الكريم الحليم.

لقد حرص الشاعر في تلك القصيدة على تمجيد «أوس» تمجيداً يرضي شريفاً بدوياً جاهلياً، ولذلك أخرج قصيدته إخراجاً أدبياً من طراز رفيع وحرص على الالتزام بعمود الشعر المرسوم، وصاغ شعره في قالب أدبي يعد في عصره أسمى مناهج النظم والاخراج، وبذلك تمكن «بشر» من أن ينفذ إلى قلب أوس ويؤثّر عليه، فوصل إلى مبتغاه وعفا عنه.

هذه بعض النماذج من القصائد التقليدية في أدب السجون والتي كانت قليلة نسبياً إذا ما قورنت مع عدد المقطوعات وقصار القصائد.

2 ـ المقطوعات

قلنا إن أدب الأسر والسجن فيه ضربان من القصائد، القصائد الطويلة التي نظمها أصحابها حسب المنهج التقليدي المسمّى بعمود الشعر القديم، وهي قليلة نسبياً، والضرب الثاني هو القصائد القصار أو المقطوعات.

ولعل المقطوعات هي أكثر ما نظم في الأسر، وهي موافقة للأحاسيس والخواطر التي تلم بالسجين فيصوغها في أبيات موجزة معبرة، حيث نجد فيها الصورة الصادقة لواقع الحياة التي يعيشونها.

ومع قصر أشعارهم وتخلصهم فيها من المقدمات التقليدية فقد أهملوا أيضاً الاجزاء الموروثة التي كانت تليها، من مثل وصف الرحلة والناقة وتشبيهها بالثور الوحشي وما إلى ذلك، على أنهم لم يهملوا وصف المرأة

(1) عزة حسن، ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي ـ الطبعة الثانية دمشق 1972 ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ إحياء التراث القديم ص 142.

ووصف الطيف، وبذلك تحول شعراء الأسر والسجن بشعر المقطوعات عن التقاليد الموروثة حيث الحذق والمهارة الفنية والأغراض التقليدية، فأصبح لتلك المقطوعات استقلالية عن تلك الأغراض وبعداً عن الصناعة والتكلف، وتتمثل في تلك المقطوعات وحدة الموضوع والتجربة الشعورية الصادقة على ما فيها من سرعة وإيجاز.

فهذا اللّون من الشعر تهتف به النفوس المتألمة في المواقف الحرجة أو اليائسة، عفو البديهة بدافع الخوف والرهبة أو الرغبة والرجاء، ينبثق إنبثاقاً حراً بتأثير المعاناة والضغوط المرهقة على النفس، فهو كدفقة المطر من السحاب تهل إذا أثقل وتحتبس إذا خفّ.

ولما كانت تلك المقطوعات صادرة عن المعاناة الحق، والتجربة الشعورية الخالصة فقد استوى التفوق فيها بين صغار الشعراء وكبارهم وحققوا في التآلف بين الرغبات والمشاعر براعة محمودة، وظفر بعضهم بحريتهم من جراء هذه البراعة، وهذا ما حصل مع الأعشى ميمون حين استغاث بشريح ابن السموأل[1]. وكذلك جويرة بن بدر الدارمي الذي أسر يوم الوقيط، أسرته بني عجل[2].

ومن مزايا تلك المقطوعات انها، على إيجازها، تصل إلى غرضها توّاً في منحى من القول يجمع الأفكار في تركيز وفي توجيه مباشر نحو الهدف، فإذا بضعة أبيات تحوي من مضمون الفكر والشعور ما لا يقل عن جملة قصيدة في موضوعها.

وقد جاءت هذه المقطوعات في الأغراض المعتبرة التي عرضت لها قصار القصائد وكبارها من مدح،[3] واستعطاف،[4] ووصف المرأة[5]،

---

(1) ورد في بحثنا ص 116 وأنظر ديوان الأعشى ص 419.

(2) ورد في بحثنا ص 119 وأنظر النقائض 1/ 308.

(3) أنظر ما ورد من مقطوعات للفرزدق ص 149 من بحثنا. وديوان الفرزدق 1/ 30 و1/ 70.

(4) أنظر مقطوعات بشر بن أبي خازم ص 117 من بحثنا. وراجع بلوغ الارب 1/ 83. وعن جويرة بن بدر في بحثنا ص 119 والحطيئة ص 128 من بحثنا والأغاني 2/ 187.

(5) أنظر ص 98 من بحثنا عن البراء بن قيس.

وعذاب وأحزان[1]، وتحدٍّ[2]، وعتاب وتوسل ووصف الاشواق، ونكد السجن ومساوئه وتصرف الاقدار والاحوال، وهذا ما سبق وأشرنا اليه في موضوعات أدب الاسر والسجن.

والحق أن هذه المقطوعات ذات قيمة أدبية، وقيمة فنية ممتازة، فهي لباب التجربة النفسية ذات غنى ظاهر، تبرأ من التصنع الفني، فينطلق فيها التعبير رسلاً سهلاً شفافاً موحياً.

ومن الطبيعي أن تكون أبيات تلك المقطوعات متلاحمة ومتماسكة تتمثل فيها الوحدة الموضوعية بأجلى صورها، وأوضح مظاهرها، فلا تفريع في المعاني، ولا تعدد في الأجزاء، ولا أدوات للربط بينها، كما هو الشأن عند الشعراء التقليديين، وإنما هي خواطر ومعان محدّدة، كانوا يعبّرون عنها في أبيات معدودة، ولعل في الأمثلة السابقة ما يثبت ذلك ويوضحه.

ب ـ المطالع

إنصرفت عناية الشعراء منذ القديم إلى الاهتمام بمطالع قصائدهم. فبذلوا غاية الجهد في إجادتها وإتقانها، علماً منهم بقوة الأثر الأول في النفس، وانه يدفع السامع إلى التنبيه والاصغاء إن كان جيداً آسراً، والانصراف إن كان ضعيفاً فاتراً، لذلك يمكن القول إن القصيدة العربية تميزت بمقدمتها التي تعد منطلقاً ذاتياً للشاعر، ورسخ هذا الرسم على مدى العصور، وتنوع من وقوف على الاطلال إلى النسيب والغزل والحكمة أحياناً.

ليست الغاية الاستفاضة في الحديث عن المطالع، إنما المقصود التعرف على ما امتازت به مطالع قصائد السجن وما طرأ عليها من تعديل أو تجديد وأثر الموضوع على المطلع.

نلاحظ مما توفر لدينا من أدب الأسر والسجن ان الشعراء الذين اتبعوا

---

(1) أنظر ص 109 من بحثنا عن المنخل اليشكري **والأغاني** 21/ 3، وصفحة 149 من بحثنا عن هدبة وشرح **ديوان الحماسة** 2/ 17.

(2) أنظر ص 133 من بحثنا عن ابن الحر، **والطبري** 6/ 136، وانظر ص 154 من بحثنا عن ابن المفرغ **والأغاني** 18/ 259.

عمود الشعر القديم واستهلوا قصائدهم بمقدمات تقليدية كان أثر السجن معدوماً في مطلعها بصورة عامة، حتى أنه يمكننا القول إنّ هذا المطلع صالح لأي قصيدة أخرى مهما كان موضوعها، فلو أخذنا مثلاً فائية الفرزدق[1] التي تحدثنا عنها في عرضنا لشكل القصيدة، فإننا نجد أن مقدمتها الغزلية بلغت خمسة أبيات وليس فيها كلمة واحدة لها علاقة بالسجن، وكذلك «عبرة الدهر» لعدي بن زيد[2]، بلغت مقدمتها سبعة أبيات تحدث فيها عن العارض والبرق والرعد والغيوم، ولا يشتمّ منها ما يدل على أن صاحبها يعاني أقسى أنواع العذاب في السجن.

وفائية بشر بن أبي خازم، مطلعها غزلي وعدتها ثلاثون بيتاً، حتى نهاية البيت الثاني والعشرين، غزل ووصف الناقة ووعورة الطريق، وهذا لا يدل أبداً على أن صاحبها أسير عند «أوس بن حارثة» ينتظر الموت.

إن تلك المطالع لا تلقى شيئاً من ظلال السجن، وقد فرضها الإطار المرسوم على عملية النظم، فأتى المطلع ضعيف الصلة بغرض القصيدة، بل مستقلاً عنه حتى أنه ليصلح لغيرها وفي غير غرضها.

وليس معنى ذلك أن شعراء السجون التزموا بهذا المبدأ وساروا على منواله، إذ أن هناك محاولات انعتاق من تلك القيود. فالفرزدق نفسه حاول أن يتحرك حركة حرة محدودة في قصيدته الميمية التي نظمها في سجن خالد بن عبد الله القسري، تلك القصيدة بلغت خمسة وعشرين بيتاً ومطلعها:

أَهَاجَ لَكَ الشوقَ القديمَ خيالُه ... منازلُ بين المُنْتضى ومنيمِ
وقد حال دوني السجنُ حتى نسيتُها ... وأذهَلَني عن ذِكْرِ كلُّ حَميمِ
على أنني مِنْ ذِكْرِها كلَّ ليلةٍ ... كَذِي حُمَةٍ يَغْتَادُ داء سَليمِ
إذا قيلَ قَدْ ذَلَّتْ لهُ عنْ حياتِهِ ... تُراجِعُ منهُ خَابِلاتِ شَكيمِ[3]

(1) ديوان الفرزدق 2/ 7.

(2) موسوعة الشعر العربي 2/ 448.

(3) ديوان الفرزدق 2/ 285 ـ الحمة: السم. السليم: اللديغ. الخابلات: المهلكات. الشكيم: الأسد.

نلاحظ أن حركة الفرزدق كانت مقيدة في البيت الأول، وتحرر في الثاني ليعود مقيداً في الثالث والرابع. إنما المهم أننا عرفنا عن سجنه من البيت الثاني ويمكننا القول إنّ هناك رباطاً يربط المطلع مع الموضوع.

ويبدو أن يزيد بن المفرغ كان أجرأ على كسر تلك القيود، وذلك في لاميته، التي يعبر فيها عن شكواه لما يعانيه من عذاب السجن. قال:

دارَ سَلْمى بالخَبْتِ ذي الأطْلالِ ... كيف نَوْمُ الأسيرِ في الأغْلالِ
أينَ مني السّلامُ من بعد نَأْيٍ ... فارجِعي لي تَحيّتي وسُؤالي
أينَ مني نَجائِبي وجيادي ... وغَزالي، سقى الالهُ غَزالي
أينَ، لا أينَ جُنّتي وسلاحي ... ومطايا سَيَّرْتُها لارتحالي[1]

. . .

يفيض هذا المطلع بالغزل الشجي، ويذكر الاطلال لدار حبيبته سلمى، وهذا تقليد إنما تكمن الجدة في الشطر الثاني من البيت الأول حيث عرفنا، انه سجين، فكان للسجن أثره في تغيير نهج المطلع، وهنا لا يمكننا القول ان هذا المطلع يصلح لأن يكون لقصيدة أخرى ولموضوع آخر. فالأسى الباكي في النداء والتسآل والدعاء يغمر الاطار التقليدي ويجعل منه مطلعاً معدّلاً ملائماً لقصيدة السجن.

وقال ابن المفرغ أيضاً:

حَيِّ ذا الزَّوْرِ وانْهَهُ أنْ يَعُودَا ... إنَّ بالبابِ حارسَيْنِ قُعودَا
مِنْ أساوِيرَ ما يَنُونَ قِياماً ... وخَلاخِيلَ تُذْهِلُ المَوْلُودَا[2]

فالمطلع هنا، لولا عنصر الطيف القديم، يكاد يكون مستجداً مستوحى من واقع السجن.

---

(1) يزيد بن المفرغ الحميرى، حياته وشعره ص 116 والأغاني 18/ 266.
(2) الأصبهاني ـ الأغاني 18/ 287.

الخاتمة

وهكذا تنتهي هذه الدراسة عن أدب الأسر والسجن في العصر الجاهلي، والعصر الاسلامي، هذه الدراسة التي كشفت لنا الكثير من ميادين السياسة وأنواعاً من الخلافات القبلية ظاهرها وباطنها، وعرفتنا إلى ذلك المجتمع في مختلف طبقاته، غنيها وفقيرها، وساعدتنا على رصد التحركات الشعبية والثورات، وأدخلتنا إلى حياة الخاصة، وتخطت بنا المظاهر الخلابة إلى الانسان المتسلط ونظرته إلى المبادئ والاهداف وتعامله معها، وإلى تهتكه وجبروته، وما يعتوره من نعيم وبؤس وعزة وذلّة. وكشفت لنا واقع القمع ومصادرة الحريات والحقوق الاساسية في تلك الايام، مما يدل على واقع مأساوي في الحضارة الغابرة، وكشفت لنا زوايا فكرية وفنية وأدبية مما أوصلنا إلى جملة حقائق أهمها:

- أشكال التعذيب ومراحله وأساليبه تكاد تكون واحدة.

- شخصيات السجانين تكاد بدورها تكون واحدة.

- معاناة السجناء وعذابهم ولحظات ضعفهم وصمودهم وهواجسهم وأحلامهم وأفكارهم تكاد هي الأخرى تكون واحدة.

وفيما يتعلق بالأسر يمكن أن نخلص إلى عدة نتائج:

- كانت الحروب والغزوات أكبر الموارد للأسر الذي كان له أثر كبير في تطوير شعر الشعراء الذين تعرضوا لتلك التجربة.

- كان ثمة قصد ظاهر لاذلال الأسير وأخذه بالارهاب والتخويف بدافع من التشفي في نفس آسره.

- كان الانتقام المتبادل بين القبائل المتعادية من دوافع النكال.

- كانت الاحقاد تدفع بالآسرين إلى التمثيل بأسيرهم قبل موته، مما يدل على أن الانسان في العصر الجاهلي، هو نفسه إنسان اليوم، لا يستطيع أحياناً أن يقهر في ذاته دواعي الشر والعدوان، فيستهين بقدسية أخيه الانسان، ويستغل عجزه ليذيقه شتى أنواع العذاب.

- ويمكن أن يجد الأسرى قلوباً تفيض من الشفقة وأناساً تتغلب عليهم العاطفة الانسانية فيطلقون سراحهم من أجل كلمة استعطاف أو من أجل نشيد حزين يصدر عن المأسور.

وقد يجد الأسير من يمنّ عليه بالحرية بدافع المروءة والشهامة فينال صاحبها حسن الأحدوثة ورفعة المنزلة.

- وربما كان الأسر سبباً من أسباب الرزق للآسرين، وقيمة الاسير حينها تتناسب مع مكانته في قومه.

- إن حب الحياة والتعلق بها والتوق إلى الحرية من الطبائع البشرية، وهذا جلّ ما كان يصبو إليه الشعراء الأسرى.

- هناك تفاوت في مواقف الشعراء الذين تعرضوا لمحنة الأسر، فمنهم من ظل موقفه صلباً ومنهم من إنهار وتخاذل، وكان لهم من تلك المحنة باعث لتحريك وجدانهم وسبب للابانة عما فيه بجليّ البيان.

إن الكثير من هذه الحقائق تنطبق على الشاعر السجين ويمكن إضافة:

- عرف العرب الجاهليون السجون، قبل الاسلام بزمن طويل.

- تعرض العديد من الشعراء لتجربة السجن بحق وبغير حق.

- لم تكن عقوبة السجن في العصر الأموي، بأغلبيتها، تطبيقاً لاحكام الشريعة الاسلامية، إنما كانت انتقاماً ولأسباب سياسية.

- لم تكن هناك مدة محددة لعقوبة السجن.

- ترجمت أشعار أولئك الشعراء تجربة السجن وملابساتها وأسبابها وواقعها ونتائجها، وبذلك استطعنا النفاذ إلى أغوار ذاك المجتمع، نستقصي معرفة عاداته وتقاليده ومثله العليا، والتعرف بالسجون وألوان العذاب، والسجناء وأحاسيسهم وآلامهم وآمالهم وحنينهم وأشواقهم.

- صوّر لنا أدب السجن بصدق، الانسان المعذب المسحوق في آلامه ومعاناته، مما جعله أدباً إنسانياً.

- أدب السجن قليل القصائد التقليدية، كثير المقطوعات، وتلك المقطوعات تتميز بوحدة الموضوع، وبتركيز محكم، وطاقة تعبيرية مؤثرة مفعمة بالمحتوى الشعوري والنفسي.

- هناك تجديد في مطالع قصائد السجن، فهي غالباً تكون بلا مقدمة طللية أو نسيب.

- هناك ألفاظ خاصة متكررة عند أغلب شعراء السجون، فرضتها معطيات الحبس والسجناء والتعذيب.

- يمكننا دراسة المجتمعات الجاهلية والاسلامية من خلال النتاج الأدبي لتلك الفترة.

وبما أن الجريمة لا تخلو من أي مجتمع من المجتمعات سحيقها وقديمها وحديثها، بدئيِّها ومتطورها، وبما أن السجن أصبح المجال الرئيسي لمكافحة الجريمة، لذلك ينبغي تكليف جماعة من المتخصصين في العلوم الاجتماعية[1]، وخصوصاً المهتمين بدراسة الجريمة وأنماط السلوك المنحرف، بدراسة السجون، ودراسة المقيمين فيها والقَيِّمِينَ عليها، فيهدف هؤلاء إلى رسم صورة واضحة لحياة فئة من فئات المجتمع، وإلى المساهمة في تطوير مقترحات من شأنها أن تعود بالنفع على أعضاء هذه الفئة وبالتالي على المجتمع بصفة عامة. لأنه من الضروري تطوير أوضاع السجون لتكون مؤسسات إصلاحية بدلاً من أماكن يتفنن فيها السجانون في إنزال أقسى أنواع العذاب، وهكذا تصبح السجون مدارس لتعليم الجريمة وتأكيد النزعة الاجرامية.

يجب أن تتحول الفكرة في إقامة السجون إلى فكرة إنسانية عاطفية تهدف

---

(1) **علم الجريمة** - تأليف الدكتور حسن شحاتة سعفان - الطبعة الثانية 1961 - 1962 - مكتبة النهضة المصرية - وقارن مع : Jean Marquiset - Le crime - Presse universitaire de France.

ترجمه إلى العربية عيسى عصفور ص 136 - عويدات - بيروت 1983.

إلى خلاص النفوس من التردي في سبيل الاجرام، والانخراط في عداد المجرمين[1]، فالسجن تهذيب لا تعذيب، وتقويم إعوجاج السجين يجب أن يبدأ في السجون نفسها.

وبعد، هذا تلخيص لبعض الحقائق والخصائص لأدب الأسر والسجن التي تمكنت من تسجيلها في دراستي هذه، أرجو أن أكون قد وفّقت في إضافة لبنة في بناء الأدب العربي الكبير.

(1) الشذوذ العبقري والجنسي والاجرامي ـ تأليف عبد الله حسين ـ 1948 ـ 1949 ـ مطبعة الشباب الحديثة ـ مصر.

المراجع

1 ـ القرآن الكريم.

2 ـ أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ـ تأليف الدكتور ابراهيم شعوط. المكتب الاسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الخامسة سنة 1983 م.

3 ـ الأحكام السلطانية ـ تأليف محمد بن الحسين الفراء ـ المتوفى سنة 458 هـ ـ بيروت.

4 ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية ـ تأليف علي بن. . . الماوردي ـ المتوفى 450 هـ شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي بمصر ـ الطبعة الثانية سنة 1966 م.

5 ـ الأخبار الطوال ـ تأليف أبي حنيفة الدينوري المتوفى سنة 282 هـ تحقيق عبد المنعم عامر ـ دار المسيرة ـ بيروت.

6 ـ أخبار القضاة / وكيع (محمد بن خلف بن حيان) المتوفى سنة 306 هـ ـ عالم الكتب ـ بيروت.

7 ـ أخبار النساء ـ تأليف ابن القيم الجوزية ـ المتوفى سنة 751 هـ تحقيق الدكتور نزار رضا ـ منشورات مكتبة الحياة. بيروت سنة 1982 م.

8 ـ الاختيار لتعليل المختار ـ تأليف عبد الله. . . الحنفي ـ دار المعرفة ـ بيروت الطبعة الثالثة سنة 1975 م.

9 ـ أدب السياسة في العصر الاموي ـ تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفي ـ الطبعة الخامسة دار النهضة مصر للطباعة والنشر سنة 1979 م.

10 ـ أدباء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ـ تأليف بطرس البستاني ـ دار مارون عبود سنة 1979 م.

11 ـ أدب القاضي ـ تأليف علي بن محمد. . . الماوردي ـ المتوفى سنة 450 هـ ـ تحقيق محيي هلال السرحان ـ بغداد ـ مطبعة الارشاد سنة 1971 م.

12 ـ الاسلام والحضارة العربية ـ تأليف محمد كردعلي ـ الطبعة الثالثة ـ القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1968 م.

13 ـ أشعار اللصوص وأخبارهم ـ جمع وتحقيق عبد المعين الملوحي ـ منشورات دار أسامة دمشق.
14 ـ الاصابة في تمييز الصحابة ـ تأليف شهاب الدين العسقلاني المتوفى سنة 852 هـ ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى 1328 هـ.
15 ـ الاصمعيات ـ اختيار الأصمعي المتوفى سنة 216 هـ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ الطبعة الخامسة ـ دار المعارف ـ القاهرة 1979 م.
16 ـ الاعلام ـ تأليف خير الدين الزركلي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة الخامسة سنة 1980 م.
17 ـ الأغاني ـ لأبي فرج الاصبهاني ـ المتوفى سنة 356 هـ ـ مصور عن طبعة دار الكتب ـ مؤسسة جمال للطباعة والنشر ـ بيروت.
18 ـ أقضية الرسول: تأليف ابن طلاّع المتوفى سنة 497 هـ ـ تحقفيق محمد الأعظمي ـ الطبعة الثانية ـ دار الكتاب اللبناني سنة 1982 م.
19 ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ تأليف أبي بكر أحمد الخلاّل ـ المتوفى سنة 311 هـ تحقيق عبد القادر عطا ـ الطبعة الأولى ـ دار الاعتصام سنة 1975 م.
20 ـ الامالي ـ تأليف أبي علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي ـ دار الكتاب العربي بيروت.
21 ـ الامامة والسياسة ـ تأليف ابن قتيبة الدينوري ـ المتوفى سنة 276 هـ ـ مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع ـ القاهرة.
22 ـ أيام العرب في الجاهلية ـ تأليف محمد أحمد جاد المولى بك ورفاقه ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
23 ـ بدائع الفوائد ـ تأليف ابن القيم الجوزية ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.
24 ـ البداية والنهاية ـ تأليف ابن كثير الدمشقي ـ المتوفى سنة 774 هـ ـ الطبعة الرابعة مكتبة المعارف ـ بيروت سنة 1981 م.
25 ـ البدء والتاريخ ـ تأليف المطهر بن طاهر المقدسي ـ مكتبة المثنى ـ بغداد.
26 ـ البدعة، تحديدها وموقف الاسلام منها ـ تأليف الدكتور عزت علي عطية ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية 1980 م.
27 ـ البرصان والعرجان ـ تأليف الجاحظ ـ تحقيق محمد مرسي الخولي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية سنة 1981 م.
28 ـ بلاغات النساء ـ تأليف أحمد بن . . . طيفور ـ المتوفى سنة 280 هـ ـ دار النهضة الحديثة ـ بيروت سنة 1972 م.
29 ـ بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ـ تأليف محمود الالوسي البغدادي ـ عني بشرحه محمد بهجة الاثري ـ دار الكتب العلمية ـ الطبعة الثانية ـ بيروت.

30 ـ البيان والتبيين ـ تأليف الجاحظ ـ دار صعب ـ بيروت.
31 ـ تاريخ الأدب العربي ـ تأليف ز. بلاشير ـ ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني ـ منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق ـ سنة 1973 م.
32 ـ تاريخ الأدب العربي ـ تأليف كارل بروكلمان ـ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ـ دار المعارف ـ الطبعة الرابعة ـ مصر سنة 1977 م.
33 ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ تأليف جرجي زيدان ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ الطبعة الثانية ـ بيروت سنة 1978 م.
34 ـ تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي ـ تأليف شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثالثة سنة 1976 م.
35 ـ تاريخ الرسل والملوك ـ تأليف أبي جرير الطبري ـ المتوفى سنة 310 هـ ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الرابعة 1979 م.
36 ـ تاريخ الادب العربي ـ تأليف الدكتور عمر فروخ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة سنة 1981 م.
37 ـ تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية ـ تأليف كارلو نالينو ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثانية 1970 م.
38 ـ تاريخ خلافة بني أمية ـ تأليف نبيه عاقل ـ دار الفكر ـ دمشق سنة 1972 م.
39 ـ تاريخ الخلفاء ـ تأليف السيوطي ـ المتوفى سنة 911 هـ ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة بمصر ـ الطبعة الأولى 1952 م.
40 ـ تاريخ الدولة العربية حتى نهاية الدولة الاموية ـ تأليف يوليوس ڤلهوزن ـ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ـ نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الثانية سنة 1968.
41 ـ تاريخ صدر الاسلام والدولة الاموية ـ تأليف الدكتور عمر فروخ ـ دار العلم للملايين بيروت سنة 1970 م.
42 ـ تاريخ العرب ـ تأليف الدكتور: حتي، جرجي، جبور ـ دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع ـ طبعة جديدة منقحة ـ الطبعة الخامسة سنة 1974 م.
43 ـ تاريخ المذاهب الاسلامية ـ تأليف الامام محمد أبي زهرة ـ دار الفكر العربي.
44 ـ تاريخ اليعقوبي ـ تأليف أحمد بن أبي يعقوب المتوفى سنة 282 هـ ـ دار صادر بيروت.
45 ـ تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الاحكام. تأليف أبي الوفا المالكي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت الطبعة الأولى 1301 هـ.
46 ـ تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب ـ تأليف داود بن عمر الانطاكي المتوفى سنة 1008 هـ ـ المكتبة الثقافية ـ بيروت.

47 ـ التشريع الجنائي الاسلامي مقارناً بالقانون الوضعي ـ تأليف عبد القادر عودة ـ مؤسسة الرسالة.
48 ـ التعريفات ـ تأليف الشريف الجرجاني ـ مكتبة لبنان ـ بيروت سنة 1978 م.
49 ـ التعزير في الشريعة الاسلامية ـ تأليف الدكتور عبد العزيز عامر ـ دار الفكر العربي ـ الطبعة الرابعة ـ القاهرة 1969 م.
50 ـ تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ـ دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان سنة 1982 م.
51 ـ تفسير القرآن الكريم ـ الجلالين ـ المكتبة الهاشمية ـ دمشق سنة 1373 هـ.
52 ـ التنبيه والاشراف ـ تأليف المسعودي المتوفى سنة 346 هـ ـ دار صعب ـ بيروت.
53 ـ التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ـ تأليف الشافعي الملطي المتوفى سنة 377 هـ ـ تقديم وتعليق محمد زاهد الكوثري ـ مكتبة المثنى ـ بغداد سنة 1968 م.
54 ـ تهذيب تاريخ دمشق الكبير ـ تأليف ابن عساكر ـ دار المسيرة ـ الطبعة الثانية ـ بيروت 1979 م.
55 ـ جمهرة أشعار العرب ـ تأليف أبي زيد محمد بن القرشي ـ المتوفى سنة 170 هـ دار المسيرة ـ بيروت ـ طبعة جديدة منقحة سنة 1978 م.
56 ـ الحجاز والدولة الاسلامية ـ تأليف ابراهيم بيضون ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ـ سنة 1983 م.
57 ـ الحجاج بن يوسف الثقفي ـ تأليف إحسان صدقي العمد ـ دار الثقافة ـ بيروت سنة 1983 م.
58 ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ـ تأليف آدم ميتز ـ نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة سنة 1967 م.
59 ـ حضارة العرب ـ تأليف غوستاف لوبون ـ نقله الى العربية عادل زعيتر ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة سنة 1979 م.
60 ـ الحماسة البصرية ـ تأليف البصري ـ عالم الكتب ـ بيروت.
61 ـ الحياة الادبية في عصر بني أمية ـ تأليف محمد عبد المنعم خفاجي ـ دار الكتاب اللبناني ـ الطبعة الثانية ـ بيروت سنة 1980 م.
62 ـ الحيوان ـ تأليف الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ منشورات المجمع العلمي العربي الاسلامي ـ بيروت سنة 1969 م.
63 ـ الخراج ـ تأليف القاضي أبي يوسف صاحب الامام أبي حنيفة ـ نسخة عن مخطوطة في الخزانة التيمورية ـ عنيت بطبعه ونشره المطبعة السلفية ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة 1352 هـ

64 ـ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ـ تأليف عبد القادر البغدادي ـ دار صادر ـ بيروت (عن الطبعة الأولى).

65 ـ الخوارج في العصر الاموي ـ تأليف نايف معروف ـ دار الطليعة ـ بيروت سنة 1977 م.

66 ـ دائرة المعارف ـ تأليف المعلم بطرس البستاني ـ دار المعرفة ـ بيروت.

67 ـ الديارات ـ تأليف الشابشتي المتوفى سنة 388 هـ ـ تحقيق كوركيس عواد ـ مطبعة المعارف ـ الطبعة الثانية ـ بغداد 1966 م.

68 ـ ديوان الأعشى الكبير ـ شرح وتعليق الدكتور محمد محمد حسين ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة السابعة ـ 1983 م.

69 ـ ديوان بشر بن أبي خازم الاسدي ـ تحقيق الدكتور عزة حسن ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ الطبعة الثانية ـ دمشق سنة 1972 م.

70 ـ ديوان الحطيئة، من رواية ابن حبيب ـ المؤسسة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت.

71 ـ ديوان طرفة بن العبد ـ المؤسسة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت.

72 ـ ديوان عنترة ـ دار صادر ـ بيروت.

73 ـ ديوان الفرزدق ـ توزيع دار صعب ودار صادر ـ بيروت.

74 ـ ديوان الهذليين ـ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ـ الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة سنة 1965 م.

75 ـ ديوان يزيد بن المفرّغ الحميري ـ جمع وتحقيق الدكتور عبد القدوس أبي صالح ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الأولى ـ بيروت ـ سنة 1975 م.

76 ـ ذيل الامالي ـ تأليف أبي علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

77 ـ رسائل ونصوص ـ تأليف صلاح المنجد ـ دار الكتاب الجديد ـ بيروت سنة 1978 م.

78 ـ رسالة الغفران ـ تأليف أبي العلاء المعري ـ تقديم وتحقيق المحامي فوزي عطوي ـ دار صعب ـ بيروت.

79 ـ رغبة الآمل من كتاب الكامل ـ تأليف سيد بن علي المرصفي ـ مكتبة الاسدي ـ طهران سنة 1970 م.

80 ـ الروض النضير ـ شرح مجموع الفقه الكبير ـ تأليف القاضي الحسين أحمد السياغي ـ المتوفى سنة 1221 هـ ـ مكتبة المؤيد ـ الطبعة الثانية ـ الطائف.

81 ـ سرح العيون ـ شرح رسالة ابن زيدون ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة 1957.

82 ـ السنّة قبل التدوين ـ تأليف الدكتور محمد عجاج الخطيب ـ دار الفكر ـ الطبعة الثانية ـ دمشق سنة 1971 م.

83 ـ السياسة الجنائية في الشريعة الاسلامية ـ تأليف أحمد فتحي بهنسي ـ مكتبة دار العروبة ـ القاهرة سنة 1965 م.

84 ـ السيرة النبوية ـ تأليف ابن هشام ـ تحقيق مصطفى السقا ـ الابياري ـ الشلبي.

85 ـ الشاعر الاسلامي تحت نظام سلطة الخلافة ـ تأليف داود سلوم ـ مكتبة الفكر الجامعي منشورات عويدات بيروت سنة 1978 م.

86 ـ شرح ألفية السيوطي في علم مصطلح الحديث.

87 ـ شرح ديوان الحماسة لأبي تمام / التبريزي الشهير بالخطيب ـ عالم الكتب ـ بيروت.

88 ـ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليين / للانباري المتوفى سنة 328 هـ ـ تحقيق محمد عبد السلام هارون ـ دار المعاف ـ الطبعة الثانية ـ مصر سنة 1969 م.

89 ـ شرح مقامات الحريري البصري / للشريشي المتوفى سنة 620 هـ ـ أشرف على نشره محمد عبد المنعم خفاجي ـ المكتبة الشعبية ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة سنة 1979 م.

90 ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد ـ تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

91 ـ شعر البصرة في العصر الأموي ـ تأليف الدكتور عون الشريف قاسم ـ دار الثقافة بيروت سنة 1972 م.

92 ـ شعر الخوارج ـ جمع وتقديم الدكتور إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ الطبعة الثالثة ـ بيروت سنة 1974 م.

93 ـ الشعر والشعراء ـ تأليف ابن قتيبة ـ دار الثقافة ـ الطبعة الرابعة ـ بيروت سنة 1980 م.

94 ـ شعر الصعاليك ـ منهجه وخصائصه ـ تأليف الدكتور عبد الحليم حفني ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1979 م.

95 ـ الشعراء الصعاليك في العصر الأموي ـ تأليف حسين عطوان ـ مكتبة الدراسات الادبية دار المعارف بمصر سنة 1970 م.

96 ـ الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ـ تأليف الدكتور يوسف خليف ـ دار المعارف بمصر سنة 1959 م.

97 ـ شعراء النصرانية قبل الاسلام ـ تأليف لويس شيخو ـ دار المشرق ـ الطبعة الثالثة ـ بيروت سنة 1982 م.

98 ـ شعر هدبة بن الخشرم العذري ـ جمعه وحققه الدكتور يحيى الجبوري ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ دمشق سنة 1976 م.

99 ـ صحيح البخاري ـ محمد بن اسماعيل ـ دار المعرفة ـ بيروت.

100 ـ صحيح مسلم ـ مسلم بن الحجاج ـ دار إحياء التراث العربي ـ الطبعة الثانية سنة 1972 م.

101 ـ ضحى الاسلام ـ تأليف أحمد أمين ـ دار الكتاب العربي ـ الطبعة العاشرة ـ بيروت سنة 1933 م.

102 ـ طبقات الشافعية ـ تقي الدين السبكي ـ دار المعرفة ـ بيروت.

103 ـ طبقات فحول الشعراء ـ محمد بن سلام الجمحي ـ المتوفى سنة 231 هـ ـ قراءة وشرح محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدني ـ القاهرة.

104 ـ الطبقات الكبرى لابن سعد ـ دار صادر ـ بيروت.

105 ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ـ تأليف ابن القيّم الجوزية ـ المؤسسة العربية للطباعة والنشر ـ القاهرة سنة 1961 م.

106 ـ العقد الفريد ـ تأليف ابن عبد ربه الاندلسي ـ دار الكتاب العربي ـ الطبعة الثالثة ـ بيروت ـ عن لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة سنة 1965 م.

107 ـ العقوبة في الفقه الاسلامي ـ تأليف أحمد فتحي بهنسي ـ مكتبة دار العروبة ـ الطبعة الثانية ـ سنة 1961 ـ القاهرة.

108 ـ العمدة ـ تأليف ابن رشيق القيرواني المتوفى سنة 456 هـ ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار الجيل ـ الطبعة الرابعة سنة 1972 م.

109 ـ عمر بن أبي ربيعة ـ تأليف جبرائيل جبور ـ دار العلم للملايين ـ الطبعة الثالثة ـ بيروت سنة 1981 م.

110 ـ عيون الاخبار ـ تأليف ابن قتيبة الدينوري ـ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ـ المؤسسة المصرية العامة سنة 1963 م.

111 ـ فتوح البلدان ـ تأليف البلاذري ـ مراجعة وتحقيق رضوان محمد رضوان ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت سنة 1978 م.

112 ـ فجر الاسلام ـ تأليف أحمد أمين ـ الناشر دار الكتاب العربي ـ الطبعة العاشرة ـ بيروت سنة 1969 م.

113 ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ـ تأليف محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا ـ دار بيروت للطباعة والنشر سنة 1966 م.

114 ـ الفرج بعد الشدة ـ تأليف القاضي ابن علي . . . التنوخي المتوفي سنة 384 هـ ـ تحقيق عبود الشالجي ـ دار صادر ـ بيروت ـ سنة 1978 م.

115 ـ الفقه الاسلامي وأدلته ـ تأليف الدكتور وهبه الزحيلي ـ دار الفكر ـ الطبعة الأولى ـ دمشق سنة 1984 م.
116 ـ فقه الامام جعفر الصادق، محمد جواد مغنية ـ دار الجواد ـ الطبعة الرابعة ـ بيروت ـ سنة 1982 م.
117 ـ الفكر القانوني الاسلامي ـ تأليف فتحي عثمان ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة.
118 ـ فلسفة التشريع في الاسلام ـ تأليف الدكتور صبحي محمصاني ـ دار العلم للملايين ـ الطبعة الرابعة ـ بيروت سنة 1975 م.
119 ـ الفهرست لابن النديم ـ تحقيق رضا تجدد ـ طهران سنة 1971 م.
120 ـ القاموس المحيط، الفيروز آبادي ـ دار الجيل والمؤسسة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت.
121 ـ قصة الحضارة / ول ديورانت ـ الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الثالثة ـ القاهرة سنة 1965 م.
122 ـ قصص العرب، تأليف محمد أبوا لفضل ابراهيم ورفاقه ـ دار احياء التراث العربي ـ الطبعة الرابعة ـ بيروت سنة 1962 م.
123 ـ القضايا الكبرى في الاسلام ـ تأليف عبد المتعال الصعيدي ـ مكتبة الآداب ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة سنة 1960 م.
124 ـ قوانين الاحكام الشرعية ـ تأليف محمد بن أحمد المالكي ـ المتوفى سنة 741 هـ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت سنة 1974 م.
125 ـ الكامل في التاريخ / تأليف ابن الأثير ـ دار صادر ـ بيروت.
126 ـ الكامل في اللغة والادب ـ للمبرّد المتوفى سنة 285 هـ ـ مكتبة المعارف ـ بيروت.
127 ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت.
128 ـ مائة أوائل ـ سهيل زكّار ـ دار حسان للطباعة والنشر ـ الطبعة الثانية ـ دمشق سنة 1982 م.
129 ـ المجاني الحديثة ـ عن مجاني الأب شيخو بادارة فؤاد أفرام البستاني ـ المطبعة الكاثوليكية ـ الطبعة الثالثة ـ بيروت سنة 1966 م.
130 ـ المجروحين من المحدثين الضعفاء والمتروكين ـ تأليف محمد بن حيان ـ المتوفى سنة 254 هـ ـ تحقيق محمود ابراهيم زايد ـ دار المعرفة ـ بيروت.
131 ـ المحاسن والمساوئ ـ للشيخ ابراهيم بن محمد البيهقي ـ دار صادر ـ بيروت سنة 1970م.
132 ـ المحاسن والاضداد ـ للجاحظ ـ حققه وقدم له المحامي فوزي عطوي ـ دار صعب ـ بيروت سنة 1969 م.

133 ـ محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء. لابي القاسم حسين بن. . . الاصبهاني.
134 ـ مختارات ابن الشجري ـ تأليف هبة الله بن الشجري ـ دار العلم للجميع ـ الطبعة الثانية.
135 ـ المختصر في أخبار البشر ـ لأبي الفداء ـ دار المعرفة ـ بيروت.
136 ـ المختصر في تفسير القرآن من تفسير الامام الطبري وغيره. مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الأولى سنة 1979م.
137 ـ المخصص لابن سيدة المتوفى سنة 458 هـ ـ دار الفكر.
138 ـ المدخل لدراسة الشريعة الاسلامية ـ تأليف الدكتور عبد الكريم زيدان ـ مكتبة القدس ومؤسسة الرسالة ـ الطبعة الخامسة سنة 1976 م.
139 ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ تأليف المسعودي ـ المتوفى عام 346 هـ ـ دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع ـ الطبعة الرابعة ـ بيروت سنة 1981 م.
140 ـ المسند ـ أحمد بن حنبل ـ دار الفكر ـ بيروت.
141 ـ المستطرف في كل فن مستظرف ـ تأليف شهاب الدين. . . الابشهي ـ دار احياء التراث العربي ـ الطبعة الأخيرة.
142 ـ مصارع العشاق ـ تأليف جعفر بن أحمد السراج القارئ ـ دار صعب ودار صادر بيروت.
143 ـ المعارف ـ لابن قتيبة ـ المتوفى سنة 276 هـ ـ تحقيق الدكتور ثروت عكاشة ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثانية سنة 1969 م.
144 ـ معالم القربة في أحكام الحسبة ـ تأليف محمد بن. . . القرشي ـ تحقيق الدكتور محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1976 م.
145 ـ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ـ تأليف عبد الرحيم العباس المتوفى سنة 963 هـ ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ عالم الكتب ـ بيروت.
146 ـ معجم الادباء ـ لياقوت الحموي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
147 ـ معجم البلدان ـ لياقوت الحموي ـ دار صادر بيروت سنة 1977م.
148 ـ معجم الشعراء في لسان العرب ـ الدكتور ياسين الأيوبي ـ دار العلم للملايين ـ الطبعة الأولى سنة 1980م.
149 ـ معجم الشعراء / المرزباني والمؤتلف والمختلف، للآمدي المتوفى سنة 370 هـ ـ تصحيح وتعليق د. ف. كرنكو ـ دار الكتب العلمية ـ الطبعة الثانية ـ بيروت سنة 1982م.

150 ـ معجم الفقه الحنبلي مستخلص من كتاب المغني لابن قدامة ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت سنة 1973 م.

151 ـ معجم لغة الفقهاء ـ وضع الدكتور محمد روّاس قلعجي والدكتور حامد صادق قنيبي ـ دار النفائس الطبعة الأولى ـ بيروت سنة 1985م.

152 ـ معجم المؤلفين ـ تأليف عمر رضا كحالة ـ مكتبة المثنى ـ بيروت ودار إحياء التراث العربي ـ بيروت. سنة 1957 م.

153 ـ معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع ـ تأليف عبد الله البَكري الاندلسي المتوفى سنة 487 هـ ـ تحقيق مصطفى السقّا ـ عالم الكتب ـ الطبعة الثالثة ـ بيروت سنة 1983م.

154 ـ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ـ وضعه محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الكتب المصرية ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت سنة 1945م.

155 ـ معين الحكام ـ تأليف علاء الدين الطرابلسي الحنفي ـ الطبعة الأولى بولاق مصر سنة 1300 هـ.

156 ـ المغني ـ ابن قدامة المقدسي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت سنة 1973م.

157 ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ تأليف الدكتور جواد علي ـ دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة بغداد ـ الطبعة الثانية سنة 1976م.

158 ـ المفضليات ـ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الخامسة سنة 1977 م.

159 ـ مفهوم الحرية في الاسلام ـ فرانز روزنتال ـ ترجمة وتقديم الدكتور معن زيادة ورضوان السيد ـ معهد الانماء العربي ـ ليبيا سنة 1978 م.

160 ـ مقاتل الطالبيين ـ لأبي الفرج الاصبهاني المتوفى سنة 356 هـ ـ شرح وتحقيق السيد أحمد صقر ـ دار المعرفة ـ بيروت.

161 ـ المكافأة ـ لأبي جعفر الكاتب ـ صححه وضبطه أحمد أمين بك وعلي الجارم بك ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة سنة 1941 م.

162 ـ مناقب الامام أحمد بن حنبل ـ لابن الجوزي ـ الناشر خانجي وحمدان ـ الطبعة الثانية ـ بيروت سنة 1349 هـ

163 ـ المنتظم في تاريخ الملوك والامم ـ لابن الجوزي المتوفى سنة 597 هـ ـ مطبعة دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر أباد ـ الطبعة الأولى سنة 1357 هـ

164 ـ المنية والأمل في شرح الملل والنحل ـ تأليف أحمد اليماني المتوفى سنة 840 هـ ـ تحقيق الدكتور محمد جواد مشكور ـ دار الفكر ـ الطبعة الأولى ـ بيروت سنة 1979 م.

165 ـ موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبّان الهيثمي ـ تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة ـ مكة المكرمة ـ دار الكتب العلمية.

166 ـ المواعظ والاعتبار المعروف بالخطط المقريزية ـ تأليف تقي الدين المقريزي المتوفى سنة 845 هـ ـ دار صادر ـ بيروت ـ الطبعة الجديدة بالاوفست.

167 ـ موسوعة الشعر العربي ـ الشعر الجاهلي ـ شركة خياط للكتب والنشر ـ بيروت سنة 1974 م.

168 ـ الموسوعة العربية الميسرة ـ بإشراف محمد شفيق غربال ـ دار الشعب ومؤسسة فرانكلن للطباعة والنشر ـ صورة طبق الأصل من طبعة سنة 1965 م.

169 ـ موطأ الامام مالك ـ رواية يحيى بن يحيى الليثي ـ إعداد أحمد راتب عرموش ـ دار النفائس ـ الطبعة الخامسة ـ بيروت سنة 1981 م.

170 ـ نصب الراية ـ تأليف جمال الدين الزيلعي ـ المتوفى سنة 762 هـ ـ المكتب الاسلامي الطبعة الثانية ـ بيروت سنة 1392 هـ.

171 ـ .نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ـ جمعها وعلّق عليها ميخائيل عواد ـ دار الكتاب اللبناني سنة 1964 م.

172 ـ النظم الاسلامية ـ نشأتها وتطورها ـ تأليف الدكتور صبحي الصالح ـ دار العلم للملايين ـ الطبعة الخامسة ـ بيروت سنة 1980 م.

173 ـ نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي والسلطة القضائية ـ القاسمي.

174 ـ نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية ـ تأليف الشيخ عبد الحي الكتّاني ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

175 ـ النظرية العامة للموجبات والعقود ـ تأليف الدكتور صبحي محمصاني ـ دار العلم للملايين ـ الطبعة الثانية ـ سنة 1972 م.

176 ـ نقائض جرير والفرزدق ـ لأبي عبيدة معمر بن المثنى ـ المتوفى سنة 209 هـ ـ باعتناء المستشرق الانكليزي بيفان ـ مكتبة المثنى ـ بغداد.

177 ـ النهاية في مجرد الفقه والفتاوى ـ تأليف محمد بن الحسن الطوسي ـ المتوفى سنة 460 هـ ـ دار الكتاب العربي ـ الطبعة الثانية ـ بيروت سنة 1980م.

178 ـ نهاية الارب في فنون الأدب ـ تأليف شهاب الدين. . . النويري ـ 677 م ـ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ـ القاهرة.

179 ـ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ـ تأليف أبي العباس أحمد القلقشندي ـ المتوفى سنة 821 هـ ـ تحقيق إبراهيم الابياري ـ دار الكتاب اللبناني ـ الطبعة الثانية بيروت سنة 1980 م.

180 ـ نيل الأوطار ـ تأليف محمد علي الشوكاني ـ دار القلم ـ بيروت.

181 ـ الهجاء والهجاؤون في الجاهلية بقلم الدكتور محمد محمد حسين ـ دار النهضة العربية ـ الطبعة الثالثة ـ بيروت سنة 1970 م.
182 ـ الوزراء والكتّاب ـ للجهشياري ـ تحقيق السقّا ورفاقه ـ شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي ـ الطبعة الثانية ـ مصر سنة 1980 م.
183 ـ الوطن في الشعر العربي ـ تأليف الدكتور وهيب طنوس ـ مدرس الادب العربي بجامعة حلب ـ الطبعة الأولى 75 ـ 1976 م.
184 ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ لابن خلكان المتوفى سنة 681 هـ ـ تحقيق الدكتور إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت سنة 1969 م.
185 ـ الشذوذ العبقري والجنسي والاجرامي ـ تأليف عبد الله حسين ـ مطبعة الشباب الحديثة ـ مصر ـ 1948 ـ 1949.
186 ـ علم الجريمة ـ تأليف الدكتور حسن شحاتة سعفان ـ مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة الثانية 1961 ـ 1962 م.
187 ـ الجريمة ـ تأليف جان مركيزيه ـ ترجمة عيسى عصفور ـ منشورات عويدات ـ بيروت باريس ـ الطبعة الأولى 1983 م.

الكتب الأجنبية

188- Les Arabes- Jacques Berque - La bibliothèque arabe - collections éditées par Pierre Bernard- 3ème édition sindbad- Paris 1979.
189- Que sais-je - La littérature arabe- André Miquel- Presses universitaires de France - 2ème éditions- 1976.
190- L'âge d'or des abbasides - Hermann Zotenberg - collections éditées par Pierre Bernard - Sindbad- Paris 1938.
191- Mahomet et la tradition islamique - Emile Dermenghem-Maîtres spirituels - Edition du Seuil - Paris - 1982.
192- L'islam - origine et essor du monde arabe - René Kalisky- Marabout- La nouvelle édition Marabout- verviers-Belgique- 1980.
193- L'islam et la réforme - Victor Segesvary - Edition l'âge d'homme - Lausanne- Suisse- 1978.
194- Les peuples et les civilisations du proche Orient - Jawad Boulos- Dar Aouad- Beyrouth- 1983.

الفهرس

1995/1 /520